الفكر الديني اليهودي

أطواره ومذاهبه

الدكتور حسن ظاظا



دار القلم
دمشق

دار العلوم والثقافة
بيروت

الفكر الديني اليهودي

أطواره ومذاهبه

اهداءات ٢٠٠٢

أ.د/ مصطفى الصاوى الجوينى

الاسكندرية

الفكر الديني اليهودي

أطواره ومذاهبه

طبعة جديدة من كتاب
الفكر الديني الإسرائيلي: أطواره ومذاهبه

الدكتور حسن ظاظا

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الثانية
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب: ٤٥٢٣ - هاتف: ٢٢٩١٧٧

دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الدين اليهودي هو عصب العنصرية اليهودية . وهو دين يختلف اختلافاً بيناً ، من حيث طبيعته ونشأته وتاريخه ، عن أكثر الأديان التي نعرفها . فهو مجموعة من العقائد والشرائع والطقوس وقواعد السلوك والأخلاق ، تراكمت وتبلورت ونضجت على مدى آلاف من السنين . لم تنزل على رجل واحد ، إذ إن تاريخ النبوة في إسرائيل يواكب التاريخ الاجتماعي والسياسي لتلك المجموعة البشرية ، منذ مجاهل التاريخ الأولى إلى بداية القرن الرابع قبل الميلاد ، عند المدققين من اليهود في التزام النقول المروية في النصوص المقدسة ، وإلى ما بعد ذلك بقرون عند غير الملتزمين ، ممن يرون في الكهنة والأحبار الذين تلوا الأنبياء الأخيرين : دانيال ، وإستير ، وعزرا ، ونحميا ، وملاكي ، استمراراً للوحي والنبوة في هذا المجتمع .

بل إن الملتزمين أنفسهم من طائفة اليهود الفريسيين ـ الذين نسميهم الربِّيين أو الربانيين ـ يقولون بهذا الاستمرار . فهم يسمون « المِشْنَة » بالاسم الطنان الرنان « التوراة الشفوية » ، مع أنها ـ كما سنرى بعد ـ ليست إلا مجموعة من الاجتهادات والفتاوى والشرائع التي سنَّها أحبار من هؤلاء اليهود بعد انقضاء عصر النبوة .

ويظل باب النبوة هذا مفتوحاً عند مؤرخي الفكر الإسرائيلي ليدخل منه أنبياء أنكرهم اليهود وكفروا بهم ، من أمثال يوحنا المعمدان (النبي يحيى) ، والمسيح عيسى بن مريم عليهما السلام . بل إن كثيراً من «العلمانيين»

اليهود ، ممن ألهبت أرواحهم نيران الصهيونية الحديثة ، يبقون باب النبوة هذا مفتوحاً حتى القرن العشرين ليدخل منه تيودور هرتسل أيضاً .

وبالرغم من هذا الالتحام العضوي في اليهودية بين ما هو دين وما هو قومية ، وبالرغم من أن نتيجة ذلك كانت ، من الناحية الاجتماعية ، هي إبقاء تلك الطائفة من الناس معزولة عن الإنسانية المحيطة بها وراء أسوار ومتاريس من العادات والتقاليد ، والأشكال الخاصة لفهم الحياة والتعامل مع البشر ، فقد أثرت اليهودية تأثيراً عميقاً جداً في الفكر البشري ، كما أنها ـ سواء أقرت بذلك أم أنكرته ـ قد تأثرت به بعمق أيضاً ، ولكن يظل وراء ذلك حائط الشكليات مانعاً من التبادل الحر، ومن الاندماج، ومن النظرة السمحة للزمان والناس .

وإذا كانت الصهيونية المعاصرة التي انغرست في فلسطين مع الاستعمار الغربي في الشرق الأوسط ، قد أفلحت حتى الآن في التغرير بالرأي العام العالمي ، وإفهام السذج من غير شعب الله المختار أن هذه الدولة قد قامت في هذه الأرض لتكرس بها عصر الديمقراطية والتقدم والتكنولوجيا والتعاون والإخاء ، فإن التكوين الحقيقي للفكر الصهيوني الكامن وراء هذا التزويق ، إنما يرجع معظمه ـ إن لم يكن كله ـ إلى أعماق وثنايا ومنحنيات تاريخية قديمة عرفها المجتمع اليهودي من خلال الدين ، ومن خلال المفاهيم الاعتقادية ، والمسلّمات الغيبية ، والتفاسير الصوفية والفولكلورية التي غص بها تراثهم الديني .

إنه من وجهة النظر الأدبية تراث قيم وممتع ، لا شك في هذا ، وهو مليء بالعجائب والغرائب التي سجلها اليهود على مدى تاريخهم الطويل ، إما من تجاربهم الاجتماعية الشخصية ، وإما من تجارب الأمم الأخرى التي عاشوا بين ظهرانيها ، فأغاروا على تراثها وانتحلوا منه ما شاؤوا لأنفسهم ، وادعوا أصالته عندهم .

إن « اليهودي التائه » ليس مجرد هذا الشخص المسكين المتوهم أنه سليل إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ووريث موسى وهارون ، وخليفة سليمان

وداود ، مهما كان يضرب في مناكب الأرض مفلوكاً، متصعلكاً ، خائفاً ، يجوب الآفاق عصاه بيده وخُرجه وراء ظهره . إن اليهودي التائه هو شظايا من القنبلة الاجتماعية الإسرائيلية تناثرت في كل مكان ، فأخذت ما شاء لها أن تأخذ من تجارب البشر ومأثورات الناس ، ثم كانت تعود فتلتئم أجزاء منها ، لتجعل من هذه المقتبسات المتعددة الأصول سبيكة ممتزجة في بوتقة الذوق الفكري اليهودي .

إن في الأدب اليهودي للباحث البصير غير المخدوع ولا المتعصب ، صهيونية اغتصب فيها إسرائيل أفكاراً من أثمن أفكار الأمم الأخرى وأكثرها أصالة فيها وأعزها عليها ، وادّعاها لنفسه ، تماماً كما اغتصب فلسطين .

ومع ذلك فإن هذه الظاهرة كانت سلاحاً ذا حدين ، إذ أنها كما ساعدت على شد أواصر العصبية اليهودية ، كانت في نفس الوقت سبباً في اختلاف المذاهب والآراء والأفكار ووجهات النظر بين اليهود بعضهم وبعض .

واليهود من أشد الناس إصابة بداء الخلاف ، ولعل ذلك راجع إلى الاختلاف المبدئي في المصادر والينابيع الأولى لتراثهم الفكري وتكتلهم الاجتماعي . وهي الظاهرة التي إن درست بما يحق لها من التعمق والعناية شرحت لنا الكثير من حقائق الاتجاهات الصهيونية المختلفة التي نلاحظها في سياسة إسرائيل الآن .

ونحن نريد بهذه الصفحات أن تكون مقدمة ، وتمهيداً للطريق ، نحو فهم أعمق لكُنْه الفكر الإسرائيلي .

الدكتور حسن ظاظا

الإسكندرية ، فبراير ١٩٧١

الفصل الأوّل

إِسْرَائيل وَمُقَدَّسَاتُه القَدِيمَة

كان المرجع الوحيد للتاريخ الإسرائيلي القديم حتى بداية القرن التاسع عشر هو كتاب اليهود المقدس المعروف باسم العهد القديم . بل لقد كان هذا الكتاب حتى هذا التاريخ المتأخر يعتبر المرجع الأول والأساسي لتاريخ الشرق الأدنى القديم كله . ولكن ، مع الطفرة الهائلة التي تمت في ميدان الحفائر والاكتشافات الأثرية في هذه المنطقة ، وبفضل النجاح في قراءة كتابات قديمة كانت طلاسم وألغازاً حتى هذا الوقت ، كالكتابات المصرية الفرعونية : الهيروغليفية ، والهيراطيقية ثم الديموطيقية ، وكالكتابات المسمارية في العراق وما جاورها : الشوميرية ، والبابلية ، والأشورية ، والكلدانية ، والفارسية الأخمينية ، والحيثية ، والكنعانية المسمارية في منطقة رأس الشمرة القريبة من اللاذقية بسوريا ، بفضل هذا كله ، وبما لحق به من نصوص أميط عنها اللثام من الفينيقيين في لبنان ، والقرطاجيين في تونس ، والآراميين والأدوميين في سوريا والأردن ، ونقوش العرب في شبه جزيرتهم جنوبيها وشماليها ، بدأت أضواء جديدة ـ علمية يقينية ، وتاريخية جديرة بالاعتبار ـ تزاحم المأثورات الشعبية ، والعنعنات اليهودية ، وتنازعها حق القيادة والتوجيه فيما يتصل ببداية الفكر الإنساني وتاريخ الحضارة في هذه

المنطقة . وساعد على ذلك نزعة تحرر من سلطان الكهنوت ، وسيادة الكنيسة ، مع ازدهار القوميات السياسية في أوروبا الحديثة ، ومع الثورة الاقتصادية والعلمية التي ما تزال انفجاراتها تتوالى حتى الآن .

من هنا أحس الباحثون على اختلاف نزعاتهم ومللهم وعقائدهم ، بضرورة إعادة النظر في كل المرويات الإسرائيلية التي كانت المعتمد الوحيد المسلم به بدون مناقشة على مدى أجيال وأجيال من التاريخ .

وبدأ رشاش من ذلك يصل إلى العالم العربي ـ وهو مركز هذه الأبحاث ، ومستودع تلك الآثار والحضارات ـ فأخذ كثير من الباحثين في مراجعة التراث العربي الإسلامي من جديد ، وقد شد انتباههم بعض ما ورد في مؤلفات الأقدمين من الأئمة والعلماء عن الرشح اليهودي على الفكر الإسلامي فيما يتصل بالتاريخ وتفسير القرآن الكريم ؛ وترددت كلمة « الإسرائيليات » لتمييز هذا الرشح اليهودي والدعوة إلى تصفية الفكر العربي والإسلامي منه ، وكان من أعلام الدعاة إلى ذلك الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وتلميذه السيد محمد رشيد رضا، وأستاذنا المرحوم أمين الخولي وغيرهم .

وقد خاض أولئك الأعلام معركتهم المعقدة المترامية الأطراف بالوسائل والأسلحة التي وجدوها في متناول أيديهم ، وأهمها عرض المرويات المشبوهة على المحك التقليدي الذي تتضمنه قواعد علم مصطلح الحديث ، من نقد السند ـ أي سلسلة رواة الخبر واحداً واحداً ـ ونقد المتن ، وهو المضمون الذي يفصح عنه الخبر ، بعرضه على ميزان العقل تارة ، وميزان النقل تارة أخرى ، وذلك بمقارنته بالنصوص الوثيقة من القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وبيان ما قد يكون فيه من تناقض أو تهافت .

وفضل هؤلاء الأعلام في توجيه الأنظار إلى ما حذر منه القدامى من الأئمة لا يمكن جحوده . ولكن المنهج كان بدون شك مفتقراً إلى اتصال مباشر بالإسرائيليات في أصولها ولدى أهلها ، وكان لا بد من تخطي هذا

أيضاً إلى منابع هذه الإسرائيليات في الوثنيات القديمة في الشرق ، كلما كان ذلك متعيناً .

وإذا كان العالم الإسلامي ، وكثير من مفكري المسيحية أيضاً ، قد امتعضوا وتبرّموا بالتسرب الفكري الإسرائيلي إلى تراثهم ، فإن اليهود من ناحيتهم ، يباهون بذلك ويفخرون به ، ويجعلون من أهم مبررات وجودهم ، ودلائل ترشيحهم السماوي للدور القيادي على الأرض ، أن أثرهم العقائدي متغلغل في الأمم الأخرى ، واضح في حياتها الروحية ونظمها الشرعية .

العهد القديم وأقسامه

هو النص الأساسي الذي يقوم عليه دين اليهود ، وهو في صورته التي وصل إلينا بها يحتوي على ثلاثة أقسام : التوراة ، والأنبياء ، والكتب أو أسفار الحكمة.

أما التوراة والأنبياء فإنهما يسيران في نسق تاريخي متصل ، ويحكيان قصة حياة العبريين منذ البداية إلى عودتهم من السبي البابلي في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد . هما معاً بمثابة ملحمة تغرس في نفس القارىء إيماناً بعبقرية هذه الفئة الصغيرة من الناس ، وبطولتها في مواجهة الأحداث الضارية على مدى ألف وخمسمائة سنة من الزمان . وشكلها الملحمي هذا يستوفي كل عناصر المأثورات الشعبية القديمة الداخلة في هذا الصنف من الأدب في أشد صورها فخامةً وتألقاً .

ولكي يتم ظهور الشخصية الإسرائيلية خلال هذه الملحمة على مسرح الإنسانية في دور البطولة الذي لا ينازعها فيه منازع ، فإنها تبدأ بالكلام عن خلق العالم بحيث يتم خلال ذلك انتقاء « شعب الله المختار » من بين الأمم الأخرى لهذا الدور الذي رشحته له السماء . ويمضي السرد القصصي التاريخي في هذين القسمين من العهد القديم مشحوناً في مواضع معينة بالشرائع والقوانين وقواعد السلوك وأركان الاعتقاد ، وتختلف فيهما نسبة ما هو أسطورة وما هو تاريخ واقعي ، باختلاف الحوادث بعداً وقرباً من

الحقب التاريخية المسجلة عند الأمم الأخرى وحسب ما تتطلبه المواقف السياسية والحربية من ذلك .

أما القسم الثالث والأخير وهو الكتب ، فإنه تراث أدبي يكثر فيه الشعر والأمثال والقصص ، ويعتبر غذاءً روحياً مستقلاً ، إلى حدّ ما ، عن الأحداث التاريخية للأمة .

وسنبدأ بتقديم تعريف مركّز موجز بهذه الأقسام .

١ ـ التوراة

وهي تتألف من خمسة كتب أو أسفار ، تنسب إلى موسى ؛ وتوصف بأنها أنزلت عليه من الله في طور سيناء . وتغطي هذه الأسفار الخمسة فترة من التاريخ تبدأ مع بدء الخليقة ، وتنتهي بوفاة موسى على جبل « نبو » في شرق الأردن حوالي سنة ١٣٠٠ ق.م. وهذه التوراة ، بأسفارها الخمسة ، تتتابع في شكلها الذي بين أيدينا على النظام التالي :

(أ) سفر التكوين :

ويقع في خمسين فصلاً ، أو إصحاحاً ، تحكي في خطوطها العريضة قصص آدم ، ونوح ، والطوفان ، وما كان من أمر أبنائه بعد الطوفان: سام ، وحام ، ويافث . ثم تصل إلى الجد الأعلى الذي ينتمي إليه اليهود ، وهو إبراهيم . وتتحدث عن سلالته مركزة الحديث عن ابنه إسحٰق ، ثم يعقوب بن إسحٰق ، الذي يسمى أيضاً إسرائيل . وينتهي هذا السفر بقصة يوسف ومجيئه إلى مصر ، ولحاق يعقوب وأبنائه الأحد عشر به ، واستقرارهم في أرض الفراعنة .

(ب) سفر الخروج :

ويقع في أربعين إصحاحاً تبدأ بالحديث عن اضطهاد الفراعنة لبني إسرائيل ، بعد أن عظم شأنهم ، وكثر عددهم خلال الأجيال التي انصرمت منذ موت يوسف ، بحيث أصبحوا خطراً يهدد سلامة مصر . في تلك الفترة يولد موسى فيحكي هذا السفر قصة مولده ونشأته وتحركاته في منطقة الشرق

الأدنى ، وبخاصة صحراء سيناء وأرض مدين ، إلى أن يأتيه الوحي الإلهي على جبل الطـور بالبدء في تحدي فرعون ، والعمل على إخراج اليهود من مصر ، « أرض العبودية » ، وقد تم ذلك . فعبر بهم البحر ، وبدأت رحلتهم عبر سيناء (من الإصحاح الخامس عشر) . ثم يتلقى موسى « الوصايا العشر » التي ذُكرت في الإصحاح العشرين (الآيات ١ ـ ١٧) ، وقد تكرر ذكرها في السفر الخامس من التوراة وهو سفر التثنية ، الإصحاح الخامس (الآيات ٧ ـ ٢١) . كذلك ترد في هذا السفر (الإصحاح ٢٠ الآية ٢٢ إلى الإصحاح ٢٣ الآية ١٩) مجموعة هامة من الشرائع والقوانين تسمى « قانون العهد » ، ثم يصعد موسى إلى الجبل ، وتطول إقامته وحيداً هناك ؛ وإذا ببني إسرائيل يرتدون عن دينه إلى عبادة العجل . فيتولى موسى عملية إصلاح ديني جديدة ، تستمر أثناء رحلته بهم شرقاً .

(جـ) سفر اللاويِّين :

ويسمى أيضاً سفر الأحبار ، نظراً لأن الشرائع والطقوس الكهنوتية تشغل فيه المكان الأول . وكانت مهمة الكهانة موكولة إلى سبط « لاوي »[1] ابن يعقوب ، وهي القبيلة التي ينتمي إليها موسى وأخوه هارون ، والتي كان الكهنة كلهم منها حسب اشتراط التوراة لذلك . ويقع هذا السفر في سبعة وعشرين إصحاحاً ، وفيه يتوقف سرد بقية قصة المسيرة الإسرائيلية مع موسى عبر سيناء ، بحيث يحتوي على التعاليم الخاصة بالحياة الدينية فقط . ونصوصه تتكامل مع القسم الأخير من سفر الخروج الذي قبله ، ومع جزء كبير من سفر العدد ، الذي بعده ، من حيث وحدة الموضوع . ويسمي علماء الشريعة الإسرائيلية هذا الكل المتكامل باسم « القانون الكهنوتي » .

(د) سفر العدد :

وهو ستة وثلاثون إصحاحاً . وسمي بهذا الاسم لبروز ظاهرة التعداد الدقيق خلال نصوصه ، كالإصحاح الأول ، والرابع ، والسادس والعشرين مثلاً ، حيث يرد إحصاء تفصيلي للشعب الراحل مع موسى في الصحراء ؛

---

(١) ينطق اليهود هذا الاسم الآن « ليفي » .

كما أن المعلومات المبنية على الأعداد والأرقام حول الذبائح وعدد المدن والقرى ، ونحو ذلك ، تكثر فيه كثرة تلفت النظر . وفي هذا السفر رجوع إلى سرد قصة مسيرة موسى وقومه ، تتخللها الأحكام الشرعية في مختلف المسائل ، والفتاوى الفقهية حسب ما يعنّ من ظروف . كذلك يكثر فيه تذمر العبريين من متابعة السير على خطوات موسى ، وانحرافهم نحو ألوان من الفسوق والعصيان ، كثيراً ما أثارت غضب موسى نفسه عليهم .

(هـ) سفر التثنية :

ويسمى كذلك سفر « تثنية الاشتراع » ، أي إعادة الشريعة وتكرارها على بني إسرائيل مرة ثانية عند خروجهم من سيناء ، ووصولهم إلى سهول النقب وجنوب الأردن في صحراء مؤاب . وبالطبع كان هناك نَسْخ لبعض تعاليم الشريعة الأولى عند تثنيتها ، أو إضافة لأشياء لم ترد من قبل ، فهنا مثلاً نفاجأ بنص يجعل نظام الحكم ملكياً ، إذ يقول في الإصحاح السابع عشر (الآيات ١٤ ـ ١٨) : « إذا دخلتَ الأرض التي يعطيك الرب إلهك ، وملكتها ، وسكنت فيها ، فقلتَ أقيم عليّ ملكاً كسائر الأمم الذين حواليّ ؛ فأقم عليك مَنْ يختاره الرب إلٰهك ، من بين إخوتك تقيم عليك ملكاً ، وليس لك أن تقيم عليك رجلاً أجنبياً ليس بأخيك . لكن لا يستكثر من الخيل ، كي لا يردّ الشعب إلى مصر بسبب كثرة الخيل ، فقد قال لكم الرب : لا تعاودوا الرجوع في هذه الطريق أيضاً . ولا يستكثر من النساء لئلا يزيغ قلبه، ولا يبالغ في استكثار الذهب والفضة. ومتى جلس على عرش ملكه ، فليكتب له نسخة من هذه التوراة في سِفر مِنْ عند الكهنة اللاويين » .

وهذا السفر ، الذي ينهي التوراة المنسوبة إلى موسى ، يعبر ـ دينياً واجتماعياً ـ أصدق تعبير عن الفكر الإسرائيلي القح ، بل لعله يعبر عن ذلك أوضح من تعبيره عن موسى نفسه ، ويقع في أربعة وثلاثين إصحاحاً ، ورد في آخرها قوله (الآيتان ٥ ـ ٦) : « فمات هناك موسى ، عبد الرب ، في أرض مؤاب : بأمر الرب . وتم دفنه في الوادي ، في أرض مؤاب ، تجاه بيت فاعور ، ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا » .

نظرة تحليلية ـ توراة موسى ـ لغة التوراة :

وهذا النص الأخير يشعرنا بأن توراة موسى هذه، في وضعها الذي جاءت به إلينا ، تمثل مشكلة غامضة جداً ، ومعقدة أشد التعقيد ، من حيث علاقتها بما كان من أمر الشريعة الموسوية على عهد صاحبها نفسه . فحتى من حيث اللغة نجد لزاماً علينا أن نسأل إلى أيّ حد احتفظت عبرية هذه التوراة بالسمات الأولى للسان الذي كان يتحدث به موسى ، على فرض أنه كان يتحدث بالعبرية ، أو بلغة سامية شبيهة بها . فنحن نعلم أن قروناً كانت قد مرت بين أيام يوسف وأيام موسى ؛ وأن موسى نفسه قد ولد في مصر ، كما ولد فيها آباؤه من قبل ، وأنه تربّى في بيت فرعون ، وهو من أبعد البيوت في مصر عن احتمال التفاهم باللغة العبرية ، أو بلغة شبيهة بها من لغات الساميين .

رأي فرويد في شخصية موسى :

هذه المشكلة الأولى دفعت الباحث اليهودي المعاصر ، والطبيب النفساني الشهير ،زيجموند فرويد إلى القول بأن موسى كان مصرياً[(١)] . وهو يستند في ترجيح هذا الافتراض إلى أسانيد يمكن تلخيصها فيما يلي :

١ ـ أنه لم يرد في أسماء الساميين جميعاً ، سواء أكانوا من العبريين أو من غيرهم كالآراميين والكنعانيين والأكّاديين اسم نطقه كاسم موسى فهذا النبي هو أول شخص يحمل هذا الاسم .

٢ ـ أن كلمة موسى باشتقاقها الذي ذكرته التوراة يدعو إلى كثير من التأمل والتفكير . ففي الإصحاح الثاني من سفر الخروج تنتشله ابنة فرعون من الماء . ثم تعطيه لمرضع من نسوة العبرانيين ـ هي أمه نفسها ـ لكي ترضعه لها ، إلى أن بلغ الفطام . « ولما كبر الصبي جاءت به إلى ابنة فرعون ، فاتخذته ابناً لها ، وسمته موسى قائلة : لأنني انتشلته من الماء »[(٢)] . والفعل انتشل يقابله في النص العبري فعل نادر الاستعمال جداً

(١) Sigmund Freud; Moïse. et le Monothéisme Traduit de l'Allemand par Anne Berman; Gallimard — Paris; 8 te édition, 1948.

(٢) التوراة : الخروج ٢/١٠ .

بهذا المعنى هو الفعل (مَشَى) الذي اشتق منه اسم موسى (مُوشِي) . ويرد الطعن في ذلك من نواح كثيرة أهمها أن كلمة (موشى) هي صيغة لاسم الفاعل في اللغة العبرية ، لا تؤدي معنى « الذي أنقذوه وانتشلوه من الماء » وإنما تكون للدلالة على « المُنْقِذ » الذي ينتشل هو الآخرين . ثم كيف يتأتى لابنة فرعون أن تفكر في تسمية صبي تتبناه بلغة غير لغتها ، خصوصاً وهي لغة قوم يعتبرهم قصر فرعون أعداء له! وويلاً على مملكته؟! . ثم هل يسوغ في العقل أن يكون فرعون معنياً كل العناية بقتل كل أولاد العبريين ، وأن تفكر ابنته مع ذلك في تنشئة طفل يحمل اسماً من أسماء هؤلاء العبريين في داخل قصر فرعون نفسه ؟! يضاف إلى هذا ما ذكرناه آنفاً من أن المادة (مشى) لا تقوم عليها شواهد واضحة غير ما جاء في الآية التي نحن بصددها .

٣ - نجد في اللغة المصرية الفرعونية كلمة قريبة جداً من نطق موسى ، هي لفظة (مُوس) التي معناها الطفل ، والغلام ، والابن . . . ويكتبونها أحياناً بالعربية (مُسْ) بدون واو ، وهي التي توجد في أسماء الفراعنة تحوتمس أي ابن الإله تحوت، ورعمس أي ابن الإله رع . . .

لذلك رجح فرويد أن يكون موسى مصرياً ، وأن تكون دعوته قد بدأت على أثر موت الفرعون المصري أخناتون ، أول شخصية تاريخية تثور على الشرك والوثنية وتقول بإله واحد ، وكأن أخناتون كان ممهداً لرسالة موسى .

ولكن حدث بعد موت هذا الفرعون أن تغلب الكهنة المصريون من شيعة الديانة الوثنية القديمة ، وهكذا وجد موسى نفسه مضطراً إلى الهجرة ، حتى يستطيع أن ينظم صفوفه على الحدود الشرقية لمصر ، ثم يعاود الكرة ليفرض الوحدانية على المصريين . ويرى فرويد أن هذا المخطط هو الذي دفع فرعون مصر الوثني إلى محاولة منع موسى ومن معه من الخروج ، وهو الذي جعل هذا الفرعون يفضل أن يعرّض نفسه وجيشه للخطر في تعقب هذا الداعية التوحيدي عبر سيناء على أن يعتبر رحيله هو ومن معه أمراً مرضياً ، وراحة له وللناس .

ويسأل فرويد عن قوم موسى أولئك ، من أي عنصر كانوا ؟ ثم يقول : إن أكثرهم كان من الطارئين على البلاد من غير المصريين . فيهم الساميون البدو ، من عبريين وأدوميين وبابليين وكنعانيين وغيرهم ، وفيهم من غير الساميين أيضاً نازحون من جنوب وادي النيل ، ومن الصحراء الغربية ، ومن جزائر بحر إيجة والبحر الأبيض المتوسط . ومن المحتمل أن تكون هذه الأخلاط من الناس مكونة من بعض الحِرَفيين والجنود المرتزقة والعبيد وأسرى الحروب ونحوهم ، ممن لا تربطهم بمصر صلة ، ولا يملكون فيها داراً ولا أرضاً ، ممّا هون عليهم أمر الرحيل وترك هذه البلاد . أما المصريون فهم في رأي فرويد قلة قليلة من قوم موسى ، هم السبعون رجلاً الذين اختارهم وجعل لهم القيادة في مجتمعه الجديد[1] .

ومَهما يكن من شيء ، فإن مجرد تردد هذه الافتراضات على بساط البحث يثبت ما قدمناه من الغموض الشديد الذي يحيط بالأبعاد التاريخية الحقيقية لسيدنا موسى ودعوته ولكنها على كل حال في وضعها المثبت في التوراة التي بين أيدينا تنطق بما تراكم فيها من القصص والشرائع المأخوذة من أمم أخرى لا سيما الشومريين والأكاديين والمصريين . فهناك شرائع خاصة بالمعاملات تكاد تكون ترجمة أو تلخيصاً لشرائع مماثلة في قانون حمورابي .

فمن أمثلة ذلك ما جاء في سفر الخروج ٢١/٢ - ١١ : « إذا ابتعت عبداً عبرانياً فليخدمك ست سنين وفي السابعة يخرج حراً مجاناً . إن دخل وحده فليخرج وحده ، وإن كان ذا زوجة فلتخرج زوجته معه . وإن زوّجه مولاه امرأة فولدت له أبناء أو بنات فالمرأة وأولادها يكونون لمولاه وهو يخرج وحده . وإن قال العبد قد أحببت مولاي وزوجتي وأبنائي ولا أريد أن أخرج حراً ، فإن مولاه يقدمه إلى الآلهة ، يقدمه إلى مصراع الباب ، أو قائمته ، ويثقب مولاه أذنه بالمثقاب فيخدمه أبد الدهر . وإن باع رجل ابنته أمة

(١) الصحيح أن الذين خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر هم بنو إسرائيل كما ينص على ذلك القرآن . أما رأي فرويد فلا دليل عليه . (الناشر) .

فلا تخرج خروج العبيد . وإن كرهها مولاها الذي خطبها لنفسه ، فليدعها تعتق وليس له أن يبيعها لقوم غرباء ، لأنه يكون قد غدر بها ، وإن أعطاها خطيبة لابنه فبحسب حكم البنات يعاملها . وإن تزوج بأخرى فلا ينقصها من طعامها وكسوتها وأوقاتها . فإن أخل معها بواحدة من هذه الثلاث تخرج مجاناً بلا مقابل . » وهي أحكام تماثل ما جاء في قانون حمورابي في المادتين ١١٧ - ١١٨ .

وفي نفس الإصحاح المشار إليه تتحدث الآية ١٨ عن دية الإصابات المترتبة على مشاجرة بين اثنين فتقول : « وإذا اختصم رجلان ، فضرب أحدهما الآخر بحجر ، أو لكمه فلم يمت بل ألزم الفراش ، فإن قام ومشى خارجاً على عكازه فقد برىء الضارب ، غير أنه يعطيه دية عطلته وينفق على علاجه » . وهذا ينطبق على المادة ٢٠٦ من قانون حمورابي أيضاً .

رأي هنري كازيل في التوراة :

وقد بين الأب الفرنسي الدكتور هنري كازيل[١] أن جزءاً صغيراً من هذه الشرائع ، هو الذي أشرنا إليه باسم قانون العهد ، يتضمن تشريعات نابعة من قانون حمورابي ، والشرائع الأشورية والحيثية وبعض أصول مصرية فرعونية أو كنعانية . كل ذلك من شأنه أن يؤكد مرة أخرى الغموض الذي يسود علاقة نص هذه التوراة بالرسول الذي تنسب إليه وهو موسى .

وأغلب الظن أن دعوة موسى بمجرد خروجها من مصر شرقاً ، تعرضت لكثير من الخلل والانحراف ، فقد بدأت تتحول من عقيدة تحررية إلى نعرة عنصرية .

شخصية البطل عند الساميين - رأي فرويد :

ويشعرنا فرويد[٢] بأن هذا التحول اقتضى أن تتحول شخصية موسى نفسه إلى هذا الوجه الأسطوري الذي تبرزه التوراة . فإن شخصية البطل عند الساميين تنبني على عناصر أهمها :

(١) Henri Cazelles ; Études sur le Code de l'Alliance ; Paris , 1946 .

(٢) المرجع السابق .

١ ـ أن يكون من أب غير معروف ، أو أن يكون يتيماً ، وأمثلة ذلك من أبطال الساميين الملك الأكادي سرجون الأول ، وسيدنا موسى ، والمسيح وسيدنا محمد ﷺ .

٢ ـ أن تكون ولادته محفوفة بالمشاكل والمخاطر ، كأن يولد في وقت مذبحة ، أو من أبوين طاعنين في السن جداً ، أو من أم عاقر كانت لا تلد من قبل . والأمثلة لتلك الحالات موجودة في ولادة موسى نفسه ، وشمشون الجبار ، ونبي اليهود صمويل ، ومن قبلهم إسحٰق ، ومن بعدهم سليمان ، والمسيح .

٣ ـ أن يكون البطل ممن أحبوا العزلة في الصحاري والجبال ، والاشتغال برعي الغنم ، مما يتيح له إطالة التأمل في تعاقب الليل والنهار ، وما في الكون الكبير من عجائب ومعجزات ، وهذا واضح في شخصية إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام .

أما شخصية البطل عند المصريين فأهم عناصرها :

١ ـ أن يكون ربيب بيئة أرستقراطية ، نشأ في القصور ونما وترعرع بين الملوك والأمراء .

٢ ـ أن يكون قوي البنية شديد البأس لا يهاب المعارك .

٣ ـ أن يعيش في الحضر بين قوم متمدنين منظمين .

وقد لاحظ فرويد أن موسى في قصته المعروفة يبدو لنا مزيجاً من العناصر السامية والمصرية جميعاً . فهو رغم ولادته من أب غير معروف ، وفي وسط مذبحة رهيبة ، قد نما ونشأ في بيت فرعون ، وربّته ابنة فرعون نفسها وتبنته . كذلك نجد العنصر المصري الخاص بالقوة البدنية وعدم التهيب من المعارك ، يبدو في ضربه للرجل الذي وجده يؤذي واحداً من شيعته ، ضربة واحدة قاضية ، كما يبدو كذلك في دفعه الرعاة عن البئر ليسقي لابنتي كاهن مدين الضعيفتين . ثم إنه بالرغم مما يلاحظ من إقباله على الانفراد والتأمل في صحراء سيناء وبادية مدين أثناء قيامه برعي الغنم ،

يبدو لنا في مواقف كثيرة في عاصمة الفراعنة يناقش الملك الجبار المتأله الحساب ، ويتحدى الكهنة والسحرة والعلماء ويهزمهم .

التوراة مزيج من مصادر مختلفة:

ولو أنا حاولنا أن نجمع محصول هذه الأفكار لكان عندنا مزيج في التوراة من مصادر كثيرة مختلفة ، ومزيج مماثل في ما وعته الذاكرة الشعبية اليهودية عن صاحب هذه التوراة .

ويبدو أن اليهود قد أرادوا بهذا التخليط أن يجعلوا من موسى ستاراً يخفون وراءه أشياء لم يقل بها ولم يدعُ إليها ، منها أنه لم يرسَل بشريعته لا إلى فرعون ولا إلى قومه من المصريين، بل لبني إسرائيل وحدهم . فهو لم يطالب فرعون ولا المصريين بالإيمان قط .

ومن الجدير بالذكر احتمال ألا يكون هذا التخليط قد حدث عن عمد وبتخطيط الفكر الواعي . فإن التوراة الموسوية كانت قد فقدت من المجتمع اليهودي لعدة قرون ، بحيث صار من المحتمل أن يكون نصها الذي كتبه عزرا ـ عزير عند العرب ـ مختلفاً جداً عما أنزل على موسى ، فبين الرجلين ما يقرب من ألف سنة من الزمان . بل إننا نشعر أن موسى ، بعد أن مات ، لم يحتفظ العبريون من ذكراه بشيء . أضاعوا الرجل وأضاعوا توراته ، بحيث مرت أجيال وأجيال لا يذكره منهم أحد ، ولا يعرفون حتى مكان قبره كما جاء في النص الذي أوردناه .

وفي نفس هذا الإصحاح الأخير من التوراة (سفر التثنية ٣٤) يرد نص آخر يستحق التأمل ، عند قوله : « فصعد موسى إلى جبل نبو من فيافي مؤاب ، إلى رأس الربوة المواجهة لأريحا ، فأراه الرب جميع الأرض ، من جلعاد إلى دان ، وجميع نفتالي ، وأرض إفرايم ومنسا ، وجميع أرض يهوذا إلى البحر الغربي ، والجنوب ، والمرج ، بقعة أريحا مدينة النخل ، إلى صوعر . وقال له الرب : هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحٰق ويعقوب ، قائلاً : لنسلكم أعطيها . قد أريتك إياها بعينك ، ولكنك إلى هنا لا تعبر » . ففي هذا النص نلاحظ أنه بالرغم من موت موسى في شرق

الأردن ، ووجود القوم الذين خرجوا معه من مصر في نفس تلك الناحية ، فإن الراوية يرى أرض فلسطين وقد سكنتها أسباط اليهود ، دان ونفتالي وافرايم ومنسا ويهوذا . . . وهو أمر لا يمكن تصوره إلا بعد انتهاء عهد القضاة والدخول في حقبة الملوك شاؤ ل وداود وسليمان ، أي بعد موسى بما لا يقل عن ثلاثمائة سنة .

ولا يعود لموسى ذكر في أسفار العبريين المقدسة بعد ذلك ، إلا فيما ندر ، حيث يرد وكأنه حدث قديم موغل في القدم قد طواه النسيان . فالنبي إشعيا في المرة الوحيدة التي ذكر فيها موسى وقومه ، بعد أكثر من ستة قرون ، يقول : « ثم يذكر الأيام الغابرة ، أيام موسى وشعبه ، أين الذي أصعدهم من البحر مع راعي غنمه ؟ أين الذي جعل في قلبه روحه القدوس ؟ الذي سيَّر عن يمين موسى ذراع عزه ، وفلق المياه أمامهم ليجعل له اسماً أبديًّا » (إشعيا ٦٣/١١ ـ ١٢) . وللنبي إرميا الذي عاش في نفس الفترة التي عاش فيها إشعيا تقريباً إشارة وحيدة يقول فيها : « وقال لي الرب لو أن موسى وصمويل وقفا أمامي ، لما توجهت نفسي إلى هذا الشعب . فاطرحهم عن وجهي وليخرجوا » (إرميا ١٥/٥١) .

أما تضييع اليهود لتوراة موسى ، فإنه يتجلى بوضوح في قصة تروي العثور عليها من جديد وبمحض الصدفة ، في عهد الملك يوشيا بن آمون بن منسا ، من ملوك يهوذا في أورشليم (٦٤١ ـ ٦١١ ق.م) ، أي بعد وفاة موسى بأكثر من سبعمائة سنة . فذات مرة وكان يوشيا في السنة الثامنة عشرة من حكمه ، أرسل أحد موظفي قصره ، واسمه شافان بن أصليا بن مشُلَّم ، إلى معبد أورشليم ليحسب مع كاهنه الأعظم حلقيا النقود التي دخلت الهيكل من الزائرين ، لكي تصرف على ترميمه . يقول النص :

« قال حلقيا الكاهن الأعظم لشافان الكاتب : قد وجدت كتاب التوراة في بيت الرب . ودفع حلقياً الكاهن الكتاب إلى شافان فقرأه. وأتى شافان الكاتب إلى الملك ، ورد على الملك جواباً ، وقال : قد أفرغ عبيدك الفضة الموجودة في البيت ، ودفعوها إلى أيدي القائمين بالعمل الموكلين ببيت

الرب . وأخبر شافان الكاتب الملك ، وقال : قد دفع إليّ حلقيا الكاهن كتاباً . وقرأه شافان أمام الملك . فلما سمع الملك كلام كتاب التوراة مزق ثيابه . وأمر الملك حلقيا الكاهن ، وأحيقام بن شافان ، وعكبور بن ميكا ، وشافان الكاتب ، وعسايا عبد الملك ، وقال : اذهبوا فتوسلوا إلى الرب لي وللشعب ولجميع يهوذا ، بمناسبة كلام هذا الكتاب الذي وجد ، لأنه عظيم غضب الرب الذي اشتعل علينا ، بسبب أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا الكتاب ليعملوا بكل ما فرض علينا » (سفر الملوك الثاني ٢٢/٨ - ١٣) .

وهنا يبدو واضحاً أن التوراة لم تكن نسياً منسياً على أيام يوشيا فقط ، ولكن في عهد أسلافه أيضاً ، كما تصرح بذلك الجملة الأخيرة . تضيع التوراة، وفي أورشليم هيكل يرعاه جمع من المسؤولين على رأسهم كاهن أعظم هو حلقيا.

وأغرب من ذلك أن تكون بين اليهود في داخل مدينة أورشليم ، مع ضياع التوراة منها ؛ وفي هذا الوقت عينه امرأة نبية ، يبدو أنها لم تكن تدري عن موسى شيئاً ، ولا تذكر كلمة من توراته ، إذ يستمر النص بعد ذلك فيقول : « فذهب حلقيا الكاهن وأحيقام وعكبور وشافان وعسايا إلى خُلدة النبية : امرأة شَلّوم بن تقوة بن حرحاس ، خازن الملابس ، وكانت تسكن في أورشليم ، في القسم الثاني ، وكلموها . فقالت لهم : هكذا قال الرب إله إسرائيل قولوا للرجل الذي أرسلكم إليّ ، هكذا قال الرب إنني جالب شراً على هذا المكان وعلى سكانه من كل كلام الكتاب الذي قرأه ملك يهوذا ، لأنهم تركوني وأحرقوا لآلهة غريبة لأجل إغضابي بكل أعمال أيديهم ، فاحتدم سخطي على هذا المكان ، ولن ينطفىء . وأما ملك يهوذا الذي بعثكم لتسألوا الرب ، فكذا تقولون له ، هكذا قال الرب إله إسرائيل من جهة الكلام الذي سمعته . بما أن قلبك قد رق ، وخشعت أمام الرب عند سماعك ما قلته على هذا المكان ، وعلى سكانه ، من أن مآله للدمار واللعنة ، فمزقت ثيابك وبكيت أمامي ، فأنا أيضاً قد سمعت قال الرب: إنني من أجل هذا أضمك إلى آبائك ، فتوضع في قبرك بسلام ، ولا ترى

عيناك الشر الذي أنا جالبه على هذا المكان . فأعادوا الكلام على الملك » (الملوك الثاني ٢٢/١٤ ـ ٢٠) .

ولم تكن النبية « خلدة » وحدها في أورشليم بل كانت هذه المدينة المقدسة تحتوي جمعاً غفيراً من الكهنة والأنبياء ، ومع ذلك كان هيكل سليمان غاصاً بالأدوات الدينية الوثنية «التي كانت مصنوعة للبعل وعشتروت ولجميع جند السماء (أي الكواكب) ، فأحرقها خارج أورشليم ، في أرض قدرون ، وحمل رمادها إلى بيت إيل، واستأصل كهنة الأصنام ، الذين أقامهم ملوك يهوذا ليوقدوا فوق المرتفعات ، في مدن يهوذا وحول أورشليم . وكانوا يوقدون للبعل ، وللشمس والقمر ، والبروج ، وجميع جند السماء . وأخرج عشتروت من بيت الرب إلى خارج أورشليم ، إلى وادي قدرون ، فأحرقها في وادي قدرون ، وسحقها غباراً ، وذرى رمادها على قبور بني الأمّة . وقوض بيوت المخنثين التي في بيت الرب ، حيث كانت النساء ينسجن خياماً لعشتروت » (٢٣/٤ ـ ٧) .

والصورة لم تكمل بعد ، بل يستمر السياق في نفس الإصحاح في ذكر مظاهر الانحلال الديني ، والانحراف الخلقي ، والكفر الذي يضعنا بعيداً ، وبعيداً جداً ، عن موسى وتوراته ودعوته التوحيدية الأخلاقية التحررية .

اللغة التي بلَّغ بها موسى رسالته :

كل هذه النصوص وما يحيط بها من ظواهر تدعو إلى التأمل شجعت المحققين من العلماء في العصر الحديث على ترك المسلَّمات النقلية، والبحث الحر العميق في نص التوراة حسب ما وصلت إلينا . وكنا قد أشرنا إشارة عابرة إلى أننا لا نعرف معرفة يقينية اللغة التي بلَّغ بها موسى رسالته . ومهما يكن من شيء ، حتى على افتراض أنها العبرية ، فلا شك أنها كانت تختلف اختلافاً بيناً جداً عن عبرية النص المقدس الذي بين أيدينا . فلا بد أنه مع جمع نصوص العهد القديم العبري وكتابتها بيد عزرا ، حدث طوعاً أو كرهاً « تنسيق » لا في السياق والترتيب فحسب بل في اللغة أيضاً .

فبين موسى وعزرا ما يقرب من ألف عام ، لا شك أن اللغة فيها ككل

لغة في العالم تطورت تطوراً كبيراً ، وقد بقيت مع ذلك شواهد من العبرية القديمة الضائعة ، قاومت عملية التنسيق هذه ، من أشهرها قصيدة « دبوره » النبية في الإصحاح الخامس من سفر القضاة . وبالرغم من أن هذا النص لم ينجُ هو أيضاً من أثر الزمن على لفظه ، فإنه ـ بسبب تواتره على الألسنة ، وكونه أنشودة غنائية حماسية موزونة ـ قد احتفظ بالكثير من سمات لغته الأصلية . وهي لغة تبدو بوضوح أقدم وأكثر بداوة من لغة التوراة نفسها .

التوراة ترتد إلى أربعة ينابيع :

ومع أن النص الذي بين أيدينا لهذا الكتاب ، قد أريد به أن يكون النسخة الشرعية النهائية المعتمدة ، وأن يكون ذا سياق موحد لا يبدو فيه أي تنسيق أو تجميع أو ترقيع ، فإن أبحاث العلماء في العصر الحديث قد أثبتت أنه يرتد إلى أربعة ينابيع مختلفة ، اثنان منها جوهريان قديمان والثالث منفصل عنها في زمانه ومضمونه ، وأما الرابع والأخير فإنه ينبثق في مواضع معينة بصورة تكميلية وتوضيحية فقط ، وهو أحدث هذه الينابيع تاريخاً(١) .

فالمصدران الأولان هما :

١ ـ مصدر يحمل اسم « يَهْوه » عَلما على رب العبريين الوطني القديم . وهو يرجع إلى القرن التاسع قبل الميلاد ، ورواته كانوا من الجنوب ، مما كان يسمى «مملكة يهوذا » التي عاصمتها القدس « أورشليم » .

٢ ـ مصدر يحمل اسم « إلُوهيم » علماً على الله باسمه المنتشر في أسباط إسرائيل العشرة في الشمال . ويبدو أن الرواة الذين نقلوا عن هذا المصدر قديماً كانوا يعتقدون أن تسمية الرب « إلوهيم » هي التسمية التقليدية القديمة للعبريين إلى ظهور موسى . وأن اسم « يَهْوه » لم يظهر إلا

---

(١) S.R.Driver ; An Introduction to the Literature of the Old Testament ; 9th edition, Edinburgh, 1929 — p. 1255.

Lucien Gautier ; Introduction à l'Ancien Testament ; 2 Vols, Payot — Suisse, 1939.

Paul Fargues; Introduction à L'Ancien Testament; Paris, 1923.

مع الدعوة الموسوية نفسها . لذلك حرصوا على تمييز المعبود باسم « إلوهيم » لقدمه في الأمة ، ولأن دلالته أعم ، فهو ليس اسم علم في الأصل ، ومعناه « إله » أو « آلهة » أو « الله » . وهذه المدرسة من الرواة المتمسكين باسم « إلوهيم » في مملكة إسرائيل الشمالية ترجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد .

وهذان المصدران يتفقان في الخطوط العريضة للموضوع الذي يتناولانه، كما يتفقان في طابع القصص وأسلوبه. وربما كان قد حدث مزج بين الروايتين «اليَهْوَوِيّة» و«الإلُوهيميّة» على ألسنة الناس في القرون التالية على القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد.

ويقول « لوسيان جوتييه »[1] إن هذين المصدرين القديمين كانا قد امتزجا قبل أن تنبثق بقية المصادر الأربعة وهي :

٣ ـ مصدر تثنية الشريعة ، وهو في جوهره تشريعي بحت ، صادر عن وسط مثقف لا يلقي بالاً إلى القصص الشعبي ، بقدر ما يهدف إلى التوجيه والتعليم والتطوير عن طريق سن القوانين . والظاهر أن هذا المصدر الذي يتجلى بوضوح في آخر أسفار التوراة ـ سفر التثنية ـ وينسب إليه ، قد أدخل في صميم التوراة سنة ٦٢١ قبل الميلاد ضمن برنامج الإصلاح والتطوير الذي عمله الملك يوشياهو ، أما كتابته فترجع إلى حكم الملك اليهودي « منسا » جد يوشياهو المذكور[2] ، وقد حكم قبله بنحو خمسين سنة .

وخلاصة ذلك أن « الشريعة الثانية » أو « التثنية » قد كتبت لأول مرة في غضون القرن السابع قبل الميلاد ، ثم اعتبرت جزءاً من توراة موسى سنة ٦٢١ ق.م.

٤ ـ الأصل الرابع هو « حواشي الكهنة » ، وترجع إلى القرن الخامس

(١) المصدر المذكور له في التعليق السابق ، ص ٤٢ ـ ٨٤ من المجلد الأول .

(٢) هذا افتراض أساسه أن منسا كان من ملوك يهوذا غير الصالحين، إلى أن أسره الإمبراطور الأشوري أسرحدون واعتقله مدة في العراق، فلما عاد إلى أورشليم كان قد تاب وأناب وقام قبل موته بقليل بتحصين المدينة المقدسة، كما قام بحركة تطهير ديني وخلقي وتشريعي، (سفر الملوك الثاني ٢١/١ ـ ١٨ وسفر أخبار الأيام الثاني ٣٣/١ ـ ٢٠).

قبل الميلاد ، وإلى النصف الأخير منه على التحقيق . وهذه الحواشي قد أضيفت إلى نص التوراة على عهد عزرا ونحميا ، أي بعد العودة من السبي البابلي في ظل الإمبراطورية الفارسية ، وهي فترة وصل فيها الكهنة أو الأحبار إلى قمة قوتهم ، وكامل سيطرتهم على مقدرات اليهود . وهذه الإضافات لا تقتصر على التشريع وحده ، بل فيها نتف قصصية أيضاً .

أمثلة لهذا الامتزاج ـ قصة يوسف :

ومن الأمثلة الواضحة التي امتزجت فيها ثلاثة مصادر هي : اليَهْوَوِي (ى) والإلُوهيمي (ا) وحواشي الكهنة (ك) الإصحاح السابع والثلاثون من سفر التكوين في التوراة ، الخاص بفصل من فصول قصة يوسف . وطبعاً لا أثر هنا للتثنية (ث) وهي المصدر الثالث لاستقلالها بمكان معين في التوراة هو السفر الذي يحمل هذا الاسم[1] .

في الإصحاح السابع والثلاثين المذكور يبدأ السياق بمقدمة تمهيدية من حواشي الكهنة تستغرق الآية الأولى وصدر الآية الثانية ونصها :

(١) وسكن يعقوب في أرض غربة أبيه ، في أرض كنعان .

(٢) هذه مواليد يعقوب .

بعد ذلك يمكننا أن نحلل العنصرين اليهووي والإلوهيمي كلًّا بروايته المستقلة المتكاملة القائمة بنفسها كما يلي :

(ى)

(٣) وأحب إسرائيل يوسف أكثر من سائر بنيه ، لأنه ابن شيخوخته . فصنع له قميصاً ملوناً . (٤) فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من كل إخوته ، أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام .

(ا)

(٢/ب) كان يوسف يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام ، عند بني بلهة ، وبني زلفة ، امرأتي أبيه . وأتى يوسف بنميمتهم الرديئة إلى أبيهم . (٥) وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته. فازدادوا كذلك بغضاً له .

(١) لوسيان جوتييه ، المرجع السابق .

(١٢) ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم . (١٣) فقال إسرائيل ليوسف إخوتك يرعون عند شكيم . تعال فأرسلك إليهم . فقال له هأنذا . (١٤/ب) فأتى إلى شكيم . (١٨/ب) وقبل أن يقترب منهم تآمروا عليه ليقتلوه . (٢١) فسمع رأوبين [يهوذا ؟][1] وأنقذه من بين أيديهم ، وقال لا نقتله . (٢٣/أ) فكان لما جاء يوسف إلى إخوته. (٢٥) وجلسوا ليأكلوا طعاماً ، أن رفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلةإسماعيليين قادمة من جلعاد ، وجمالهم محملة بالتوابل والعطر واللادن ، ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر . (٢٦) فقال يهوذا لإخوته : ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه ؟ (٢٧) تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا . فسمع له إخوته . (٢٨/ب) وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة . (٣١/أ) وأخذوا قميص يوسف . (٣٢/ب) وأحضروه إلى أبيهم

(٦) فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت. (٧) إذ كنا نضم حزماً في الحقل ، وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت بها حزمكم وسجدت لحزمتي . (٨) فقال له إخوته : ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً . وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه . (٩) ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصه على إخوته فقال إني قد حلمت حلماً أيضاً ، وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً تسجد لي . (١٠) وقصه على أبيه وعلى إخوته . فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت ؟ هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك أرضاً ؟ فحسده إخوته . وأما أبوه فإنّه أسرّ الأمر . (١٤/أ) وقال له : اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً . وأرسله من وادي حبرون . (١٥) فوجده رجل ، وإذا هو ضال في البرية . فسأله الرجل قائلاً : عمّ تبحث ؟ (١٦) فقال أبحث عن إخوتي . أخبرني أين يرعون ؟

(١) هذا التصحيح من اقتراح لوسيان جوتييه ، اعتماداً على أن المذكور في بقية السياق (الآية ٢٦) هو يهوذا لا رأوبين ، إذ أن رأوبين إنما يظهر في القصة بروايتها عن المصدر الإلوهيمي بدلاً من يهوذا الذي لا يذكر هناك .

وقالوا: وجدنا هذا . أنظر أقميص أبنك هو أم لا ؟ (٣٣) فتحققه وقال : قميص ابني . حيوان مؤذ أكله . افتُرِس يوسف افتراساً . (٣٥) فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه . فأبى أن يتعزى وقال : إني أنزل إلى ابني نائحاً حتى الهاوية . وبكى عليه أبوه .

إصحاح ٣٩: (١) وأما يوسف فأنزل إلى مصر ، واشتراه رجل مصري [فوطيفار خصي فرعون ، رئيس الشرط] من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك .

(١٧) فقال الرجل : لقد ارتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون لنذهب إلى دوثان . فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان . (١٨/أ) فلما أبصروه من بعيد (١٩) قال بعضهم لبعض هو ذا صاحب الأحلام قادم . (٢٠) والآن هيا نقتله ونطرحه في بعض الآبار ونقول إن حيواناً مؤذياً أكله ، ونرى ماذا تكون أحلامه . (٢٢) فقال لهم رأوبين : لا تسكفوا دماً، اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ، ولا تلقوا أيديكم عليه . وقصده أن يخلصه من أيديهم ويرده إلى أبيه . (٢٣/ب) فخلعوا عن يوسف قميصه* [القميص الملون الذي عليه] . (٢٤) وأخذوه وطرحوه في البئر* [والبئر كانت فارغة ليس فيها ماء] . (٢٨/أ) واجتاز رجال مدينيون تجار ، فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر (٢٨/جـ) وأتوا بيوسف إلى مصر . (٢٩) ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف لم يعد في البئر . فمزق ثيابه (٣٠) ورجع إلى إخوته وقال : الولد غير موجود ، وأنا إلى أين أذهب؟

(*) تنبيه : ما بين قوسين في كلا العمودين من حواشي الكهنة (ك) .

(٣١/ب) فذبحوا تيساً من الماعز وغمسوا القميص في الدم ، (٢٢/أ) وأرسلوا القميص الملون (٣٤) فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة . (٣٦) وأما المدينيون فباعوه في لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط .

ويقول «لوسيان جوتييه»[1]: إنه من السهل أن نلاحظ في نتيجة هذا التحليل أن السياق (ى) يذكر أن الإسماعيليين التقطوا يوسف معهم ، بينما (أ) يذكر المدينيين . كذلك تقول القصة في روايتها (ى) أن أبناء يعقوب يتخلصون من يوسف ببيعه ، أما في قصة (أ) فإنهم يلقونه في الجب الذي ينقذه منه ، على غير علم إخوته ، جماعة من التجار الذين مروا بالمكان ثم يحضرونه معهم إلى مصر . وكل من السياقين كما نرى يعتبر قصة مستقلة متماسكة ، تعطي إلمامة تامة ومقنعة بالواقعة . وهما على ذلك يتفقان في المضمون الجوهري ولكن يختلفان في التفاصيل .

(١) نفس المصدر .

٢ ـ الأنبياء

وهذا القسم من العهد القديم يتضمن استمراراً لما وقع من الأحداث للعبريين بعد موت موسى ، منذ دخولهم أرض فلسطين ، مع يوشع بن نون ، خادم موسى وخليفته ، إلى أن أخرجوا منها في السبي البابلي على يد الإمبراطور الكلداني بختنصر تقريباً . وبالرغم مما يبدو من أن الذين نظموا العهد القديم هذا التنظيم كانوا حريصين على السرد التاريخي المرتب ، فإن العلماء المحدثين قد لاحظوا أن هذا التنظيم جزئي ، وأن ترتيبهم غير محكم في تفاصيله . ولكن الواضح أن هذا القسم يغطي فترة زمنية تمتد بين حوالي سنة ١٣٠٠ وسنة ٣٠٠ ق.م ـ أي قرابة ألف سنة .

وهو مشطور شطرين: الأنبياء الأول، والأنبياء الآخر. ويقول «لوسيان جوتييه» في مقدمته للعهد القديم[1] إن هذا التقسيم لا يتبع خطة تاريخية ، وإنما كانت تحتمه طبيعة محتوى هذا القسم كله . إذ أن شطره الأول يجنح نحو التاريخ السياسي والعسكري والإداري البحت ، ولا تبدو فيه النبوة إلا من خلال الأحداث ، مرتبطة بها ومعتمدة عليها ، بينما الشطر الثاني نبوّات صرفة ، تبدو الأحداث من خلالها في المقام الثاني . وهذه عجالة حول محتوى هذين الشطرين .

(أ) الأنبياء الأول ، ويتألف من أربعة أسفار :

١ ـ يوشع بن نون . وهو أربعة وعشرون إصحاحاً تروي اقتحام

(١) المجلد الأول ، ص ٢١٥ وما بعدها .

العبريين أرض فلسطين بزعامة خليفة موسى هذا . وقد اعتبر عمله مكملاً لعمل موسى . ولكي يأخذ في عيونهم نفس القدسية ، رووا أنه تلقى بركة موسى من يده قبل موته ، في التوراة نفسها (تثنية ٨/٢٤) ، وأنه عبر البحر معه ، ثم عبر الأردن بنفس الطريقة ، إذ جاء في الإصحاح الثالث من سفره : « فكان أن ارتحل الشعب من خيامهم ليعبروا الأردن ، ومشى أمامهم الكهنة حاملو تابوت العهد . وما أن وصل حاملو التابوت إلى الأردن وانغمست أقدام الكهنة في مياهه ، وهو طافح على كل ضفافه في وقت الحصاد هذا ، حتى وقفت المياه المتدفقة من فوق كأنها حائط ، على مسافة بعيدة ، ابتداءً من مدينة أدام ، المجاورة لصرتان . أما الماء المنحدر إلى تحت في اتجاه بحر الغور ـ أي بحر الملح ـ فقد انقطع تماماً ، وعبر الشعب قبالة أريحا . فوقف الكهنة حاملوا تابوت عهد الرب على اليابسة في وسط الأردن راسخين ، بينما كل إسرائيل يعبرون على اليابسة حتى فرغ الشعب كله من العبور »[١] .

واختص يوشع بمعجزته الشهيرة أثناء حربه ضد الأموريين في جبعون « فقال على مشهد من إسرائيل : يا شمس قفي على جبعون ، ويا قمر اثبت على وادي أيَّالون ! فوقفت الشمس ، وثبت القمر ، إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم ، وذلك مكتوب في (سفر المستقيم) . فوقفت الشمس في كبد السماء ولم تمل للمغيب مدة يوم كامل . ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده ، سمع فيه الرب لصوت إنسان، حيث قاتل الرب عن إسرائيل »[٢] . ـ وسفر « المستقيم » المذكور هنا مجهول ، لا نعرف عنه شيئاً .

ويوشع هو أيضاً الذي أمر العبريين أثناء حصار أريحا أن يطوفوا بأسوار المدينة وهم يهتفون ، وأمامهم سبعة من الكهنة ينفخون في الأبواق . فأكملوا الطواف سبع مرات ، « وهتف الشعب ونفخوا في الأبواق ، فكان عند سماع

(١) سفر يوشع ١٤/٣ ـ ١٧ .
(٢) سفر يوشع . ١٢/١ ـ ١٤ .

الشعب صوت البوق أن هذا الشعب هتف هتافاً شديداً ، فسقط السور في مكانه ، فصعد الشعب إلى المدينة ، كل واحد من وجهته ، وأخذوا المدينة »[1] .

وبعد سلسلة من مثل هذه المغامرات يموت يوشع في تمنة من بلدان فلسطين .

٢ ـ القضاة ، يستمر هذا السفر في سرد أحداث عملية الاغتصاب الأولى التي قام بها العبريون في فلسطين . والقضاة هم سلسلة من الزعماء العسكريين والدينيين حاولوا ، على مدى أكثر من قرنين من الزمان ، أن يمنعوا المجتمع العبري من الانزلاق في الفجور والكفر ، وأن يواصلوا إعداده إعداداً قتالياً للاستقرار بالقوة في هذه الأرض . واقتضى هذا منهم جهد الجبابرة ، إذ تبدأ أحداث هذا السفر بقوله في الإصحاح الثاني : « وتوفي يوشع بن نون عبد الرب ، وهو ابن مائة وعشر سنين . ودفن في أرض حوزته، في تمنة، بجبل إفرايم، إلى شمال جبل جاعش. ولحق كل ذلك الجيل أيضاً بآبائهم ، ونشأ من بعدهم جيل آخر لا يعرف الرب ولا ما صنع لإسرائيل . ففعل بنو إسرائيل الشر في عيني الرب وعبدوا الأصنام ، وتركوا الرب إله آبائهم ، الذي أخرجهم من أرض مصر ، وتبعوا آلهة أخرى من آلهة الشعوب التي حولهم ،وسجدوا لها ، وأغضبوا الرب وتركوا الرب وعبدوا بعل وعشتروت »[2] .

وكانت مقاومة الشعب الفلسطيني الأصلي بشتى قبائله لغزو العبريين مقاومة شديدة مستمرة . وهنا تبدو الصفة العسكرية واضحة في الوقائع والغزوات التي قام بها هؤلاء القضاة أثناء اجتياحهم البلاد . وهكذا يرتفعون إلى مصاف البطولات الأسطورية ، وفي مقدمتهم أهُود ، وباراق بن أبي نوعم ، وعُثْنيئيل ، وجدْعُون ، ويِفْتاح ، وشمشون الجبار ، وامرأة نبية

---

(١) سفر يوشع ٦/ ٢٠.

(٢) سفر القضاة ٢/ ٨ ـ ١٣.

هي دبورة التي عاصرت باراق بن أبي نوعم . ويحتوي هذا السفر على واحد وعشرين إصحاحاً .

٣ - صمويل ، وبه تبدأ فكرة النبوة في بني إسرائيل في التبلور بشكل واضح كما تتحدد صفات النبي في مفهومهم ، وهي صفات زعامة سياسية ودينية تعتبر امتداداً للقضاة ، وإن كانت لا تسعى إلى تسلم مقاليد الحكم رسمياً ، بل تبقى لتدير هذا الحكم من وراء ستار ، بينما الحاكم ملك يجلس على عرشه ، ويبايعه رعاياه بأمر من هذا النبي .

ويبدو لنا أن صمويل الذي يفتتح بحق الدور السياسي والاجتماعي للأنبياء في بني إسرائيل[١] ، كان عبقرية من تلك العبقريات القديمة التي تظهر في أوساط البدو ، فتشق طريقها ، وهو طريق جديد في جملته ، بالعمل وبالذكاء وبموهبة قيادة الجماهير .

فنحن نعلم أن الكهانة . وهي السلطة الدينية الكبرى عند العبريين، كانت محصورة في سبط اللاويين ، ولم يكن صمويل من هذا السبط ، بل كان من إفرايم . وبناء على ذلك فإنه وجد طريق الزعامة الدينية التقليدية موصدة في وجهه . وأما الملك فإنه في هذه المجتمعات البدائية يحتاج إلى بطولة في الحرب والقتال ، وإلى عشيرة ضخمة العدد كثيرة المال مرهوبة الجانب ، وكل ذلك لم يكن ميسوراً لصمويل أيضاً . ولذلك فقد كان المنطلق الوحيد لطموحه ولمواهبه القيادية هو الانتفاع بأفكار سامية قديمة تدور حول مفهوم « النبي » فقد طوّر هو هذا المفهوم ، وخط لنفسه في النبوة مسلكاً مبتكراً ، بلغ به ما يريده لنفسه ولقومه ، وأصبح تقليداً من بعده عند بني إسرائيل .

وسفر صمويل ينقسم إلى جزأين ، أولهما يروي انتقال صمويل من صفة القاضي إلى صفة النبي ، ونضاله من أجل توحيد كلمة العبريين بكافة

---

(١) ارجع إلى كتاب «أبحاث في الفكر اليهودي»، المقالة الثانية: حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل. من منشورات دار القلم بدمشق.

أسباطهم تحت تاج واحد ، ثم اختيار شاؤول ليكون ملكاً ، وانتهاء أمر هذا الملك بالانتحار على أثر موقعة حربية فاشلة ضد الفلسطينيين . وأما الجزء الثاني فإنه يروي جهود ذلك النبي في تولية داود العرش ، وما كان من استيلاء داود على أورشليم ، مدينة اليبوسيين ، وهم من قبائل الفلسطينيين الأصليين ، وتشييده قلعة حربية على جبل صهيون جنوب غربي هذه المدينة . وملك داود هذا هو الذي حوله اليهود في أجيالهم المتأخرة إلى مثل أعلى قالوا بوجوب استمراره مؤبداً إلى يوم القيامة ، وجبله بقلعته التي سميت أيضاً « صهيون » أصبح شعاراً سياسياً للمطالبين من اليهود بإقامة دولة فلسطين ، إذ سموا حركتهم هذه « الصهيونية » .

ومن المعروف أن جنوب فلسطين كانت قد سكنته عشيرتان من العبريين هما « يهوذا » و « بنيامين » ، بينما توزعت العشائر العشر الأخرى في الشطر الشمالي من البلاد . وداود ينتمي إلى « يهوذا » . ولذلك فإنه منذ توليه الحكم وإنشائه الأسرة المالكة ، أصبح قومه يحملون جميعاً اسم عشيرته ويسمون اليهود .

وينتهي سفر صمويل الثاني بالحديث عن شيخوخة داود ، وتفكيره في تعيين ابنه سليمان ملكاً من بعده . وسفر صمويل في جزئه الأول يحتوي على واحد وثلاثين إصحاحاً وفي جزئه الثاني على أربعة وعشرين .

٤ ـ الملوك ، وهو مكون أيضاً من جزأين : الملوك الأول ، والملوك الثاني .

والجزء الأول يحتوي على اثنين وعشرين إصحاحاً ، خصصت الأحد عشر الأولى منها لذكر مملكة سليمان ، وبنائه الهيكل ، ومظاهر الأبهة التي أحاط بها نفسه في أورشليم ثم وفاته . وابتداء من الإصحاح الثاني عشر يتحدث هذا السفر عن تصدع مملكة سليمان بعد موته ، وانقسامها إلى قسمين : مملكة يهوذا في الجنوب ، وعاصمتها أورشليم ، ويجلس على عرشها رحبعام بن سليمان . ومملكة إسرائيل في الشمال ، وعاصمتها السامرة ، في منطقة نابلس ، وقد جلس على العرش فيها ضابط يهودي

متمرد على سليمان ، كان قد هرب منه ولجأ إلى مصر ، اسمه يربعام بن نباط .

ويستمر ذكر المملكتين وما توالى عليهما من ملوك وأنبياء وأحداث ، إلى سقوط المملكة الشمالية ، إسرائيل ، أمام الجيش الأشوري بقيادة الامبراطور سلمانصر ، حيث تروى تلك الأحداث في الإصحاح السابع عشر من سفر الملوك الثاني ، الذي يحتوي كله على خمسة وعشرين إصحاحاً ، وبقيته مخصصة للفترة التي استمرت فيها المملكة الجنوبية ، يهوذا ، في أورشليم إلى تدميرها على يد بختنصر .

ويستخلص من نصوص صمويل والملوك ، أن العبريين سجلوا تاريخ وجودهم بصفة سياسية في فلسطين للمرة الأولى على النحو التالي :

المملكة الموحدة

وهي تسيطر على كل العبريين في فلسطين وملوكها على التوالي هم .

١ ـ شاؤل، وقد تم تتويجه ملكاً في « الجلجال » حوالي سنة ١٠٩٠ ق.م وأبناء شاؤ ل هم : يوناثان ، ويشوى ، وملكيشوع ، وله بنتان أيضاً هما ميرب وميكال ، واسم أبيه قيش بن ابيئيل بن صرور بن بكورة بن أفيح ، من سبط بنيامين . ولم يرث الحكم أحد من أسرة شاؤ ل .

٢ ـ داود ، من سبط يهوذا . تولى العرش بعد شاؤ ل ، حوالي سنة ١٠٤٠ق.م .

وأبناء داود هم : أمنون ، أنجبه من امرأة اسمها أخينوعم اليزرعيلية .
دانيال ، من امرأة اسمها أبيجايل الكرملية .
أبشلوم، من معكة بنت تلماي ملك جشور .
أدونياه ، من حَجيّت .
شِفَطْياه ، من أبيطال .
يثرعام ، من امرأته المسماة عجلة .

وهؤلاء الستة ولدوا له في « حبرون » ـ مدينة الخليل ـ قبل جلوسه على العرش في أورشليم التي ولد له فيها :

شمعا .

شـوبـا .

ناثان .

سليمان . أنجبهم من « بتشوع بنت عميئيل» .

ومن غير هذه الزوجة ولد له أيضاً أبناء ذكور هم :

يبحار	إليشامـع	إليفالـط
نوجه	نافج	يافيع
إليشاماع الثاني	إلياداع	إليفالاط الثاني

وفي أورشليم أيضاً وُلدت له ابنته تامار .

ويحتاط الراوية فيقول إن هؤلاء المذكورين هم أبناؤه من الزوجات فقط ، وأنه لم يذكر أبناءه من « غيرهن » . (أخبار الأيام الأول ٣/٩) .

٣ ـ سليمان بن داود بن يسى ، حكم أربعين سنة بعد أبيه ، وانشطرت المملكة بعد موته إلى شطرين كما قلنا . يهوذا ، وملوكها من سلالة داود . وإسرائيل ، وقد أقاموا لهم أسرة أخرى في الشمال .

مملكة إسرائيل

١ ـ يربعام ، حكم من ٩٧٤ ـ ٩٥٤ ق.م .

٢ ـ ناداب بن يربعام ، ٩٥٤ ـ ٩٥٣ ق.م .

٣ ـ بعشا بن آخياه ، من سبط يساكر ، ٩٥٣ ـ ٩٢٩ ق.م .

٤ ـ إيلاه بن بعشا ، ٩٢٩ ـ ٩٢٨ ق.م .

٥ ـ زمري ، ٩٢٨ ق.م .

٦ ـ عُمري ، ٩٢٦ ـ ٩١٨ ق.م ، وقد اعتلى العرش بعد فتنة كان

يقودها رجل اسمه تبنى بن جينة ، أعلن نفسه ملكاً .

٧ ـ آخاب بن عمرى، ٩١٨ ـ ٨٩٧ ق. م.

وفي أيامه تفشى الانحلال الديني والخلقي بشكل واضح بين الإسرائيليين ، ولذا امتاز عصره بظهور أنبياء مشهورين ، ونزاعهم معه ، وهؤلاء الأنبياء هم : عوبديا ، إلياهو ، إليشع ، ميخا . وقد قبض آخاب على هذا النبي الأخير ووضعه في السجن ، فنبأ ميخا بقتله فمات قتيلاً في معركة راموت جلعاد.

٨ ـ أحازيا بن آخاب ، ٨٩٧ ـ ٨٩٥ ق.م .

٩ ـ يورام ، أخو أحازيا ، ٨٩٥ ـ ٨٨٤ ق.م.

١٠ ـ يهو ، وهو زعيم انقلاب عسكري أطاح بحكم أسرة آخاب ، وقتل ابنه الملك يورام ، وأعلن نفسه هو ملكاً على إسرائيل بتأييد الجيش ، ٨٨٤ ـ ٨٥٦ ق.م . وكان يعاصر من الأنبياء يونس بن متى صاحب الحوت .

١١ ـ يوآحاز بن يهو ، ٨٥٦ ـ ٨٣٩ ق.م.

١٢ ـ يوآش بن يوآحاز ، ٨٣٩ ـ ٨٢٥ ق.م.

١٣ ـ يربعام الثاني بن يوآش، ٨٢٥ ـ ٧٨٤ ق.م.

وقد عاصره من الأنبياء عاموس وهوشع ، ولكل منهما سفر في العهد القديم . ويبدو أنه على أثر موته دخلت مملكة إسرائيل في فترة فوضى واضطراب لمدة إحدى عشرة سنة ، لم يسجَّل ملوكها في سفر الملوك الثاني ، ويظهر أن سفراً آخر كان موجوداً ، وعنوانه « تواريخ ملوك إسرائيل » (ورد ذلك في سفر الملوك الثاني ١٤/٢٨ ـ ٢٩) .

١٤ ـ زكريا ، ٧٧٣ ق.م وقد حكم ستة أشهر .

١٥ ـ شلّوم بن يابش ، قتل زكريا ، وحكم بعده شهراً واحداً ، سنة ٧٧٢ ق.م.

١٦ ـ مناحم ، ٧٧١ ـ ٧٦١ ق.م قتل شلوم .

١٧ ـ فقحيا بن مناحم ، ٧٦١ ـ ٧٥٨ ق.م.

١٨ ـ فاقح بن رملياهو ، وقد اغتصب العرش بعد وفاة فقحيا ٧٥٨ ـ ٧٣٩ ق.م وفي عهده هاجم الإمبراطور الأشوري تغلات فالصر سوريا وفلسطين ، واحتل منطقة الجليل وأخذ منها أسرى إلى العراق وبعد ذلك عادت الفوضى والفتنة من جديد لمدة عشر سنين تقريباً .

١٩ ـ هوشع بن إيلاه ، ٧٣٠ ـ ٧٢٥ ق.م.

وقد هاجمه سلمانصر الأشوري وأسره وألقاه في السجن ، ثم أتم جيش سلمانصر تدمير مملكة إسرائيل نهائياً والاستيلاء عليها سنة ٧٢١ .

مملكة يهوذا

١ ـ رحبعام بن سليمان ، ٩٧٥ ـ ٩٥٨ ق.م.

٢ ـ أبياه بن رحبعام ، ٩٥٨ ـ ٩٥٥ ق.م.

٣ ـ آسا بن أبياه ، وكان ملكاً تقياً قوياً حكم إحدى وأربعين سنة ، ويقول الرواة إن بقية أخباره غير الموجودة في العهد القديم مثبتة في سفر خاص اسمه (كتاب ملوك يهوذا وإسرائيل) ـ سفر أخبار الأيام الثاني ١٦/١١ ـ ١٢ . وقد حكم آسا من ٩٥٥ ـ ٩١٤ ق.م. وكتاب ملوك يهوذا وإسرائيل المشار إليه لم يصلنا .

٤ ـ يهوشافاط ، امتد حكمه خمسة وعشرين سنة ٩١٤ ـ ٨٨٩ ق.م.

٥ ـ يورام بن يهوشافاط ، وقد بدأ عند توليه الحكم بقتل جميع إخوته وعدد كبير من أعيان إسرائيل ، حتى يأمن التآمر على عرشه ٨٨٩ ـ ٨٨٥ ق.م.

٦ ـ أحازيا ، ٨٨٥ ـ ٨٨٤ ق.م. وقد قتله يهو ملك إسرائيل كما قتل

جميع إخوته وعددهم اثنان وأربعون . وكان يهو قد أخذ عليهم تحالفهم مع يورام ، تاسع ملوك إسرائيل ، الذي أسقطه يهو عن العرش وقتله .

٧ ـ الملكة عاثليا ، وهي أم أحازيـا ، وقد تولت الملك بعد قتله من ٨٨٤ ـ ٨٧٨ ق.م .

٨ ـ يوآش بن أحازيا ، كان طفلاً صغيراً عندما قتل أبوه ، فأخفته أخته يهوشابعث لمدة سبع سنين . ثم نادى به الكاهن الأعظم « يهوياداع » ملكاً ، فاتهمته الملكة عاثليا بالتآمر ، لأنها لم تكن تـريد التخلي عن العرش ، فأمر الكاهن الأعظم بالقبض عليها وقتلها . حكم يـوآش من ٨٧٨ ـ ٨٤٩ ق.م .

٩ ـ أمصيا بن يوآش ، ٨٣٩ ـ ٨١٠ ق.م.

١٠ ـ عزريا ، أو عزيّا ، ٨١٠ ـ إلى أن أصابه الجذام سنة ٧٦٥ ، حيث تولى ابنه يوثام الوصاية على عرشه إلى أن مات سنة ٧٥٨ ق.م. وقد ظهر في عهده النبي الكبير المشهور إشعيا بن آموص .

١١ ـ يوثام ، ٧٥٨ـ٧٤٢ ، وفي عهـده ظهر النبي ميخـا ، من مُوريشِـت.

١٢ ـ آحاز بن يوثام ، ٧٤٢ ـ ٧٢٦ ق.م ، واستمرت في عصره نبوة إشعيا وميخا .

١٣ ـ حزقياهو بن آحاز ، ٧٢٦ ـ ٦٩٨ ق.م ، واستمرت في عهده نبوة إشعيا وميخا ، كما ظهر إذ ذاك النبي ناحوم .

١٤ ـ منسا بن حزقياهو ، ٦٩٨ ـ ٦٤٣ ق.م.

١٥ ـ آمون ، ٦٤٣ ـ ٦٤١ ق.م.

١٦ ـ يوشياهو ، وهو ابن آمون ، ومن أكبر وأشهر قادة التطوير الديني في مملكة يهوذا ، وكثر في عهده الأنبياء مثل صفنيا ، وحبقوق ، والنبية

خُلدة ، ثم النبي إرميا . وفي عهده أيضاً قال حلقيا الكاهن الأعظم إنه عثر على توراة موسى . ٦٤١ - ٦١٠ ق.م.

١٧ - يوآحاز بن يوشياهو . بمجرد اعتلائه العرش هاجمه فرعون مصر نخاو وأسقطه .

١٨ - إيلياقيم ، ويسمى أيضاً يهوياقيم ، وهو الابن الأكبر ليوشياهو . وقد ولاه على العرش فرعون مصر نخاو ، بعد أن عزل أخاه الأصغر يوآحاز . وكانت مدة حكمه إحدى عشرة سنة ، وعاصره من الأنبياء إرميا ، وباروخ ، ودانيال . وفي أيامه كان مدير الهيكل في أورشليم - فاشور - رجلاً متجبراً ، فقبض على النبي إرميا ووضعه في السجن .

وفي عهده اشتد ضغط الإمبراطورية الكلدانية وعلى رأسها بختنصر ، ولكنه مات سنة ٥٩٩ ق.م وتولى بعده ابنه يهوياكين ، الذي يسمى أحياناً يخونيا أو خونيا .

١٩ - يهوياكين بن يهوياقيم ، وفي عهده بدأ بختنصر في حصار أورشليم والقبض على زعماء اليهود ، ونقلهم أسرى إلى بابل وكانت هذه بداية ما يسمى في التاريخ الإسرائيلي بالسبي البابلي . وكان بين من ذهبوا في الأسر يهوياكين نفسه .

٢٠ - صدقياهو ، ويسمى أيضاً متنيا . وقد أقامه بختنصر ملكاً على أورشليم ، وهو أحد أبناء يوشياهو . وكان توليه الحكم سنة ٥٩٩ ق.م. وهو حكم تميزه العمليات العسكرية الكلدانية ضد اليهود ، ويعاصره من الأنبياء إرميا وحزقيال . وقد ظل حصار بختنصر حتى سقطت أورشليم نهائياً ٥٨٨ ق.م حيث نقل صدقياهو إلى بابل ، وعوقب عقاباً شديداً على وقوفه في وجه الإمبراطور الكلداني ، فقتل جميع أولاده أمامه ثم سُمِلت عيناه . وعيّن بختنصر أحد اليهود الباقين في أورشليم حاكماً عليها واسمه جدليا . فقام في وجهه يهودي آخر اسمه إسماعيل وقتله بعد سبعة أشهر من توليه الحكم . وسرعان ما هبت مقاومة يهودية ضد إسماعيل بقيادة يهودي آخر اسمه يوحنان . ولكن الجيش الكلداني بدأ يتعقب يوحنان ، فهرب إلى مصر

ومعه النبيين إرميا وباروخ ، بينما ظل بعض أنبياء اليهود ، وفي مقدمتهم حزقيال وعوبديا ودانيال يمارسون نشاطهم في داخل الإمبراطورية الكلدانية ، وأحياناً في بلاد فارس حيث قامت إمبراطورية جديدة فتية على رأسها قـورش .

(ب) الأنبياء الأخر :

وهو يحتوي على تراث القادة الروحيين الذين حاولوا ـ بطرق شتى ـ الأخذ بيد اليهود نحو برّ السلامة في ظروف سياسية وعسكرية واجتماعية حالكة ، أحاط بهم فيها الأعداء من كل جانب . وإذا كانت هذه النبوات في معظمها لم تفد كثيراً عندما كان أصحابها ما يزالون بعد على قيد الحياة، فإن هذا التراث قد بقي مصدر أمل لليهود، يؤولونـه ويشكلونه بحسب الظروف . فهو أمل في مغفرة الله حيناً ، وأمل في الخلاص أحياناً ، وأمل في العودة إلى فلسطين عند الكثيرين منهم ، بل أمل في السيطرة النهائية على الإنسانية كلها لدى جماعات ممن يلوكون هذه النصوص ويحمّلونها ما شاء لهم الخيال .

وقد رأينا أن قسم الأنبياء الأول ، الذي تصطبغ أسفاره بالصبغـة التاريخية قبل كل شيء آخر ، يحتوي على أربعة أقسام : يوشع ، القضاة ، صمويل ، الملوك . وهذا القسم بدوره يحتوي على أربعة كذلك ، هي : إشعيا ، إرميا ، حزقيال ، الاثنتا عشرة مجلة ، التي تكون مجموعة واحدة تعرف أيضاً باسم « الأنبياء الصغار » أو الاثني عشر نبياً .

كيف رتبه المؤرخون؟ ـ ترتيب جوتييه :

وقد رتب مؤرخو الكتاب المقدس المحدثون الأنبياء الآخر تـرتيباً تاريخياً . فمثلاً رتبهم لوسيان جوتييه[1] على النحو التالي :

١ ـ عاموس ٧٦٠ ق.م.
٢ ـ هوشع ٧٥٠ ق.م.

---

(١) المرجع السالف الذكر .

٣ ـ إشعيا ٧٤٠ ق.م[1].
٤ ـ ميخا ٧٢٥ ق.م.
٥ ـ ناحوم ٦٥٠ ـ ٦٢٥ ق.م.
٦ ـ إرميا ٦٢٦ ق.م.
٧ ـ صفنيا ٦٢٥ ق.م.
٨ ـ حبقوق ٦٠٨ (القرن ٦ ق.م).
٩ ـ حزقيال ٥٩٣ ق.م.
١٠ ـ عوبديا القرن ٦ أو ٥ق.م
١١ ـ حجاي ٥٢٠ ق.م
١٢ ـ زكريا ٥٢٠ ق.م[2]
١٣ ـ ملاخي القرن ٥ق.م.
١٤ ـ يوئيل القرن ٥ أو ٤ ق.م.
١٥ ـ يونس القرن ٤ ق.م.

وترتيب الأسفار المذكورة حسب ما وردت في العهد القديم الموجود بين أيدينا ، يختلف عن هذا الترتيب العلمي التاريخي المذكور ، إذ أنه يأتي على النحو التالي :

أولاً : إشعيا ، إرميا ، حزقيال .

---

(١) تعرض سفر إشعيا لكثير من التحوير على مر العصور ، والتاريخ المذكور في هذه القائمة هو التاريخ العام للسفر . وهذا التاريخ العام ينطبق على الجزء الذي يبدأ من الإصحاح الأول وينتهي بالإصحاح التاسع والثلاثين ، باستثناء الإصحاحات الأربعة : ٢٤ ـ ٢٧ ، فقد أرجعها جوتييه إلى عصر متأخر جداً هو القرن الرابع أو الثالث قبل الميلاد . وهناك قسم من هذا السفر يبدأ بالإصحاح ٤٠ وينتهي بالإصحاح ٥٥ وهو الذي يسمى « إشعيا الثاني » وتاريخه حوالي ٥٤٠ ق. م. ومن الإصحاح ٥٦ إلى ٦٦ ، وهو آخر السفر ، يسمى «إشعيا الثالث» ويرجع هذا الجزء إلى القرن الخامس ق. م.

(٢) يرى العلماء أن سفر النبي زكريا، حسب التاريخ الوارد هنا يتضمن الجزء الأول منه فقط، أي من الإصحاح الأول إلى الإصحاح الثامن. أما جزؤه الثاني، وهو الذي يبدأ من الإصحاح التاسع وينتهي بالإصحاح الرابع عشر، وهو آخر هذا السفر، فإنه يرجع إلى حوالي سنة ٣٠٠ ق. م.

ثانياً : الاثنتا عشرة مجلة ، أو أسفار الأنبياء الاثني عشر الصغار ، وهم :

هوشع ، يوئيل، عاموس .
عوبديا، يونس ، ميخا .
ناحوم ، حبقوق ، صفنيا .
حجاي ، زكريا ، ملاخي .

٣ ـ الكتب

أسفار يغلب عليها الطابع الأدبي ـ كيف وردت في العهد القديم؟:

وتسمى أيضاً كتب الحكمة أو « هَجْيُوغرافيا » ، وهي مجموعة أسفار يغلب عليها الطابع الأدبي ، شعراً أو نثراً . وبعضها يتضمن تراثاً من القصص والحكم تواتر عبر الأجيال ، كما أن بعضها الآخر يتصل بالكيان السياسي والاجتماعي والديني لليهود ، ويحتوي كثير منها على تمجيد لبطولاتهم في الاستقرار في فلسطين ، أو الرجوع إليها بعد السبي البابلي على يد الامبراطورية الفارسية ، وتحت سيادتها . وترتيب هذه الأسفار حسب ورودها في العهد القديم كما يلي :

١ ـ مزامير داود .

٢ ـ أمثال سليمان .

٣ ـ أيوب ، وهناك أدلة كثيرة على أن نصه الأصلي كان عربياً .

٤ ـ نشيد الأناشيد، وأصله مسرحية غنائية من الفولكلور اليهودي الخاص بحفلات الزواج .

٥ ـ روت ، وهي قصة بطلة ترجع إلى عهد القضاة .

٦ ـ المراثي ، وهي مجموعة قصائد تنسب لإرميا في البكاء على أورشليم بعد تخريبها .

٧ ـ الجامعة ، أو « قُوهِيلِتْ »وينسب إلى أحد أبناء سليمان، وهو خواطر فلسفية .

٨ ـ إستير ، وهي نبية حصلت على وعد من إمبراطور فارس بالقضاء على أعداء اليهود في مملكته .

٩ ـ دانيال ، ويتضمن قصة مغامرات هذاالنبي وكراماته أثناء حكم بختنصر .

١٠ ـ عزرا ، الذي ينسب إليه جمع نصوص العهد القديم ، ولذا يسمى عزرا الكاتب ، ولكن شهرته قامت على قيادته لليهود في العودة من السبي البابلي لإقامة دولة صهيونية في فلسطين ، يعاونه في ذلك زروبابل .

١١ ـ نحميا ، وهو نبي انضم إلى صهيونية عزرا ، وجاء بعده باثنتي عشرة سنة إلى فلسطين لإقامة أسوار أورشليم ، وإعادة بناء الهيكل . وسفره يحتوي على معلومات هامة عن التنظيم العسكري للدفاع اليهودي ، والتنظيم السياسي في المناطق المحيطة بفلسطين في ذلك العصر .

١٢ ـ أخبار الأيام ، وهو تلخيص للوقائع التاريخية الواردة في الكتاب المقدس منذ بدء الخليقة إلى عودة اليهود من السبي ، في أيام قورش ملك الفرس . وهو ينقسم إلى قسمين : الأول منهما ينتهي بتولي سليمان الملك ، ويحتوي على تسعة وعشرين إصحاحاً . والثاني يتناول بقية هذا التلخيص إلى عهد قورش ، ويحتوي على ستة وعشرين إصحاحاً .

ولما كانت هذه الكتب الحكمية تعود في معظمها إلى مأثورات شعبية متواترة بين اليهود، فإن البحث العلمي يصطدم بمشاكل كثيرة عندما يريد تحديد علاقة بعض هذه الأسفار بمن نسبت إليهم ، أو افتراض تاريخ لظهورها وانتشارها .

سفر النبي أيوب :

ومن أشد هذه الأسفار المذكورة تعقيداً من وجهة النظر هذه : سفر أيوب .

رأي جرين ـ رأي فولتير :

ويرى كثير من الباحثين ، ونذكر منهم على سبيل المثال بنيامين جرين

في تلخيصه التاريخي للعهد القديم[1] ، أن النبي أيوب أقدم من موسى نفسه ، إذ حدد تاريخه بعام ١٥٢٠ ق.م. وكان الأديب الفرنسي الكبير « فولتير »[2] قد سبق إلى القول بأن أيوب وسفره أقدم من التوراة . وأن العبريين أخذوه عن العرب وترجموه إلى لغتهم . ويستدل على ذلك بأن اسم « الشيطان » الذي يشغل مكاناً رئيسياً فيه ليس كلمة عبرية ، بل هو كلداني . ومن الأدلة على الأصل العربي لسفر أيوب أيضاً ، نسبة أيوب نفسه إلى أرض عرص، وهي تقع في شمال شبه جزيرة العرب ؛ وأن أصدقاءه كانوا فيما يبدو من العرب : إليفاز من تيمان، وبلدد كان شوحيا ، من منطقة السويس في رأي فولتير . وصوفر كان من نعمات .

كذلك لاحظ الباحثون ذكر الجمال عند الحديث على ثروة أيوب من الماشية ، ونحن نعرف أن لحوم الإبل محرمة على اليهود ، وأنها لم تذكر بين ثرواتهم حتى في دواب الحمل. بل إن اسم أيوب نفسه لا مثيل له في أسماء العبريين.

ثم إن الحادثة التي تبدأ بها القصة ، وهي منافسة بين الرب والشيطان على أيوب تردنا إلى عقائد الثنوية من الفرس ، الذين كانوا يسوون في المنزلة بين إله الشر أو الظلمة ، وإله الخير أو النور ، وهو أمر يختلف اختلافاً تاماً وجوهرياً عن فكرة التوحيد التي جاء بها موسى . فلا عجب والحالة هذه أن يظل سفر أيوب بفصوله الاثنين والأربعين ، رغم كثرة التأليف فيه ، مشكلة من المشاكل الكبرى في دراسة العهد القديم حتى الآن ، لغوياً واعتقادياً وتاريخياً[3] .

---

(١) Benjamin Greene; Résumé Chronologique de l'Ancien Testament, Lyon-Genève 1909 pp. 170-173.

(٢) Voltaire; Dictionnaire Philosophique, Paris-Garnier 1954; pp. 257-260.

(٣) وفي داخل التراث الفكري اليهودي نفسه نجد خلافاً ضخماً حول أيوب ، حتى إن التلمود البابلي - وفي باب « بابا باثرا » - يقول إن أيوب لم يوجد ولم يخلق وكان مجرد مثل . أنظر :
Le P. Paul Dhorme; Le Livre de Job; Paris-Gabalda 1926.

مزامير داود :

أما مزامير داود فإنه يعد بحق كنز الشاعرية العبرية . وقد تراكمت فيه نصوص مختلفة تتضمن أشعاراً وعظية ، وصلوات ، وتسابيح ، وقصائد في الإيمان ، وأخرى في تمجيد أورشليم ، وأشعاراً في مناسبات تاريخية ، وأخيراً نصوصاً كثيرة في انتظار المخلّص « المسيح » ، أو التبشير به .

ويحتوي سفر المزامير على مائة وخمسين مزموراً ، ثلاثة وسبعين منها فقط تنسب إلى داود ، وخمسين مجهولة المؤلف ، والبقية ترجع إلى مؤلفين مختلفين .

وهذا هو بيانها بأرقامها موزعة على مؤلفيها[1] :

موسى ٩٠ . (١)

داود ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، (٧٣)
١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ،
١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ،
٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ ،
٣٢ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ،
٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ،
٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،
٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ ،
٨٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠ ،
١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٣١ ، ١٣٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،
١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

سليمان ٧٢ ؟ ، ١٢٧ . (٢)

إيتان ٨٩ . (١)

---

(١) بنيامين جرين ، المرجع السابق ص: ١٧٤ .

بنو قورح	٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ .	(١٠)
هيمان	٨٨ .	(١)
آساف	٥٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ .	(١٢)
مجبولون	١ ، ٢ ، ١٠ ، ٣٣ ، ٤٣ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧١ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .	(٥٠)
	المجموع الكلي لعدد المزامير	(١٥٠)

سفر الأمثال :

وفي هذه المجموعة من الكتب الحكمية يحتل « سفر الأمثال » مكاناً بارزاً على المستوى الشعبي وفي أوساط العلماء ، بحيث لا يجمل بنا أن نمر به بدون توقف . وهذا السفر يحمل عنواناً هو أطول عناوين العهد القديم على الإطلاق ، إذ يشغل هذا العنوان الآيات الست الأولى من الإصحاح الأول ، وترجمتها :

« أمثال سليمان بن داود ملك إسرائيل . لمعرفة الحكمة والتأديب ، للتفطن لأقوال الفطنة . لاستفادة تأديب التعقل ، العدل والحق والاستقامة . لإنالة الأغرار دهاء ، والحدث علماً وتدبيراً . يسمع الحكيم فيزداد فائدة ، والفطين يكتسب دُرْبَةً . للتفطن للمثل والأحجية ، لكلمات الحكماء وألغازهم » .

وبالرغم من أن هذا السفر كما رأينا ينسب إلى سليمان ، فإنه في نظر العلماء المحدثين من نقاد الكتاب المقدس يعتبر مجموعة من الأقوال المأثورة ، مروية عن أكثر من مصدر واحد . ويقسمونه عادة إلى أقسام على النحو الآتي :

١ - من ١/١ - ٦ عنوان السفر الذي ذكرناه .

٢ - من ١/٧ - ١٨/٩ مقدمة في امتداح العقل والحكمة والتحذير من أنواع من الرذيلة .

٣ - من ١/١٠ - ١٦/٢٢ المجموعة الأولى من أمثال سليمان . إذ يبدأ الإصحاح العاشر بقوله : « أمثال سليمان . الابن الحكيم يسرّ أباه ، والابن الجاهل غم لأمه . » .

٤ - من ١٧/٢٢ - ٢٢/٢٤ مجموعة من أقوال الحكماء، تبدأ هكذا : « أمِل أذنك واسمع كلام الحكماء ، ووجه قلبك إلى علمي » .

٥ - من ٢٣/٢٤ - ٣٤/٢٤ ملحق ، أو تذييل للمجموعة السابقة من أقوال الحكماء ، إذ يبدأ هذا التذييل بقوله : « هذه أيضاً للحكماء. مراعاة الوجوه في القضاء ليست في شيء من الصلاح » .

٦ - من ١/٢٥ - ٢٧/٢٩ مجموعة جديدة من الأمثال المنسوبة إلى سليمان ، وهي تحمل الدليل على أن سفر الأمثال ربما لم يتكون في صورة مجموعة حكمية داخلة في النصوص المقدسة إلا أثناء السبي البابلي أو بعده ، وبكل تأكيد بعد سقوط أورشليم في يد بختنصر وانتهاء حكم حزقيا ، آخر ملوك يهوذا . فهذا القسم يبدأ بقوله : « هذه أيضاً أمثال سليمان التي نقلها رجال حزقيا ملك يهوذا » .

٧ - من ١/٣٠ - ٣٣/٣٠ وهو إصحاح مخصص لتسجيل حكمة رجل يدعى آجور بن ياقة ، وهو طراز آخر من الحكماء أميل إلى الأسلوب الشعبي . ففي بدايته نقرأ : « كلام آجور بن ياقة . القول البليغ . خطاب هذا الرجل لإيتيئيل ، لا يتيئيل وأوكال : إني أبلد الناس ، وليس لي ذكاء

البشر . ولم أتعلم الحكمة ، ولا عرفت علم القديسين . من ذا الذي طلع إلى السماء ونزل ؟ من قبض الهواء في راحتيه ؟ من أمسك الماء في ثوب . من أقام جميع أطراف الأرض ؟ ما اسمه ؟ وما اسم ابنه ، إن علمت ؟ » .

٨ ـ من ٣١/١ ـ ٣١/٩ يتضمن هذا الجزء الصغير الحكم التي تلقاها ملك لا نعرف عنه في التاريخ شيئاً ، يسمى هنا « لموئيل » . وقد لقنته أمه هذه الحكم ، وتبدأ هكذا : « كلام لموئيل الملك . قول بليغ أدبته به أمه . ماذا يا بني ؟ ثم ماذا يا ابن أحشائي؟ ثم ماذا يا ابن نذوري ؟ لا تسلم ثروتك إلى النساء ، ولا خطط إلى مبيدات الملوك . ليس للملوك يا لموئيل ، ليس للملوك ، أن يشربوا الخمر ، ولا للعظماء أن يحتسوا المسكر . . . » .

٩ ـ من ٣١/١٠ ـ ٣١/٣١ وهو آخر جزء في هذا السفر ، ويتضمن قصيدة في التغني بالمرأة الجميلة الفاضلة العفيفة ، يقول : « من يجد المرأة الفاضلة ؟ إنها أثمن من الدرر . يثق بها قلب زوجها فلا يحتاج إلى مغنم . تغمره خيراً لا شراً كل أيام حياتها . تلتمس صوفاً وكتاناً فيعمل كفّاها بمهارة . وتكون كسفن التاجر ، تجلب طعامها من بعيد . إنها تقوم آخر الليل فتعطي زاداً لبيتها ، ولجواريها ما يلزمهن . ترى الحقل فتأخذه وبفضل كفيها يغرس الكرم . تحزم حقويها بقوة ، وتشدد ذراعيها . تتذوق لذة تجارتها ، فلا يخبو في الليل قنديلها . تلقي يديها على الوشيعة ، وأناملها تمسك بالمغزل. تبسط كفيها إلى البائس، وتمد يديها إلى المسكين . لا تخشى على بيتها من الثلج، لأن أهل بيتها جميعهم يلبسون الحلل. تصنع لنفسها أغطية مطرزة، ولباسها الخز والأرجوان. زوجها معروف في الأبواب، حيث يجلس بين شيوخ البلد. تصنع قمصاناً وتبيعها، وتعرض أحزمة على الكنعانيين. لباسها العز والبهاء، وهي تفرح في اليوم الأخير، فمها مفتوح بالحكمة، وعلى لسانها شريعة التقوى. تلاحظ مسالك بيتها، ولا تأكل خبز التواكل. يقوم أبناؤها فيغبطونها، وزوجها يثني عليها. إن كثيراً من البنات قد أنشأن لأنفسهن فضلاً، أما أنت ففقت عليهن جميعاً. النعيم غرور، والجمال

باطل، والمرأة التي تتقي الرب هي التي تُمدح. أعطوها من ثمر يديها، ولتمدحها في الأبواب أعمالها».

ويبدو من هذا العرض أن أكبر جزأين في هذا السفر (٣ ، ٦) ينسبان فعلاً إلى سليمان ، على حين تبقى الأجزاء الأخر متعددة المصادر. من هو آجور بن ياقة؟ ومن إيتئيل وأوكال؟ ومن هو الملك لموئيل ؟ كل هذه أسئلة اختلف عليها الباحثون ولم يصلوا بعد إلى حل واضح فيها .

ومشاكل الرواية ، ونسبة النص إلى مصدره ، والتأريخ له ، تظل على نفس المستوى من الغموض فيما يسمى بالمجلات الخمس : نشيد الأناشيد روث ، المراثي ، والجامعة ، واستير .

سفر دانيال :

ومن الكتب التي تثير كثيراً من الجدل في هذا القسم من العهد القديم « سفر دانيال » . ويبدو أن مجموعة أسفار الأنبياء كانت قد أغلقت نهائياً ، وأقرها الرواة بصورتها وتقسيمها وترتيبها التي سبقت الإشارة إليها قبل أن يظهر سفر دانيال . من هنا جاء الخلاف بين النسخة العبرية وغيرها من النسخ حول وضع دانيال . فالترجمة اليونانية السبعينية تعده في القسم الخاص بالأنبياء لا بكتب الحكمة ، وقد تبعتها في ذلك الكنائس المسيحية بكافة مذاهبها .

ويقول « لوسيان جوتييه »[(١)] إنه لا بد من أن تكون هناك أسباب قوية لأجلها لم يعتبر كتبة اليهود دانيال ضمن أسفار الأنبياء . وأهمها تأخره في الزمن ، فلو أنه كان قد عرف وانتشر قبل الانتهاء من تثبيت أسفار الأنبياء كما نعرفها ، لدخل من ضمنها بلا شك فإذا علمنا أن بين الأسفار التي دخلت في القسم الخاص بالأنبياء نصوصاً ترجع إلى ما بعد العودة من السبي ، كان معنى ذلك أن نص سفر دانيال لا بد أن يكون قد تأخر كثيراً ، حتى عن هذه الفترة . فكل مؤرخي التوراة يجمعون على أن الأنبياء « حجاي » و « زكريا »

---

(١) مقدمته للعهد القديم المشار إليها آنفاً .

و « ملاخي » قد عاشوا في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد . كذلك يوجد من مؤرخي الكتاب المقدس من يجعلون نصوصاً معينة من أسفار الأنبياء ترجع إلى عهد أحدث من ذلك ، ويذكرون على سبيل المثال سفر يوئيل بتمامه وسفر يونس ، والإصحاحات ٢٤ ـ ٢٧ من إشعيا ، والإصحاحات ٩ ـ ١٤ من زكريا . ويستدلون بذلك على حداثة عهد نص دانيال .

لاحظ الباحثون في نصوص الكتاب المقدس أيضاً أن هذا السفر في لغته الأصلية مكتوب بلغتين هما العبرية والآرامية ، تتواليان الواحدة منهما في إثر الأخرى على طول السياق . وهذه الظاهرة نجد مثيلاً لها في سفر عزرا . ومع ذلك ففي هذه الحالة الأخيرة نلاحظ أن سفر عزرا الذي يستعمل العبرية بصورة أساسية ، كان يرجع إلى وثائق ونصوص آرامية ، يضع منها ما يحتاج إليه في تحرير هذا السفر بلفظه ولغته . أما في حالة دانيال فإن مبررات هذه الازدواجية اللغوية لا تبدو من الناحية المنطقية بنفس القوة التي تبدو في سفر عزرا .

فسفر دانيال يجري على مخطط بسيط ، ينقسم فيه السياق إلى قسمين متميزين بوضوح . الأول (الإصحاحات ١ ـ ٦) يتضمن سرداً قصصياً . أما الثاني (الإصحاحات ٧ ـ ٣) فيتضمن تفصيلاً للأحلام والرؤى التي ظهرت فيها كرامات النبي دانيال . ولو أن التوزيع اللغوي بين العبرية والآرامية كان يطابق هذا التقسيم الموضوعي لهان الأمر ، كما يقول جوتييه ، ولكن الوضع مختلف في الواقع . فالإصحاح الأول من هذا السفر يبدأ بالعبرية ، وتسوده الصبغة التاريخية ، ويستمر بنفس اللغة والأسلوب إلى صدر الآية الرابعة من الإصحاح الثاني حيث يقول « وخاطب الكلدانيون الملك بالآرامية » . هنا يتوقف عن استعمال العبرية ويبدأ في الحديث بالآرامية من بقية الآية الرابعة في الإصحاح الثاني ، إذ يقول : «أيها الملك ، عشت إلى الأبد . . . » فيستمر استعمال الآرامية إلى آخر الإصحاح السادس ، بل يتعدى ذلك إلى الحديث في الإصحاح السابع ـ بالآرامية أيضاً ـ عن رؤيا النبي دانيال ، وهو موضوع أشد ارتباطاً بالنصف الثاني (٨ ـ ١٢) الذي يستعمل العبرية .

وهكذا يتبين لنا أن توزيع العبرية والآرامية على نصوص هذا السفر لا يبدو منطقياً حتى لو أننا اعتبرنا أن استعمال لغتين مختلفتين في سفر واحد يمكن أن يسمى منطقياً . ولذلك لا نعجب إذا وجدنا مؤرخي الكتاب المقدس والباحثين في نصوصه يقولون ـ والعبارة هنا للوسيان جوتييه ـ ان هذه الازدواجية اللغوية في سفر دانيال في غاية الصعوبة من حيث تعليلها . فبعض الباحثين يلقيها على مسؤولية كاتب هذا السفر ، أياً كان . ومع ذلك فإنه من الصعب أن نتصور كاتباً يحرر طائعاً مختاراً كتاباً واحداً بهذا الأسلوب الغريب .

وبعض الباحثين يعتقد أن هذا السفر قد طرأت عليه أحداث معينة انتهت بتركه على الصورة التي وصلنا بها . وفي هذا الصدد يظهر أكثر من افتراض . وأقرب هذه الافتراضات إلى واقع هذا السفر يأتي من أن حديثه عن الكلدانيين وعن الإمبراطورية الفارسية ينم عن علم مضطرب بهما ، وعن فاصل زمني لا يستهان به هو الذي أحاط الحديث في تلك الموضوعات بما يبدو فيه من خلط واضطراب . وبالعكس نشعر في أواخر هذا السفر ، خصوصاً ابتداءً من الإصحاح الثامن ، بأن المتحدث يعرف بدقة أحوال الإمبراطورية اليونانية ، ويشير إشارات دقيقة إلى شخصية تنطبق تماماً على الإسكندر الأكبر المقدوني ، بل نشعر بإشارات إلى خلفاء الإسكندر، السلوقيين في الشام والبطالسة في مصر ، ثم بالأحداث الدامية التي أوقعها باليهود حاكم سوريا « أنطيوخوس إبيفانوس» . فإذا أضفنا إلى ذلك أن النبي دانيال لا يُذكر في أيام السبي البابلي في نصوص الأنبياء الذين عاصروا هذه الحوادث إلا في سفر حزقيال، الذي يصفه مرة بالعدل (١٤/١٤، ٢٠) يمكن أن نفترض أن السفر المنسوب إليه قد كتب متأخراً في مرحلة ما من العصر اليوناني ، وهو رأي يدعمه انفراد هذا الكتاب بكثير من الألفاظ الدخيلة اليونانية التي لم تكن معروفة من قبل أو مستعملة بين اليهود .

هذا رأي أكثر المحققين الأوروبيين المحدثين وفي مقدمتهم لوسيان جوتييه ، وقبله البريطاني دريفر[١] ومع ذلك فإن سفر دانيال ما يزال محتاجاً

(١) مقدمته للعهد القديم المشار إليها آنفاً .

إلى أبحاث طويلة في لغته ومضمونه الديني والسياسي ورمزيته الأدبية ، كما أنه محتاج إلى مزيد من الاستعانة بالآثار والحفائر التي كشفت ، وتكتشف في إيران والعراق وفلسطين .

تبين لنا أن العهد القديم يعتبر في مجموعه مستودعاً لما يرى العبريون أنه تاريخهم وتراثهم من تجارب السابقين ، ومن أدبهم شعراً ونثراً ، ومن حكمهم وأمثالهم وبطولاتهم ونبواتهم . كما تبين لنا أنه ـ على الرغم من كل شيء ـ يبدو الحرص على أن يكتسب ذلك كله ترتيباً تاريخياً يبدأ بخلق العالم وينتهي بالعودة من السبي البابلي وإقامة الهيكل الثاني بجهود عزرا ونحميا وزروبابل . ولأن الفرس كما علمنا كانوا حلفاء لهم ، واليهود إنما رجعوا من السبي بفضل الفرس ، ولأنهم ارتبطوا بالسياسة الفارسية الاستعمارية التي انتهت بفتح مصر نفسها ، فإن اليهود لم يستمروا في تقييد نبواتهم بصورة مقدسة بعد زوال الحكم الفارسي ومجيء اليونان إلى منطقة الشرق الأوسط ، باستثناء نصوص قليلة أهمها ما أشرنا إليه من أمر النبي دانيال وسفره .

أسفار المكابيين:

ومع ذلك فلأن اليهود قد ألفوا تسجيل سيرهم وأخبارهم بنفس الطريقة الملحمية الفلكلورية التي عرفناها في العهد القديم ، فإن هذا السرد يستمر فيما يسمى بتاريخ المكابيين، وهو نص جاءنا باليونانية لا بالعبرية ليواصل التاريخ الإسرائيلي حتى ظهور المسيح .

وفي هذا الصدد تقدم الترجمة العربية الكاثوليكية للكتاب المقدس[١] بمقدمة للمكابيين تقول فيها :

لم يتوقف تاريخ الشعب اليهودي بعد الحكم الفارسي ، بل تابع مجراه تحت سيطرة الإغريق ، في ظل السلالات المنبثقة من فتوحات الإسكندر .

(١) الكتاب المقدس ـ العهد العتيق ، بيروت ـ المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٤ المجلد الثاني ص ٨٦٨ وما بعدها .

ففي البدء كانت فلسطين ، وبما فيها إسرائيل ، تحت حكم البطالسة أو اللاجيديين المالكين في مصر ؛ ثم انتقلت إلى حكم سيكون أكثر تعسفاً ، هو حكم السلوقيين المالكين في سوريا .

لم تنقل التوراة العبرية شيئاً من أحداث هـذه الأزمنة التي تلت « أرتحششتا » حامي نحميا وعزرا . إلا أن التوراة اليونانية ، ويتبعها في ذلك سائر التورات المستعملة عند المسيحيين ، قد قبلت كتابين ينتميان إلى عهد السلوقيين إلى فترة مشؤومة على اليهودية . وقد سميا بسفري المكابيين .

وهذا الاسم ليس بالواقع في نص السفرين سوى كنية فردية لثالث أبناء متياس ، وهو الباسل يهوذا . ومعنى الكنية ، كما يظهر ، هو « المعيِّن من يهوه » . وقد جرى الاستعمال أن يطلق الاسم على إخوته أيضاً ، ثم على الضحايا المجيدة التي سقطت في الاضطهاد الذي أثاره أنطيوخوس إبيفان على اليهود الأمناء لإلههم وشريعتهم .

إن السفر الأول هو كناية عن رواية متتابعة لحوادث تنتهي إلى موت سمعان ، ثالث ملك من السلالة الأشمونية . (يريد أسرة الملوك اليهود الحشمونيين) .

تبتدىء الرواية بالإسكندر ؛ فتبلغ سريعاً إلى الملك السلوقي المضطهِد أنـطيوخـوس إبيفان . فقـد دمر الهيكـل ، وأوقف عبـادة يهـوه ، وأجبـر الإسرائيليين أن يذبحوا للآلهة الكذبة . حينئذٍ تألفت نواة مقاومة حول متياس الكاهن الشيخ ، في مودين ، تحت رئاسة أولاد الكاهن ، وأولهم وأمجدهم يهوذا المكابي الذي سيدير أمور الحرب ويقود الأمة . فكان يقاتل ويطلب النجدة من الخارج حتى روما ؛ ودخل أورشليم فأصلح الهيكل ، وأعاد خدمة الله . وأخيراً سقط مجيداً في ساحة الحرب . فخلفه أخوه يوناثان على رأس السلطة المدنية . فحمل لقبي « ملك » و« رئيس أحبار » بالوقت عينه ، وهذا اللقب المزدوج من ميزات هذه السلالة . وأمّنت له خصومات جيرانه حكماً ذاتياً قوياً . لكنه وقع أخيراً في قبضة أحد الملوك جيرانه ؛ ومات قتلاً في المنفى . فخلفه ثالثهم سمعان ؛ وبعد مُلْكٍ سعيد مات قتـلاً بيد أحـد

المغامرين . ويتوقف السفر عند ملك ابنه ؛ وهو يوحنا حرقان (هرقانوس) الكبير الذي يذكره يوسيفوس المؤرخ . ولم يذكر في السفر شيء من مآثره .

إن إنشاء السفر بكامله لا خيال فيه ، وهو اقتداء جيد للنثر التاريخي ، نثر صمويل والملوك . ليس لدينا منه سوى ترجمة يونانية ونصوص أخرى متعلقة بهذه الترجمة . لكن إنشاءه وبعض الأغلاط في الترجمة تثبت أن النص الأصلي ، وهو على الأرجح قليل الانتشار جداً ، كان بلغة سامية ـ قد تكون دون شك العبرية ـ إنه ديني إلى حد بعيد ، لكن دون تفخيم ، ودون أن تظهر فيه أفكار لاهوتية معينة .

أما المؤلف فيظهر أنه عاش في فلسطين ، مما يؤهله لمعرفة الأخبار التي يرويها . وإن الشكل المختصر الذي يتوقف به السفر عند موت سمعان ، يدعو إلى الاعتقاد أن المؤلف كتب في أثناء ملك ابنه يوحنا حرقان ، بعد مقتل أبيه بقليل ـ ١٣٤ ق.م.

أما سفر المكابيِّين الثاني فهو مستقل ومميز تماماً عن الأول ، ويظهر أن هدفه ـ الجزئي على الأقل ـ هو دعوة الشعب اليهودي ، حتى في الهجرة ، ليقيموا عيد التدشين أو « الحانوكا » وهو التذكار السنوي لإعادة العبادة على يد يهوذا المكابي . ويتكلم عرضاً عن يوم نيكانور، وهو الاحتفال بالنصر الذي قيض لأورشليم أن تظل نهائياً في أيدي اليهود الأوفياء لله. لهذا الكتاب ميزة خاصة به، وهو أن المؤلف يخبرنا أنه قام بتلخيص مؤلف في خمسة أجزاء، من وضع جازون (ياسون) القيرواني الذي لا نعرف عنه شيئاً آخر، والذي كان ينتمي إلى الطائفة اليهودية في القيروان ذات اللغة اليونانية ، ولا ريب أن جازون كان يستعمل هو أيضاً اللغة اليونانية . فما علينا إذن أن نفترض نصاً أصلياً بلغة غير اليونانية .

إن واضع سفر المكابيين الثاني ، اقتداء بكثير من المؤرخين اليونانيين في عصره ، يستعمل الإنشاء المؤثر ، الكثير الإطناب ، مع اعتبارات دينية ، وحوادث عجائبية. ومن المهم جداً أن نلاحظ في هذا السفر تأكيداً قوياً للمجازاة في الحياة الأخرى ولقيامة الموتى . وذلك دليل على فكرة متطورة

عما بعد الموت ، سيعتنقها الفريسيون ، وسيعلمها المسيح ويتركها لكنيسته .

إلى هنا ينتهي كاتب مقدمة الترجمة العربية. ونحب أن نضيف إلى تلخيصه بعض ملاحظات وتوضيحات :

لفظة المكابيين ليست من السهولة في شرحها واشتقاقها بما يبدو في هذه المقدمة ، فقد اختلف في اللفظة العبرية المفردة التي تقابلها فذهب بعض الباحثين إلى أنها « مقبّى » ومعناها « المطرقة » ، وقد لقب بها يهوذا للضربات الساحقة التي ألحقها بأعداء قومه من اليهود. وإلى جانب هذا الرأي يرى آخرون أن الأصل العبري هو « مكبي » ، وأنها اختصار بالحروف الأولى لآية جاءت في نشيد انتصار موسى على فرعون تقول : « من كمثلك بالآلهة يا رب» (خروج ١٥/ ١١). وقد راعينا في الترجمة بقاء حروف الاختصار. وأن يهوذا كان قد اتخذ هذه الآية شعاراً له ونقش حروفها الأولى (م. ك. ب. ى.) على خاتمه، فانتسبت إليها أسرة الحشمونيين، وأصبحوا يسمون المكابيين. وعلى ذلك يكون تفسير كاتب المقدمة بأن معنى هذه الكلمة «المعيَّن من يهوه» تفسيراً غير راجح؛ لا ندري كيف اشتقاقه أو تخريج معناه هكذا.

تأكيد كاتب المقدمة أن النص الأصلي لسفر المكابيين الأول قد كتب « دون شك » بالعبرية لا يقوم عليه دليل ، ووجود بعض الأغلاط في النص اليوناني ربما كان مرجعه إلى أن الكاتب اليوناني كتب باليونانية ولكنه يهودي أولاً وقبل كل شيء ، يمكن أن ينزلق أسلوبه باليونانية أحياناً نحو العبرية أو الآرامية. وربما كان افتراض كتابة هذا السفر بالآرامية، عند من يصرون على أن نسخته اليونانية مترجمة عن لغة سامية، أقرب إلى الواقع اللغوي ليهود فلسطين في هذه الأثناء.

أشار كاتب هذه المقدمة إلى شيء طريف عن سفر المكابيين الثاني ، وهو أنه مختصر من كتاب كبير سابق له ، وقصة ذلك كلها وردت في الإصحاح الثاني من سفر المكابيين الثاني نفسه ، بالتفصيل ، في قوله « إن الحوادث التي وقعت ليهوذا المكابي وأخوته ، وتطهير الهيكل العظيم وتدشين المذبح ، والحروب التي وقعت مع انطيوخوس وابنه أوباطور ، والآيات التي

ظهرت من السماء في حق الذين تحمسوا لدين اليهود ، حتى إنهم مع قلتهم تسلطوا على البلاد بجملتها ، وطردوا جماهير الأعاجم ، واستردوا الهيكل الذي اشتهر ذكره في العالم بأسره ، وحرروا المدينة، وأحيوا الشرائع التي كادت تضمحل ، لأن الرب عطف عليهم بكثرة مراحمه . تلك الأمور التي شرحها ياسون القيرواني في خمسة كتب ، قد أقبلنا نحن على اختصارها في مجلة واحدة . ولما رأينا تكاثر الحوادث ، والصعوبة التي تعترض من أراد الخوض في أخبار التاريخ ، لكثرة المواد ، كان من همنا أن نجعل فيما كتبناه فكاهة للمطالع ، وسهولة للحافظ ، وفائدة للجميع . فلم يكن تكلفنا لهذا الاختصار أمراً سهلاً ، وإنما تم بالعرق والسهر . كما أن الذي يعد مأدبة ، ويبتغي بها منفعة الناس ، لا يكون الأمر عليه سهلاً .

غير أنّا لأجل مرضاة الكثيرين سنتحمل هذا النصب عن طيبة نفس ، تاركين التدقيق في تفاصيل الحوادث لأصحاب التاريخ ، وملتزمين في الاختصار استقراء أهم الوقائع . فإنه كما ينبغي لمن يهندس بيتاً جديداً أن يهتم بجميع أجزاء البنيان ، ولمن يباشر الرسم والتصوير أن يتطلب أسباب الزينة ، هكذا ما نحن فيه على ما أرى . فإن التبحر والكلام على كل أمر ، والبحث عن جزء فجزء ، من شأن مصنف التاريخ . وأما الذي يلخص فمرخص له أن يسوق الحديث باختصار مع إهمال التدقيق في المباحث . (سفر المكابيين الثاني ٢/٢٠ ـ ٣٢).

ونحن نرى من هذا المثال الدقيق الطريقة التقليدية التي كان اليهود يعرفونها ويكتبون بها تواريخهم ، بل ربما كان هذا الملخص المتأخر الذي يعترف بمنهجه وأهدافه بكثير من الصراحة أكثر تدقيقاً من قدماء الفولكلوريين العبريين ، بل من كثير من أنبياء بني إسرائيل .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن هذا النص المتضمن في المكابيين الأول والثاني لم يدخل ضمن الأسفار القانونية التي يتكون منها كتاب اليهود المقدس ، وإن كانوا يحيطونه بكثير من العناية والاهتمام ويجعلونه كما قلنا استمراراً لتاريخهم . ولذلك فإنه ألحق بمجموعة من النصوص كانت مقدسة

في بعض فترات من التاريخ، ولكنها أخرجت من الكتاب المقدس لأسباب شتى وأطلق عليها اسم «الكتب غير القانونية» أو «الأبوكريفا»(١) وسنلقي عليها في السطور التالية بعض الضوء أملاً في أن يتضح حجمها ومفهومها في ذهن القارىء العربي .

---

(١) الكتب والنصوص غير القانونية في العهد القديم كانت موضوع عناية العلماء والدارسين ومراجعها كثيرة من أوفاها :

D.Otto Zockler; Die Apokryphen des Alten Testaments . طبع ميونيخ سنة ١٨٩١ .

وتوجد ترجمة عربية للأبوكريفا في العهد القديم، طبعتها مدارس الأحد المرقسية بالاسكندرية وأشرف عليها الأستاذ الدكتور مراد كامل والأستاذ عيسى عبد المسيح وظهرت سنة ١٩٥٦ بعنوان «الأسفار القانونية التي حذفها البروتستانت». والواقع هو أن اليهود هم أول من حذفها .

وعلى غرار ما حدث في العهد القديم . توجد أبو كريفا للعهد الجديد المسيحي خاصة ، من خير مراجعها :

M.R.James, The Apociyphal New Testament, Oxford 1926.

الكتب غير القانونية
(الأبوكريفا)

ويسميها بعض الباحثين من اليهود « الكتابات الخارجة » ، ويعنون بذلك أنها نصوص مروية على أنها مقدسة ، ولكنها لم تُقبل عندما تقرر تسجيل أسفار العهد القديم في وضعها الذي ذكرناه كأجزاء معتمدة من هذا الكتاب المقدس. ولكن بأية سلطة وبناء على أي مقياس أخرجت هذه النصوص؟ .

إن النصوص « الشرعية » التي قبلها علماء اليهود الأولون ، وجعلوا منها كتابهم المقدس ، تسمى عندهم بأسماء أهمها وأشهرها « التنَاخ » ، ويكتبونها بالعبرية (ت ، ن ، ك) وهي حروف اختصار من الألفاظ : توراة، نبيئيم (الأنبياء) ، كتوبيم (الكتب) ، وهي كما عرفنا الأجزاء الثلاثة الكبيرة التي يتألف منها العهد القديم . ومن الأسماء المستعملة عندهم لتحديد هذا الكتاب « المِقْرا » ، أي النص المقروء، لأنهم مطالبون بقراءته في عباداتهم وللرجوع إلى الأحكام الشرعية التي تنظم حياتهم . وهناك اسم ثالث ، له عندهم صفة علمية خاصة ، هو « المِسُورَةْ » أو « المِسُورِتْ » ويعنون بذلك النص المقدس المروي عن الأسلاف رواية متواترة ارتضتها أجيال العلماء ورفضت ما عداها .

ويقول اليهود إن كتابهم المقدس ظل زمناً طويلاً يروى مشافهة من مصادر مختلفة ، وأنه لولا العلماء المحققون من اليهود ، الذين محصوا هذه المرويات ونسّقوها ، لانطمست معالم النص المقدس ودخلت فيه متناقضات

كثيرة . ومن الجدير بالذكر أن « المِسُورِتْ » لا تعني فقط نسخة العهد القديم بروايتها التي يقال إنها ترجع إلى عهد النبي « عِزرا » ، بل يضاف إلى ذلك ضبطها بالحركات ، وتقسيمها إلى أسفار وفقرات ، وآيات ، وتعيين مواضع الفصل والوصل والوقف عند التلاوة، وتحديد نطق بعض الألفاظ التي كُتِبَتْ بطريقة لا تؤدي إلى النطق الشرعي الصحيح ، مما هو مبين فيما يسمونه « المقروء والمكتوب » ، « قِري وكتيبْ » .

وبهذا الوضع يمكننا أن نقول إن المُسورِتْ، أي إقرار النص الشرعي في صورته النهائية الكاملة المتكاملة المقفلَة ، قد استغرقت أجيالاً من العلماء من عهد « الكتبة » (سُوفرِيم) ، في غضون القرن الثالث قبل الميلاد ، وحتى عهد الأحبار الفقهاء (جاؤنِيم) ، في القرن السابع والثامن الميلاديين . بل إننا نلاحظ من خلال قراءة كتاب « اللُّمَع » في النحو العبري للعالم اليهودي الأندلسي أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي المتوفى في أواسط القرن الحادي عشر الميلادي أنه يشير بين الفينة والفينة إلى اختلاف الرسم أو القراءة في عصره بين مخطوطات متنوعة من الكتاب ، فيذكر أنه رأى كلمة كذا في « مصحف شامي » أو « مصحف كوفي » . . . إلخ ، ويعني بهذه المصاحف نسخاً من العهد القديم[١] .

بل إن الباحثين المعاصرين قد أخذوا بنصيبهم في تحقيق المُسورِتْ ، فظهرت طبعة علمية للكتاب المقدس اليهودي سنة ١٩٢٦ أعدها ونشرها في لندن جينزبورج ، كما ظهرت في ألمانيا طبعة علمية من إعداد كيتل . وكلاهما بذل الجهد في استقصاء الخلافات بين النسخ المخطوطة الموجودة بين أيدينا ، والنسخ التي كان يستعين بها المترجمون القدماء لهذا الكتاب حسب ما تنم عن ذلك ترجمة كل منهم ، مستعينين في المقام الأول

---

(١) أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي ؛ كتاب اللمع (في النحو العبري) ، نشره بالعربية المستشرق يوسف درنبورغ - باريس ، ١٨٨٦ . وانظر أيضاً :

Hassan Zasa; L'OEuvre grammaticale d'Ibn - Djanâh, et ses rapports avec les différentes théories arabes.

وهي رسالة دكتوراه للسربون - باريس سنة ١٩٥٨ .

بالترجمات الآرامية التي قام بها «أونكلوس» و« يوناثان » واليونانية : السبعينية ، وأكيلا ، وسيماكوس . وكذلك بالترجمات السريانية واللاتينية والقبطية والحبشية وغيرها .

فكل النصوص التي لم تدخل في النسخة العبرية الشرعية المشار إليها ، وظلت مع ذلك شائعة بين اليهود ، أو مثبتة في بعض المخطوطات أو الترجمات هي التي تتكون منها الأبوكريفا . وقد حاول علماء اليهود أن يحددوا الأسس التي طردت بمقتضاها نصوص الأبوكريفا فذكروا من ذلك :

١ ـ النصوص التي ترجع إلى زمن الكتاب المقدس ، ولكنها فيما بدا لهم لا تحمل روح الكلام الموحى به من الله ، لأنها تناقض التوراة في بعض الأحيان، وكتب الأنبياء المعتبرين في أحيان أخرى. لا سيما إذا كان آباء الدين الأقدمون قد حرّموا قراءتها.

٢ ـ النصوص التي كتبت بعد انتهاء عهد الأنبياء ، وأمر آباء الدين الأقدمون بعزلها وإيداعها في مخازن تخفيها عن أعين الجمهور ، وهي التي يسمونها « النصوص المخفية » أو المخزونة .

٣ ـ النصوص التي تعالج فترة من التاريخ الإسرائيلي هي على وجه اليقين متأخرة عن عصر الأنبياء ، والعصر الذي تمت فيه نسخة العهد القديم الرسمية ، ومن ذلك سفر « المكابيين » الأول والثاني . وهذه الطائفة من النصوص تسمى عند اليهود باسم « الكتابات المتأخرة » .

٤ ـ النصوص الأسطورية التي تتضمن رموزاً وصوراً خيالية وقصصاً مستقبلية خاصة بفناء هذا العالم ، ومن أشهر أمثلتها سفر « حنوك » أو « أخنوخ » .

٥ ـ الأسفار الأدبية والحكمية والفلسفية الكثيرة التي لا تمت إلى الدين بصلة ، ولكن رواها بعض اليهود وقيدوها إعجاباً بقيمتها الأدبية .

٦ ـ النصوص التي انفردت بروايتها وكتابتها طوائف منشقة على

اليهودية الرسمية ، وحرم علماء الشريعة اليهودية استعمالها أو قراءتها أو الرجوع إليها .

وهذه النصوص غير القانونية هي :

أ ـ كتابات تاريخية مثل سفر المكابيين الأول والثاني ، وأسفار النبي عزرا غير القانونية التي توجد في الترجمة اللاتينية « الفُولْجَاتَا » ولا توجد في المسُورِتْ العبرية، وكذلك زيادات وتكميلات مضافة إلى سفر أخبار الأيام وسفر دانيال ، وبخاصة قصة سوسن العفيفة ، وقضاء دانيال ، وسفر إستير .

ب ـ نصوص عقائدية ضد عبادة الأصنام ، وفي بيان قدرة الله ومعجزاته التي تظهر على أيدي أوليائه ، ومن أشهر ذلك سفر يهوديت ، وسفر طوبيا ، وسفر المكابيين الثالث ، ووصايا الآباء إبراهيم وإسحٰق ويعقوب والأسباط الاثني عشر وأيوب وموسى وسليمان . . . إلى آخره .

وإلى جانب الكتاب المقدس اليهودي ، ظهرت بين اليهود على مدى عصورهم نصوص مقدسة أخرى أشهرها « المشنا » و « الجمارا » ، الأولى بالعبرية والثانية تفسير لها باللغة الآرامية ، ومن كليهما معاً يتألف الكتاب الذائع الصيت المعروف في العالم باسم التلمود . وسنحاول في الصفحات التالية أن نعرّف بهما بما يوضح وضعهما التاريخي والفكري في الأمة الإسرائيلية وتطور الفكر الديني لديها .

١ ـ المِشْنا (أو المِشْنَة)

هي مجموعة من الشرائع اليهودية المروية على الألسنة ، والتي كان اليهود ـ وما يزالون ـ يعتبرونها مصدراً من مصادر التشريع يأتي في المقام الثاني بعد التوراة مباشرة ، ويظنون أنها ترتفع هي أيضاً إلى سيدنا موسى ، بالرغم من أننا بيّنا أن التوراة نفسها ـ في شكلها الحالي ـ لا تربطها بموسى إلا علاقة ضعيفة جداً . ولذلك فإنهم يسمون المشنة « التوراة الشفوية » .

ومن المؤكد أن المحاولات الأولى لرواية شرائع المشنة وتقييدها لم تبدأ إلا بعد السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد بزمن طويل . وقد ظلت هذه الشرائع تروى بلا رقيب ولا حسيب ، وتسودها الفوضى الكاملة إلى القرن الأول قبل المسيح . يقول « ميلتسينر »[١] : إن أول جهد بذل لإقرار شيء من النظام والمنهج في تلك الكتلة المختلطة من المرويات هو الذي قام به الإمام اليهودي «هِلِيل» رئيس المجلس الديني الأعلى « السنهدرين » في أيام هيرودس ، أمير اليهود الذي ولد المسيح في زمانه . فهذا الإمام هو الذي خطط تقسيم هذه المرويات إلى أقسامها الستة المعروفة . ثم جاء من بعده إمام آخر هو « عقيبا » فنظم بعض التفاصيل الجزئية في داخل هذه الأقسام الستة . وجاء من بعده الإمام « مِئِير » فأكمل نصوص المشنة وأضاف إلى نظامها مزيداً من الإحكام . أما الذي قيدها كتابة في وضعها الذي نعرفه فهو الإمام « يهودا هَانَاسِيء » ، وكان ذلك حوالي نهاية القرن الثاني بعد الميلاد .

---

(١) Moses Mielziner; Introduction to the Talmud, 3d edition, New York 1925; p.4.

ولم يكن عمل يهودا هاناسِيء مجرد تبويب وتنظيم ، بل إنه أكمل المرويات وقام بعملية تمحيص وتدقيق طرد بموجبها من المشنة مجموعة من النصوص ، تعتبر بالنسبة لها مثل « الأبوكريفا » للكتاب المقدس ، وهي النصوص التي يسميها اليهود « البَرَايتا » ، أي « البرانية » أو « الخارجة » .

منذ هذا الوقت أصبحت هذه المجموعة من النصوص والشرائع تسمى « مشنة الربي يهودا » تمييزا لها عن محاولات عقيبا ومئير .

ومع كل ذلك ما يزال علماء اليهود حتى الآن يشُكون في أن يكون الربي يهودا قد قيد المشنة بالكتابة ، ويعتمدون في ذلك على نصوص جاءت في التلمود تبدو صريحة في النهي عن كتابتها كقوله : « إن الأمور التي تُرْوَى مشافهةً ليس لك الحق في إثباتها بالكتابة » - (التلمود ، جيطين ٦٠/ب - تمورا ١٤/ب) . وممن قال بهذا الرأي من القدماء الجأون شريراً ، والعلامة رَشِّي ؛ ومن المحدثين لوتساتو ، ورابوبورت ، ويوست ، وجريتس ، وليوبولد لويف ، وغيرهم . ولكن الرأي المعتمد عموماً هو أن يهوداً قد كتب المشنة بأكملها ، وممن قال به قديماً صمويل هاناجيد ، والربي نسيم ، وإبراهيم بن داود ، وموسى بن ميمون . ومن المحدثين جايجر ، وفرانكل ، وليبرخت ، وفايس ، وغيرهم .

تقسيم المشنا :

تنقسم المشنة كما قلنا إلى ستة أقسام ، يتضمن كل منها أبواباً فرعية على النحو التالي :

أ - كتاب « زراعِيم » أي البذور ، أو الإنتاج الزراعي . ويتضمن القوانين الدينية الخاصة بالأرض والزراعة ، ويبدأ بتحديد الصلوات المفروضة والبركات أو الأدعية .

ب - كتاب « مُوعِدْ » أي العيد ، وهو الذي يحتوي على الأحكام الدينية والفرائض الخاصة بالسبت وبقية الأعياد والأيام المقدسة

جـ - كتاب « ناشِيمْ » أي النساء ، وفيه النُظُم والأحكام الخاصة بالزواج والطلاق .

د ـ كتاب « نِزِيقِين » أي الأضرار ، ويحتوي على جزء كبير من الشرائع المدنية والجنائية ، بما في ذلك القصاص والعقوبات والتعويضات .

هـ ـ كتاب « قُدّاشِيم » أي المقدسات ، ويحتوي على الشرائع الخاصة بالقرابين وخدمة الهيكل .

و ـ كتاب « طَهَارُوت » أي الطهارة ، وفيه الأحكام الخاصة بما هو طاهر وما هو نجس وما هو حلال وما هو حرام من المأكولات والمشروبات وغيرها .

وكل قسم من هذه الأقسام يحتوي بدوره على عدة فصول ، بحيث يكون مجموع هذه الستة أقسام كلها ثلاثة وستين فصلاً ، ترتيبها كما يلي :

أ ـ كتاب زراعيم ـ [الزروع] ، [البذور] :

يحتوي على أحد عشر فصلاً هي :

١ ـ بِرَاخُوت ، أي البركات ويتضمن أحكام الصلاة والعبادة .

٢ ـ فِئَة[١] ، ومعناها بالعبرية الركن أو الزاوية أو الناصية ، وفيه الأحكام الخاصة بالحصاد وجني الثمار ، وترك ما يتبقى منها في أركان الحقل ليلتقطه الفقراء ، حسب ما جاء في التوراة ، لاويين ١٩/٩ ، ١٠ والتثنية ١٩/٢٤ ، ٢١ .

٣ ـ دماي ، ومعناها ما فيه شبهة ، ويهتم بأحكام شراء الحبوب من فلاحين يشتبه في أنهم لم يدفعوا عنها زكاة العُشر .

٤ ـ كِلَائِيمْ ، ومعناها المخلوطات ، وتتضمن أحكام النهي عن خلط النبات أو الحيوان عند الإنتاج أو البيع ، حسب ما جاء في اللاويين ١٩/١٩ ، والتثنية ٩/٢ ، ١١ .

٥ ـ شِبِيعِيتْ ، أي السنة السابعة ، وهي سنة العتق والراحة ، حسب

(١) مثل هذه الفاء تنطق بالعبرية باء ثقيلة « p » ويكون لفظ هذه الكلمة « péa » .

ما جاء في الخروج ٢٣/١١ ، واللاويين ٢٥/٢ ـ ٧ ، والتثنية ١٥/١ ـ ١١ .

٦ ـ ترُومُوت ، أي جراية الكهنة ، كما جاء في سفر العدد ١٨/١٢ .

٧ ـ معسرُوتْ ، أي العشور وهي الزكاة التي تقدم للكهنة اللاويين ، حسب ما جاء في اللاويين ٢٧/٣٠ ـ ٣٣ والعدد ١٨/٢١ ـ ٢٤ .

٨ ـ مَعْسَرْشِينِي ، أي العُشر الثاني في الزكاة ، حسب التثنية ١٤/٢٢ ـ ٢٦ .

٩ ـ حَلَّةْ ، ومعناها العجين ، ويختص بزكاته التي تقدم للكهنة ، حسب سفر العدد ١٥/٢٠ ، ٢١ .

١٠ ـ عُرْلَة ، ومعناها في الأصل عدم الاختتان ، وهو يختص بثمار الشجر في السنين الأربع الأولى بعد غرسها ، طبقاً للاويين ١٩/٢٣ ـ ٢٥ .

١١ ـ بكوريم ، أي البواكير ، وهي الثمار الأولى التي يجب إهداؤها للمعبد، حسب سفر التثنية ٢٦/١ ، ١١ .

ب ـ كتاب موعد ـ [الموعد] ، [الموسم]:

يحتوي على اثني عشر فصلاً هي :

١ ـ شبّات ، أي السبت وما يحرم فيه من الأعمال .

٢ ـ عرُوبين ، ومعناها التوصيلات ، وهو يختص بتحديد الانتقال من مكان إلى مكان يوم السبت .

٣ ـ فِسَحِيم[1] ، أي عيد الفصح ، وأحكام خروف الضحية .

٤ ـ شِقَالِيم ، ومعناها المثقال من الفضة ، ويختص بأحكام زكاة نصف المثقال من الفضة الواجبة لكهنة المعبد على كل فرد من اليهود ، حسب ما جاء في سفر الخروج ٢٠/١٢ ـ ١٦ .

---

(١) الفاء هنا ثقيلة « p » .

٥ ـ يُوما ، ومعناه اليوم ، وهو عيد التطهير حسب اللاويين ١٦/٣ ـ ٣٤ .

٦ ـ سُوكَه ، وهو عيد المظلات ـ لاويين ٢٣/٣٤ ـ ٣٦ .

٧ ـ بِيصَه ، أو يوم طوب ، والكلمة الأولى معناها البيضة ، وبها يبدأ هذا الفصل ، ويحتوي على ما يحرم ويحل في الأعياد حسب سفر الخروج ١٢/١٦ . ويوم طوب معناها العيد .

٨ ـ روش هاشاناه ، أي رأس السنة .

٩ ـ تَعَنِيتْ ، أي الصيام .

١٠ ـ مِجِلَّه، وفيه أحكام قراءة سفر إستير في عيد بوريم، الذي يسميه العرب عيد المساخر، لما تعوده اليهود فيه من السكر والرقص بأزياء تنكرية من نوع الكرنفال .

١١ ـ مُوعِد قَاطُون ، أي العيد الصغير ، ويختص بأحكام الأيام الواقعة بين عيد الفصح وعيد المظلات .

١٢ ـ حَجِيجَة ، ومعناها الحج ، وأحكام هذا العيد كما في التثنية ١٦/١٦ ، ١٧ ، وما يجب بهذه المناسبة من تقدمات وقرابين للهيكل والكهنة .

ج ـ كتاب ناشيم ـ [النساء] :

يحتوي على سبعة فصول هي : ـ

١ ـ يِبَامُوتْ ، وهذه الكلمة جمع مؤنث في اللغة العبرية ، مفردها « يبَامَهْ » وهي امرأة الأخ المتوفى التي يجب على أخيه الباقي على قيد الحياة الزواج بها .

٢ ـ كُتُوبُوتْ ، ومعناها كتابات عقود الزواج ، وفيه كل الخطوات القضائية والحقوق والواجبات المتعلقة بذلك .

٣ ـ نِدَارِيم ، « النذور » ، ويختص بأحكامها وشروط التحلل منها .

٤ ـ نازِير ومعناها الشخص الذي صدر بحقه نذر لخدمة المعبد .

٥ ـ سُوطَة ، وهي كلمة تعني المرأة المتهمة بخيانة زوجها وارتكاب جريمة الزنا .

٦ ـ جيطين ، وهو الطلاق ، بشروطه وأحكامه .

٧ ـ قِدُوشِين ، ومعناه تكريس المرأة وحجزها للتزوج بها ، وهو ما نسميه الخطبة ، وفيه بيان لما يترتب على الخطبة من حقوق وواجبات .

د ـ كتاب نزيقين ـ [الأضرار] ، [الجنايات] :

وهو يحتوي على عشرة فصول هي : ـ

١ ـ بَابَا قَامَا ، ومعناها الباب الأول ، وهو يختص بالجنايات والتعويض عنها ومعالجتها ، معتمد على الخروج ٢١/٢٨ ـ ٣٧ ، ٢٣/١ ـ ٥ .

٢ ـ بابا مِصِيعَا ، أي الباب الأوسط ، وتفصل فيه أحكام الممتلكات التي لا صاحب لها ، والأمانات ، والبيع والشراء ، والديون ، والإيجار .

٣ ـ بابا بَاثْرَا ، أي الباب الأخير ، وفيه أحكام الممتلكات والتجارة والمواريث .

٤ ـ سَنَهْدِرِين ، أي المحَاكم ، ويختص بقواعد تكوينها وإجراءاتها والعقوبات التي تصدرها في الجرائم الكبرى .

٥ ـ مَكُّوت، ومعناها الضربات، وهو خاص بالعقوبات التي تقع على شهود الزور ، والأحكام الخاصة ببعض الجرائم الأخرى .

٦ ـ شُبوعُوت، ومعناها أنواع اليمين والقسم، وهي هنا تحدَّد بأحكامها سواء كانت بين الأفراد أم في المحاكم .

٧ ـ عُدُويُوت ، ومعناها الشهادات ، وفيها أحكام الشهادة وما يتصل بأدائها ، وما يجب في الشهود .

٨ ـ عَبُودَة زَارَه ، ومعناها العبادة الأجنبية أو الغربية ، والمقصود بها ديانات الكفر وعبادة الأصنام ، وأحكام ذلك في المجتمع اليهودي .

٩ ـ ابُوت ، ومعناه الآباء ، ويسمى أيضاً « فِرقي آبوت »[١] أي فقرات الآباء ، ويعنون بذلك الحِكم والأحكام الدينية والأخلاقية التي نطق بها الآباء ، وهم القدامى من رؤساء الدين ، واتبعها اليهود بعدهم . وهو باب مهم يلخص العقائد والسلوك العام المطلوب من اليهودي أن يعيها وينفذها في حياته الخاصة والعامة .

١٠ ـ هُورَايُوت ، ومعناه التعاليم ، وهو يختص بالفتاوي التي يفتي بها في الدين عالم من علماء اليهود خصوصاً إذا كان فيها خطأ ، وأحكام ذلك .

هـ ـ كتاب قداشيم ـ [المقدسات]:

ويحتوي على أحد عشر فصلاً هي : ـ

١ ـ زِبَاحِيم ، ومعناها الذبائح ، وهي القرابين من الحيوانات تُقدم ضحية في المناسبات الدينية المختلفة .

٢ ـ مِنَاحُوت ، ومعناها التقدمات أو المِنح ، وهي ما يُقدم في المعبد من الطعام والخمر حسب ما جاء في الإصحاح الثاني من سفر اللاويين .

٣ ـ حُلِين ، (بضم الحاء) ، وهو يتصل بالحلال من المأكولات في الحياة العامة ، ولا سيما الحيوانات المباحة للأكل ، والطريقة الشرعية لذبحها ، وبعض الأحكام الخاصة بالطبخ ، وتناول الأطعمة المختلفة .

٤ ـ بِكُورُوتْ، وهو يختص بالأحكام المتعلقة بالمواليد البكر، أي أول مولود يأتي للإنسان أو للحيوان ، حسب سفر الخروج ١٨/١٢ ، ١٣ ، والعدد ١٨/١٥ ـ ١٧ .

٥ ـ عَرَاكِين ، ومعناه التقديرات والتحديدات الخاصة بقيمة الأشياء أو الأشخاص . وهو يسوق الشرائع الخاصة بفدية من يُنْذَرُون لخدمة الدين أو

(١) الفاء « p » ثقيلة .

يقدمون للمعبد، وطريقة التعويض عنهم إذا أريد سحبهم إلى الحياة المدنية ، يستوي في ذلك الأشخاص أو الحيوانات ، حسب ما جاء في اللاويين ٢٧/٢ ـ ٢٧ .

٦ ـ تِمُورَه ، ومعناها البدل ، ويتناول الأشياء المكرسة للاستعمال الديني إذا ما أبدلت بغيرها .

٧ ـ كِرِيتُوتْ ، ومعناها أنواع الْقطعْ والبَترْ والاستئصال ، وهو يختص بالذنوب التي يترتب عليها الحكم بذلك على مرتكبها ، وما يجب للتكفير عنها من قرابين . والقطع هو الخلع والطرد من الدين .

٨ ـ مِعِيلَـه ومعناها التدنيس والتنجيس . ويختص بالذنوب المتعلقة بالتعدي على المقدسات أو تدنيسها ، حسب ما جاء في اللاويين ١٥/٥ ، ١٦ .

٩ ـ تاميد ، ومعناها الدوام ، وهو خاص بالطقوس اليومية للقربان في المعبد في الصباح والمساء(١) . حسب ما جاء في الخروج ٣٨/١٩ ـ ٤١ والعدد ٢/٢٨ ـ ٨ .

١٠ ـ مِدوّت ، ومعناها المقاييس والمعايير ، وهو خاص بالأبعاد التقليدية للمعبد وتقسيمه المعماري وما فيه من ساحات وبوابات وقاعات ، وما يلزمه من حراسة وخدمة كهنوتية .

١١ ـ قِنِيّم ، وهي كلمة معناها أوكار الطيور . وهو فصل خاص بالضحية التي يقدمها الفقراء للكهنة من الطيور والدواجن ، حسب سفر اللاويين ١٤/١ و ٧/٥ و ٨/١٢ .

و ـ كتاب طهاروت [الطهارة] :

ويحتوي على اثني عشر فصلاً هي : ـ

---

(١) وأهم ما في ذلك تقديم ذبيحة في الصباح وأخرى في المساء ، وإحراقهما على المذبح ، وتسمى هذه الذبيحة : المحرقة أو الصعيدة .

١ - كِلِيمْ ، ومعناها الأوعية والأدوات ، وهو يختص بأحكام الأوعية والأدوات المنزلية والملابس، والشرائع الخاصة بطهارتها ونجاستها .

٢ - أُوهَلُوتْ ، أي المساكن ، وفي أحكام طهارتها ونجاستها أيضاً .

٣ - نِجَاعِيم ، والأصل في معناها أنها اللمس والمس بأنواعه . وفيه أحكام مرض الجُذَام والمصابين به وملابسهم ونحو ذلك ، حسب اللاويين ١٣ و ١٤ .

٤ - بَاره[1] ، ومعناها البقرة ، وهي الأحكام الخاصة بالبقرة الحمراء ، التي يضحى بها وتحرق ويستعمل رمادها في التطهير من النجاسة أو الدنس ، (وهي التي أشار إليها القرآن الكريم في سورة البقرة) حسب سفر العدد ١٩ .

٥ - طَهَرُوتْ ، أي التطهير ، وهو يختص ببعض النجاسات الصغيرة التي تدوم مدة نهار واحد على الأكثر ، حسب سفر اللاويين ١١/٢٤ - ٢٨ .

٦ - مِقْراؤوت ، أي الآبار ، ويتناول أحكام المياه في الآبار والمستودعات ، من حيث ما يحل منها وما يحرم في الطهارة الدينية .

٧ - نِدّة ، وهي كلمة معناها « الحيض » ، وفيه أحكام النجاسة التي تطرأ على النساء في بعض ظروفهن ، حسب اللاويين ١٥/١٩ - ٣١ ، ١٢/٨ - ٨ .

٨ - مَكْشِيرين ، ومعناه الإعداد الديني لبعض الحبوب والفواكه والثمار ، والشروط الواجبة لتجنب تنجيسها .

٩ - زَابِيم ، ومعناها النزيف بأنواعه ، ويتناول السوائل التي تنزف من بعض الناس في حالات مرضية خاصة ، وما إليها من الإفرازات المختلفة ، وأحكام نجاستها .

١٠ - طِبول يُومْ ، ومعناه الغطاس بالنهار ، ويتناول أحكام الاغتسال

(١) باء تنطق (p) ثقيلة .

للطهارة أثناء النهار ، خصوصاً لمن هو مطالب بالطهارة ابتداءً من غروب الشمس فقط .

١١ ـ يَدَايِمْ ، أي الأيدي ، وأحكام طهارتها ونجاستها .

١٢ ـ عُوقْصِين ، والكلمة معناها فضلات الثمار ، وهي الأعناق والألياف والقشور ، من حيث طهارتها أو نجاستها في الدين .

٢ ـ ملحقات المشنا

إلى جانب المشنا التي فرغنا الآن من تفصيل أقسامها ، والتي كُتِبَتْ كلها بعبرية متطورة بالنسبة لعبرية العهد القديم ، تسمى عند اليهود « لغة الأئمة » أو « لغة الحكماء » ، توجد نصوص متصلة بالمشنا وليست منها ، ومع ذلك فإن التلمود يذكرها ، وعلماء الشريعة اليهودية يرجعون كثيراً إليها ، وهي :

أ ـ التوسفْتا ، ومعناها التذييل أو الزيادة أو الإضافة . وهي عمل تشريعي ملحق بالمشنا ومكمل لها .

وتحتوي التوسفتا على ستين فصلاً تتضمن أربعمائة واثنتين وخمسين فقرة ، ويعزى كثير منها إلى أحبار اليهود الأولين المعاصرين للمشنا مثل عقيبا ومائير، ونحميا، كما توجد فيها نصوص ترجع إلى ما بعد الربي يهودا هناسيئ حتى عصور كتابة التلمود. ويبدو أنها في شكلها الحالي ترجع إلى القرن الخامس أو السادس الميلادي[١] .

ب ـ المِخِيلْتَا ، وهي كلمة آرامية معناها « المعيار » أو « المكيال » أو « الوعاء » . وهي تتضمن تسعة أبواب ، تعالج فيها أحكاماً شرعية موجودة في نص الكتاب المقدس . وتنسب إلى الربي إسماعيل ومدرسته . وكانت قد جمعت في فلسطين ثم نقلت إلى العراق (بابل) حيث تنوعت تفاسيرها

---

(١) M.Mielziner; Op.Cit. .

هناك . وهي بشكلها الذي نعرفه ترجع إلى القرن الرابع أو الخامس الميلادي .

جـ ـ السفرا، وهو نص يسمى أيضاً « توراة الكهنة » وأسلوبه يختلف عن سابقيه بما يسوده من الجدل ، ويرد ذكره كثيراً في التلمود . وهـو ينسب في الأغلب إلى الربي يهودا بن إيلاي ، أحد تلاميذ عقيبا . ولكن دخلته إضافات مع مضي الزمن من علماء آخرين أشهرهم « أبا أريكا »[1] .

د ـ سفري ، وهو كتاب فقهي يتناول شرح سفر العدد ابتداءً من إصحاحه الخامس وكل سفر التثنية ، ففيما يتصل بالقسم الأول يحتوي على مائة وواحد وستين حكماً ، وفي الثاني ثلثمائة وسبعة وخمسين حكماً . ويقول التلمود إن الأجزاء غير المسندة إلى عالم معروف باسمه في هذا الكتاب مروية عن الربي شمعون بن يوحاي أحد كبار تلاميذ عقيبا . (سنهدرين ٨٦/أ) .

هـ ـ البرايْتَا، ومعناها الكتاب البراني أو الخارجي ، وهو يجمع شرائع من عهد التلمود ، يبدو أن بعضها كان يُروى من ضمن المشنا ، ولكن الحَبْر يهودا هناسيء رفضه ، فجمع ما بقي منه في هذا الكتاب .

ونص المشنا يرجع بعضه إلى أيام المكابيين كما قلنا ، وهي الفترة التي يسميها مؤرخو الفكر اليهودي بعصر الكتبة (سوفريم) ويجعلونها تبدأ من عزرا مباشرة ، ويسمون طلائع هذا العصر : « رجال الكنيسة الكبرى » الذين يقال إن عددهم كان مائة وعشرين عضواً ، جمعهم لأول مرة شمعون الأول المكابي الملقب بالعادل (٣١٠ ـ ٢٩٢ ق.م) ، أو حفيده شمعون الثاني (٢٢٠ ق. م.).

يلي عصر السوفريم أو الكتبة طور آخر من أطوارتكوين المشنا يسمونه حقبة الأزواج ، لأن علماء الشريعة اليهودية كانوا في أثنائها يتعاقبون اثنين اثنين على النحو التالي : ـ

---

(١) سيرد في موضعه من طبقات رواة الشرائع اليهودية .

١ - يُسَايْ بن يُوعِزِر ويوساي بن يوحنان ، وعاشا في أيام حروب المكابيين الأولى[1] .

٢ - يوشع بن فرحيا ونِيَتَايْ الأَرْبِلِي ، وهما معاصران للمكابي يوحنا وهيرقانوس[2] .

٣ - يهودا بن طَابَايْ وشِمْعُون بن شَطَح ، وقد عاصرا الأمير المكابي اسكندر ياناي والملكة سالومي[3] .

٤ - شِمَعْيَا وأَبْطَالْيُون ، وقد عاشا في عهد هيرقانوس الثاني[4] .

٥ - هليل وشَمَّاي ، من أيام الملك هيرودس[5] .

تتوالى بعد ذلك طبقات فقهاء المشنا على أجيال تتلخص فيما يلي : -

أ - الطبقة الأولى ، وتمتد من سنة ١٠ إلى سنة ٨٠ ميلادية[6] وتتردد فيها أسماء :

١ - تلاميذ هليل وتلاميذ شماي .

٢ - عقبيا بن مَهَلَلْئِيل .

٣ - الرِّبِّي جَمْلِيئيل الكبير .

٤ - الرِّبِّي حنانيا كبير الكهنة .

٥ - الرِّبِّي شمعون بن جَمَالْئِيل .

٦ - يوحنان بن زكاي .

---

(١) أي في منتصف القرن الثاني قبل الميلاد .
(٢) أي في منتصف القرن الأول قبل الميلاد .
(٣) النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد .
(٤) النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد .
(٥) قبيل ميلاد المسيح أو في نفس هذا الوقت تماماً .
(٦) أي إلى تمام تخريب الهيكل اليهودي الثاني وتشريد اليهود في أرجاء الأرض على يد الامبراطور الروماني تيتوس ، سنة ٧٠ ميلادية .

ب ـ الطبقة الثانية من « التَنَّئِيم » ـ أي رواة المشنا ، ٨٠ ـ ١٢٠ ميلادية :

١ ـ رَبَّانْ جَمَالْئِيل الثاني ، من مدرسة « يَبْنَه » .

٢ ـ الرِّبِّي صَدُوق .

٣ ـ الرِّبِّي دُوساً .

٤ ـ الرِّبِّي إليَعزَر بن يعقوب .

٥ ـ الرِّبِّي إليعزر بن هيرقانوس .

٦ ـ الرِّبِّي يوشع بن حنانيا .

٧ ـ الرِّبِّي إلعازار بن عزاريا .

٨ ـ الرِّبِّي يهودا بن باثيرا .

جـ ـ الطبقة الثالثة من ١٢٠إلى حوالي ١٣٩ ميلادية ، وفيها :

١ ـ الرِّبِّي طَرْفُون .

٢ ـ الرِّبِّي إسماعيل .

٣ ـ الرِّبيّ عقيبا .

٤ ـ الرِّبِّي يوحنان بن نوري .

٥ ـ الرِّبِّي يُوسَايْ الجَليلي .

٦ ـ الرِّبِّي شمعون بن نَانُوس .

٧ ـ الرِّبِّي يهودا بن بابا .

٨ ـ الرِّبِّي يوحنان بن بروكا .

د ـ الطبقة الرابعة من ١٣٩ إلى حوالي ١٦٥ ميلادية، ومعظمها من تلاميذ الرِّبِّي عقيبا وفيها :

١ ـ الرِّبِّي مئيـر.

٢ ـ الرِّبّي يهودا بن إيلاي .

٣ ـ الرِّبّي يوساي بن حَلَفْتا .

٤ ـ الرِّبّى شمعون بن يوحَايْ .

٥ ـ الرِّبّى إلعازار بن شَمُوعَ .

٦ ـ الرِّبّي يوحنا الإسكافي[1] .

٧ ـ الرِّبّي إلعازار بن يعقوب .

٨ ـ الرِّبّي نحميا .

٩ ـ الرِّبّي يوشع بن قرحا .

١٠ ـ الربّي شمعون بن جمالئيل.

هـ ـ الطبقة الخامسة من ١٦٥ إلى ١٠٠ ميلادية وأشهرها:

١ ـ الرِّبّي ناثـان البابلي .

٢ ـ سيماخوس .

٣ ـ الرِّبّي يهودا هناسيء (الكبير) ، ويسمونه باختصار « رَبّى » .

٤ ـ الرِّبّي يوساي بن يهودا .

٥ ـ الرِّبّي إلعازار بن شمعون .

٦ ـ الرِّبّي شمعون بن إلعازار .

و ـ الطبقة السادسة والأخيرة من (التنائيم) ومعظمهم من الشباب المعاصرين ليهودا هناسيء ومن تلاميذه وهم غير مذكورين في المشنا ولكن أسماءهم ترد في التوسفتا والبرايتا ، وأشهرهم :

١ ـ فِلِيمُون .

---

(١) الصندلار ، كما يسميه اليهود .

٢ ـ إيسي بن يهودا .

٣ ـ الرِّبِّي إلعازار بن يوساي .

٤ ـ إسماعيل بَرْيوسَاي .

٥ ـ يهودا بن لاكيش .

٦ ـ حِيًّا .

٧ ـ آخا .

٨ ـ أبا أريكا ، واشتهر باسمه المختصر « أَبَا » فقط .

٣ ـ التلمود

عندما انتهى الرِّبِّي يهودا هناسيء من تقييد نص المشنا في صورته النهائية السالفة الذكر ، تركزت جهود العلماء اليهود على شرحها في مراكز تجمعهم التقليدية في العراق ، حيث استمر تجمعهم هناك كجالية أجنبية ، منذ السبي البابلي . كما ظهر لهذا النص شراح في فلسطين من فلول اليهود التي بقيت هناك بعد السبي ، أو بعد الأحداث الكثيرة التي توالت على فلسطين ، كما أن كثيراً من هؤلاء اليهود كانوا قد جاؤوا إليها متسللين ، للحج أو الزيارة أو الإقامة ، بحسب الظروف .

وكانت مراكز البحث العلمي والديني في العراق موزعة على ثلاث نقط هي : نهر دعة ، في إقليم ما بين النهرين بشمال العراق ، إلى الجنوب الشرقي من مدينة الرُهَا ، وبلدة سُورة القريبة من بغداد في إقليم الجزيرة بوسط العراق ، ثم ظهرت أخيراً قاعدة ثالثة للنشاط اليهودي التلمودي في العراق بالقرب من سُورة ، في مدينة عَانَة التي كانت تسمى قديماً فومباديثا[1] .

أما في فلسطين فكانت هناك مراكز ثلاثة أيضاً، في شمال البلاد هي : طبرية، وقيسارية، وصفورية، وهو الاسم الدارج الآن للبلدة التي كانت على أيام اليونان تسمى «سفوريس».

في هاتين الناحيتين من الشرق الأوسط بدأت طبقات متعاقبة من أحبار

(١) Pumpaditha .

اليهود تشرح نص المشنة ، شرحاً مستفيضاً ، تودع في خلاله كل ما أرادت الاحتفاظ به وإشاعته بين اليهود من شرائع وفتاوي وحكايات وأساطير وخرافات وتفريعـات واستطرادات ، في كل علم وفن دون ترتيب أو تخطيط .

وهذا الشرح للمشنة كان يتم بلهجة يهودية بعيدة عن اللغة العبرية القديمة التي كتب بها العهد القديم ، وعن تلك اللغة العبرية الوسطى المتطورة التي كتبت بها المشنا . كان شراح المشنا الذين هم أحبار التلمود يشرحونها بلهجة أرامية يهودية قريبة من اللغة السريانية . وكان شرحهم يسمى « جمارا » بمعنى التكملة، كما أنهم يسمون في تاريخ تطور الفكر اليهودي باسم خاص بهم هو « أمورائيم » ومعناها في لغتهم « المتكلمون » أي الذين انطلقت ألسنتهم في المدارس المختلفة السابقة الذكر شارحين ومعلقين وباسطين ، في ما يشبه المحاضرات الشفوية ، التي ينصت إليها التلاميذ ليصبحوا بدورهم ، عندما يصلون إلى النضح العلمي ، طبقة أخرى من الأمورائيم . وعلى ذلك فإن طبقات « الأمورائيم » هي الاستمرار الديني والفكري في ظل الجمارا لطبقات «التنائيم» في ظل المشنا، ومن نص المشنا ـ وهو عبري كما قلنا ـ ونص الجمارا ـ وهو أرامي يهودي ـ يتكون ما يسمى بالتلمود .

وقد تبين لنا مما تقدم أنه منذ تقييد المشنا ، بدأ شرحها « الجمارا » في بيئتين مختلفتين ومستقلتين هما فلسطين غرباً والعراق شرقاً . وقد أدى ذلك إلى ظهور تلمودين اثنين لا واحد : التلمود الغربي ، وهو الذي يسمى التلمود الأورشليمي ، تمسحا في مدينة القدس وتبركاً به ، والتلمود الشرقي ، وهو الذي يسمى التلمود البابلي ، تذكيراً بقوة البحث الديني في العراق منذ السبي البابلي على أيام بختنصر ، ولأن العراق كانت منذ ذلك الوقت تسمى عند اليهود « بابل » .

وإذا كان التلمود البابلي يغطي بشرحه كل نص المشنا ، فإن التلمود الأورشليمي ظل ناقصاً لا يشرح إلا بعض المشنا فقط . ثم إن أحبار اليهود

في بابل كانوا أيضاً يحظون بثقة أرسخ من ناحية التبحر في الفكر اليهودي مما كان يحظى به شراح فلسطين ، بحيث بقي التلمود البابلي بعد ذلك يتمتع بتقدير أعظم في أعين اليهود من التلمود الغربي أو الأورشليمي .

وقد شرح التلمود الأورشليمي الثلاثة كتب الأولى من المشنا بتمامها : زراعيم ، وموعد ، وناشيم . كذلك شرح هذا التلمود الكتاب الرابع نزيقين ـ ما عدا الجزء السابع ـ عُدويوت أي الشهادات ـ والجزء التاسع آبوت أي الآباء ـ ولم يشرح شيئاً من الجزأين الخامس والسادس ، فيما عدا فصلاً واحداً من الجزء السادس ، هو الخاص بأحكام الحيض عند النساء والذي يسمى نِدّة ، (بكسر النون) .

إلى جانب ذلك نلاحظ أن طبقات الأموراثيم في العراق «بابل» كانت أطول زمناً من طبقات الأموراثيم في فلسطين . ففي بابل تغطي طبقاتهم المدة من سنة ٢١٩ ميلادية إلى سنة ٥٠٠ ميلادية ، في حين أن طبقات الفلسطينيين لا تغطي إلا الفترة ما بين ٢١٩ ميلادية و ٣٥٩ ميلادية .

وسنذكر هذه الطبقات بترتيبها فيما يلي :

طبقات أحبار التلمود [الأموراثيم] في فلسطين :

أ ـ الطبقة الأولى (٢١٩ ، ٢٧٩) .

١ ـ حنينا برحاما ، (ولد سنة ١٨٠ وتوفي سنة ٢٦٠ تقريباً) .

٢ ـ يوحنا برنفاحا ، أي ابن النفاخ يعني الحداد (١٩٩ ـ ٢٧٩ تقريباً) .

٣ ـ شمعون بن لقيش ، وشهرته « ريش لقيش » .

٤ ـ يوشع بن ليفي ، وهو يكثر القصص والأساطير في شرحه ، من « اللدّ » .

ب ـ الطبقة الثانية (٢٨٩ ـ ٣٢٠) .

١ ـ إلعازار بن فدات .

٢ ـ آمي ، وكان يعلّم في طبرية .

٣ ـ آسي ، وكان كسابقه يعلم في طبرية .

٤ ـ حِيا (بكسر الحاء) بر أبا.

٥ ـ شمعون بر أبا ، ويعتقدون أنه أخو سابقه ، وكانا فقيرين جداً .

٦ ـ أباهو ، علّم في قيسارية ، وكان متبحراً في علوم اليونان .

٧ ـ زيرا (أصل الاسم زعيرا ، أي الصغير أو القصير) وأصله من العراق .

جـ ـ الطبقة الثالثة والأخيرة في فلسطين (٣٢٠ ـ ٣٥٩).

١ ـ إرميا ، تلميذ زيرا ، وأصله من العراق أيضاً .

٢ ـ يُونا ، تتلمذ على سابقه .

٣ ـ يُوساي بن زيدا ، علّم بطبرية .

وبهذه الطبقة يقف شرح المشنا في التلمود الأورشليمي .

طبقات أحبار التلمود (الأموراثيم) في العراق (بابل) :

أ ـ الطبقة الأولى (٢١٩ ـ ٢٥٧) .

١ ـ شيلا ، علّم في نهر دعة .

٢ ـ أبّاأريكا ، المشهور بلقب « رب » ، علم في سوره.

٣ ـ مار شموئيل، علم في نهر دعة .

٤ ـ مار عُوقبا القاضي .

ب ـ الطبقة الثانية (٢٥٧ ـ ٣٢٠) .

١ ـ هونا (٢٠٢ ـ ٢٩٧) ، علم في سورة وكان كثير التلاميذ جداً .

٢ ـ يهودا بن يحزقئيل ، اشتهر بالدقة وعلم في فومبديثا ، وأخيراً رأس مدرسة سورة .

٣ ـ حسدا ، من رؤساء مدرسة سورة .

٤ ـ شِيشِتْ ، من نهر دعه ، انتقل بعد تدميرها إلى قرية شلهى .

٥ ـ نحمان بر يعقوب ، من نهر دعة .

٦ ـ ربّا بر رب حنا .

٧ ـ عولا بن إسماعيل .

جـ ـ الطبقة الثالثة (٣٢٠ ـ ٣٧٥).

١ ـ ربّا بر هونا ، في سورة .

٢ ـ ربا بن نحمان (أو نحماني ٢٧٠ ـ ٣٣٠) من فومبديثا .

٣ ـ يوسف بر حيا ، من فومبديثا .

٤ ـ أباي ، ويلقب بالنحماني ، من فومبديثا .

٥ ـ ربا بن يوسف (٢٩٩ ـ ٣٥٢) علّم في قرية محوزة .

٦ ـ نحمان بن إسحٰق ، من فومبديثا .

٧ ـ بابا (بباءين ثقيلتين) بَرْحَنّان ، أسس مدرسة في نارس بقرب سورة .

د ـ الطبقة الرابعة (٣٧٥ ـ ٤٢٧) .

١ ـ آشي ، من سورة .

٢ ـ أميمار، من نهر دعة.

٣ ـ زبيد برأوشعيا ، من فومبديثا .

٤ ـ ديمي بر حنينا ، وأصله من نهر دعة ، علّم في فومبديثا .

٥ ـ رفرام الكبير بربابا (بباءين ثقيلتين) ، من فومبديثا .

٦ ـ كاهنا بر تحليفا ، من فومبديثا .

٧ ـ مار زوطرا، من فومبديثا .

٨ ـ يهودا (مناي) بَرْ شلوم.

٩ ـ إليعازار بن يوساي .

١٠ ـ يوساي بر أبين .

هـ ـ الطبقة الخامسة (٤٢٧ ـ ٤٦٨) .

١ ـ ماريمار ، من سورة ، وأصل اسمه مار ييمار.

٢ ـ إيدي بر أبين، من سورة .

٣ ـ مار بر رب آشي ، من سورة .

٤ ـ رب آحا من سورة . وأصله من مواليد ديفتا .

٥ ـ رفرام الثاني ؛ من فومبديثا.

٦ ـ رحوماي ، من فومبديثا .

٧ ـ سما بر ربّا ، من فومبديثا .

و ـ الطبقة السادسة والأخيرة في بابل (٤٦٨ ـ ٥٠٠) .

١ ـ ربّا توسفيا ، من سورة .

٢ ـ ربّينا بر حما ، من سورة .

٣ ـ يوساي ، من فومبديثا[١] .

---

(١) الأسماء التي ذكرناها هنا هي ألمع أسماء الأمورائيم ، أما القائمة الكاملة بكل من روى خبراً أو نقل أمراً في التلمود فموجودة في مراجع كثيرة أقربها دائرة المعارف العبرية (أوتسار يسرائيل) المجلد الثاني ، تحت لفظة [أمورائيم] . وقد اعتمدنا في تقسيماتنا واختيارنا على :

M.Mielziner; Introduction to the Talmud; New York 1925 .

Z.H, Chajes; The Students Guide through the Talmud, London 1952. (English Translation by Jacob Shachter.) .

L'Abbé L.Chiarini; Le Talmud de Babylone; Leipzic, 1831.

٤ ـ ملحقات التلمود

وإلى جانب نص التلمود ، الأورشليمي والبابلي ، في صورتهما التي لخصناها ظهرت نصوص أخرى ، تنتمي إلى نفس الأسلوب تقريباً ، ولكنها لم تدخل في صميم هذا الكتاب وإنما بقيت خارجة عنه ، كأنما هي بالنسبة له نصوص برّانية أو «أوبوكريفا». ومع ذلك فمعظم هذه النصوص ينشر على أنه ملحق بطبعات التلمود الشائعة . ومن ذلك :

١ ـ آبوت ، الرِّبّي ناثان . وقد سبق أن ذكرنا فصلاً من فصول المشنا اسمه آبوت ، أو « فرقي آبوت » ، أي الآباء أو وصايا الآباء ، وهو الفصل التاسع من القسم الرابع « نزيقين » أي الإصابات ، من المشنا . أما هذا التذييل التلمودي الذي نحن بصدده الآن فيعتبر توسيعاً وتطويراً لما جاء في المشنا ، وترد فيه حكايات وقصص وأمثال كثيرة ، بحيث أصبح يتضمن واحداً وأربعين فصلاً . ونسبته إلى الرِّبّي ناثان ـ من الطبقة الرابعة من أحبار المشنا ـ مشكوك فيها .

٢ ـ سوفريم . أي الكتبة ، وهو يتضمن الأحكام الشرعية لكتابة توراة موسى وسفر إستير ، اللذين يوضعان في كل معبد يهودي . كما يحتوي على أحكام نسخ « المسُورِتْ » وهي النسخة النهائية لنص العهد القديم . كذلك يذكر شرائع التلاوة الشرعية للسبت والأعياد وأيام الصوم وباب « سوفريم » هذا يتألف من واحد وعشرين فصلاً ، ذكر الرِّبّي آشر في كتابه « هَلَكُوت سِفر تُوراه » أي : « أحكام كتاب التوراة » أنه يرجع إلى العصر التالي

للتلمود ، وهو عصر العلماء « الجأونيم »[1] .

٣ - إيبِل ربّاتي . أي الأحكام الكبرى للحداد ويسمى بين اليهود على سبيل التخفيف من حدة اسمه كتاب « سِمْحُوت » أي الأفراح . وهو في أربعة عشر فصلاً تعالج التقاليد الخاصة بالجنازة والحزن على الميت . وهذا الموضوع مبحوث في التلمود (موعد قاطون ٢٤/أ ، ٢٦/أ ، وكتوبوت ٢٨/أ) ، وهذا النص الإضافي متأخر عن عصر التلمود .

٤ - كَلَّـهْ . أي العروس ، وهو فصل واحد يفصل بعض القوانين الأخلاقية الخاصة بالزواج .

٥ - ديرِخ إيرص . أي السلوك في الدنيا ، وهو أحد عشر فصلاً ، أولها يحدد أنواع الزواج المحرمة ، وباقيها تعاليم أخلاقية واجتماعية ودينية .

٦ - ديرِخ إيرص زوطا . أي مختصر السلوك في الدنيا ، وفيه قواعد ونصائح وحكم أخلاقية تملأ عشرة فصول .

٧ - فِرق هَشَّالوم أي الفصل الخاص بالسلام ، وهو فصل واحد يعالج كاتبه أهمية المسالمة في الحياة .

٨ - إلى جانب السبعة فصول السابقة ، التي ترد في آخر التلمود تحت عنوان عام هو «مِسِخْتُوت قَطنوت » أي الأبواب الصغيرة ، عثر الباحثون على سبعة أبواب أخرى من نفس القبيل ، يحتوي عليها مخطوط قديم للتلمود ، ونشرها رفائيل كِرْشهايم في فرانكفورت سنة ١٨٥١ .

وقد كثرت الشروح والحواشي على المشنا والجمارا ، وأقبل عليها اليهود باهتمام يفوق إقبالهم على التوراة نفسها في كثير من الأحيان ، وأهم تلك الشروح والحواشي يرجع إلى العصر الإسلامي . ومن أمثلة ذلك شرح الربي حنانئيل القيرواني الذي عاش في أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ، وشرح الرِّبّي سليمان الإسحاقي (رشي) الذي عاش في « تروا » بجنوب فرنسا (١٠٤٠ - ١١٠٥ م).

(١) نفس المصادر السابقة وبخاصة ميلتسينر.

وكذلك كثرت المقدمات المؤلفة لمساعدة دارسي التلمود وأهمها ما كتبه الرِّبّي إسحٰق الفاسي المتوفى في الأندلس سنة ١١٠٣ ميلادية بعنوان « هلخوت » أي قواعد وأحكام . وكتب الرِّبّي آشر بن يحيئيل، وهو ألماني الأصل توفي في طليطلة ، بالأندلس العربية ، سنة ١٣٢٧ ، مقدمة لدراسة التلمود على غرار سابقه .

وقام كثير من علماء اليهود بمحاولات لإعادة ترتيب التلمود ، وإستخلاص الأحكام الشرعية والفتاوى منه ، وتخليصها مما يتخللها من استطرادات وحكايات وأساطير ، ومن أهمهم :

موسى بن ميمون الذي عاش في الأندلس والمغرب ثم في القاهرة حيث كان طبيباً للأسرة السلطانية الأيوبية في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد ألف كتاباً لعله أهم ما ظهر في تاريخ اليهود خاصاً بالفقه الإسرائيلي وسماه « مِشْنِي تُورَاه » أي إعادة الشريعة ، وقسمه إلى أربعة عشر جزءاً ، صاغ فيها كل أحكام التلمود والمشنا والتوراة بأسلوب عبري سهل واضح دقيق . وقد اشتهر كتابه باسم (يد) لأن الياء تساوي عشرة والدال أربعة في حساب الجُمّل ـ مما يرمز إلى الأربعة عشر جزءاً التي يتألف الكتاب منها . ثم ذاع صيته بعد هذا باسم « يد حَزَاقة » أي « اليد القوية » ، والتوراة تستعمل هذا التعبير لوصف قوة الله في تخليص العبريين من فرعون . وكأن الرأي العام اليهودي أراد ، عن طريق هذا التلاعب بالألفاظ ، المبالغة في تكريم كتاب موسى بن ميمون .

يعقوب بن آشر بن يحيئيل ، وله كتاب مشهور جداً في نفس الموضوع اسمه « طوريم » أي السطور أو الصفوف أو النظم . والمؤلف عاش بالأندلس في القرن الرابع عشر .

الرِّبّي يُوسف كارو ، وهو إيطالي عاش في القرن السادس عشر . وقد انتفع بالكتابين السابقين ، وألف كتابه المشهور باسم « شُولحان عاروخ» أي المائدة المرتبة ؛ وهو كتاب يحتوي على شرائع التلمود مرتبة ترتيباً أدق من سابقيه مع الاختصار ، وسهولة العثور على الشرائع والأحكام ، ولذلك

انتشر جداً ، وكثرت طبعاته وشروحه ، وترجم إلى كثير من اللغات .

وحظيت الأساطير الواردة في التلمود بعناية في عزلها وترتيبها في مجاميع خاصة ، واشتهر في ذلك :

يعقوب بن حبيب الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس عشر . وجمع القصص والأساطير والأمثال التلمودية في كتاب سماه (عين يعقوب) أي منبع يعقوب ، وقد سماه اليهود (عين إسرائيل) من باب التكريم .

وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر نفسه قام صمويل يافيه يجمع القسم الأسطوري من التلمود الغربي (الأورشليمي) وشرحه شرحاً مستفيضاً بعنوان « يافيه مرأيه » أي الجميل المنظر[1].

وقد طبع التلمود طبعات كثيرة أهمها :

الطبعة الأولى الكاملة للتلمود البابلي التي ظهرت في البندقية في اثني عشر مجلداً من القطع الكبير من ١٥٢٠ إلى ١٥٢٣ وأشرف على نشرها دانيال بومبرج . وتحتوي هوامش هذه الطبعة على أشهر شروح التلمود التي أشرنا إليها ، وقد حذت حذوها الطبعات الشهيرة التي ظهرت بعدها في البندقية وفي بال بسويسرا وفي كراكوف ، ولوبلين وأمستردام ، وفرانكفورت على الأودر ، وبرلين ، وفرانكفورت على الماين ، وزولتسباخ ، وديهرنفورت ، وبراغ ، ووارسو ، وفينا ، وفيلنا . وقد اجتهد بعض الناشرين في تزويد هذه الطبعات بهوامش وشروح جديدة .

ولكن معظم هذه الطبعات منذ طبعة بال السويسرية إلى الآن قد امتدت إليها أيدي التحريف ، تحت اسم الرقابة الدينية . فأزالت نصوصاً وغيرت كلمات خوفاً من أن يعتبرها الرأي العام المسيحي في أوروبا اعتداء على مقدساته. يقول الحاخام الأكبر موسى ميلتسيز[2] إن من الكلمات التي

---

(١) في هذا العنوان تورية، فهو يعني أيضاً: يافيه ـ أي المؤلف ـ يبين ويظهر.
(٢) المرجع السالف الذكر، ص ٧٩.

أزيلت ووضع غيرها في طبعات التلمود هذه ، الكلمات التالية :

[جُويْ] التي معناها شخص لا ينتمي إلى بني إسرائيل ، أحد أبناء الأمم الأخرى ، المحتقرة . لأنها ليست من شعب الله المختار . وقد أثبتوا بدل هذه الكلمة لفظة [كوتي] أي سامري ، أو [كوشي] أي زنجي أو حبشي

[مِين] التي معناها كافر ، وضع بدلها [صَدُوقي] أي ينتمي إلى طائفة اليهود الصدوقيين الذين يعتبرهم اليهود التلموديون من الزنادقة ، واستعملوا بدلاً منها أحياناً كلمة [أبيقوري] أي أتباع الفيلسوف اليوناني أبيقور ، الذي شاع عنه وعن تلاميذه عدم التقيد بالقانون أو الأخلاق ، ووصفوا الصدوقيين بالأبيقورية أحياناً .

[نُكْرِي] بمعنى أجنبي أو غريب ، محتقر من اليهود ، استعملوا بدلها حروف الاختصار [عكوم] وهي اختصار عبارة « عُوبيد كُوكَبِيم ومزَلَوْتْ] أي عابد كواكب ومنازل أو بروج ، ويعنون به الكافر .

[أومُوت هاعُولام] يعني أمم ، العالم ، الشعوب غير اليهودية ، وهي عندهم حقيرة بالطبع ، ويختصرون هذه العبارة بالحروف [أوه] ، وقد استعملوا بدلها لفظة [بابليم] أي البابلين ، أو [كنعانيم] أي الكنعانيين .

[رُومَائِي] يعني روماني ، استعملوا بدلها [أرامائي] أي آرامي أو سوري ، وكذلك [فارسائي] أي فارسي أو إيراني أو مجوسي .

(رومِي) أي مدينة روما ، وقد استعملوا بدلها (المدينة) .

ومع ذلك فبعض الطبعات التي ظهرت في العصر الحديث تخلصت من كثير من هذا التحريف وعادت إلى طبع النص الأصلي .

أما التلمود الغربي أو الأورشليمي فقد نشره دانيال بومبرج أيضاً في البندقية ١٥٢٣ ـ ١٥٢٤ في مجلد واحد ضخم ، بدون أية شروح .

وفي ١٦٠٩ ظهرت طبعة أخرى له في كراكوف معها شرح قصير على الهامش .

وظهرت طبعة كروتشين سنة ١٨٦٦ ، مع شرح قصير ، وحواش تشير إلى المواضع المماثلة في التلمود البابلي ، كما تصحح بعض القراءات .

وأكثر طبعات التلمود الأورشليمي شروحاً وتعليقات ، وأوسعها شهرة الطبعة التي ظهرت في شيتومير ، من سنة ١٨٦٠ إلى ١٨٦٧ م .

الفصل الثاني

أُصُولُ العَقِيدَةِ اليَهُودِيَّة

عاش اليهود فكرياً وروحياً في داخل هذا المجموع من النصوص المقدسة : العهد القديم ، والشريعة الشفوية أو المشنا ، ثم التلمود . وكان تفكيرهم في الغيبيات بعد أن تعرضوا للسبي البابلي ، ثم للتشتيت في الأرض على أيدي الرومان ، يتخذ اتجاهين محددين هما :

(١) نهاية العالم . (٢) الخلاص على يد المسيح المنتظر .

رأي جينيبير :

والقارىء لأسفار الأنبياء في العهد القديم يلاحظ أنهم كانوا يركزون اهتمامهم على مسألتين كبيرتين ، كما يقول الأستاذ الفرنسي شارل جينيبير هما :

(أ) أن الدنيا تبدو بعيدة عن الكمال بالمقارنة بما كان الله قد طالبنا به . وهذا يقتضي أن يحدث تنسيق بقدر الإمكان بين نقص الدنيا ومتطلبات الرب . ولن يكون هذا إلا بأن يُنزل الرب عقاباً صارماً على كل الذين تركوا سواء السبيل .

(ب) أن الله قد اختار إسرائيل شعباً له ومع ذلك فإن هذا الشعب

المختار لم يكن دائماً من حيث الاستقامة والهداية على مستوى المسؤولية التي يلقيها عليه هذا الاختيار. وبالتالي فإنه لم يفلح في السيطرة على شعوب الأرض جميعاً كما كان متوقعاً ، بل كثيراً ما حدث العكس فاضطهدته شعوب الأرض جميعاً . فكيف إذن يمكن أن يدوم هذا الوضع بالرغم من الوعود التي وعدها الرب لإبراهيم ويعقوب وموسى ؟ وهل من المعقول تصور أن الله لا ينجز وعده ؟ لا ، فإن النبي ميخا (٧/ ٢٠) يقول مخاطباً الرب : ستجعل الوفاء ليعقوب ، والرحمة لإبراهيم ، كما أقسمت لآبائنا من أيام القدم .

يوم الرب :

وبالرغم من كل ما يبدو في العالم من دنس ، وما يبدو من شعب الله المختار من إصرار على التفريط في عهده مع الرب ، فإن الرب أخيراً سيكون له مع الدنيا يوم عظيم ، يذكره النبي عاموس في القرن الثامن الميلادي للمرة الأولى بقوله : « ويل للمتمنّين يوم الرب . لِمَ ذاك ؟ إن يوم الرب لكم ظلمة لا نور . كما إذا هرب إنسان من وجه الأسد فلقيه الدب ، أو دخل البيت وأسند يده إلى الحائط فلسعته حية، أليس يوم الرب ظلمة لا نوراً ؟ بل هُوَ دَيجُور لا ضياء له . » (عاموس ٥/١٨ ـ ٢٠) .

ويبدو من فحوى هذا الكلام أن عاموس لم يخترع عبارة « يوم الرب » ولا الفكرة الكامنة فيها ، بل وجدها عقيدة شائعة بين قومه ، وفي عصره ، ولم يزد على أن نقلها منسوبة إلى أصحابها . ويقول جينيبير إنه يبدو أيضاً من هذه العبارة أن اليهود على عهد عاموس كانوا قد خلطوا بكثير من الحيلة والدهاء ، قضيتهم بقضية الله. فهم ينتظرون يوم الرب ليحمل لهم انتصار شعب الله المختار على الأمم الأخرى التي ستكون قد دانت لهم بالخضوع . أما عاموس نفسه فواضح أنه يرى أن يوم الرب سوف يمتاز بانتصار العدالة الإلهية التي سيرتعد منها الشعب الإسرائيلي نفسه رعباً بسبب ما اقترفه من جرائم وآثام[١] .

---

(١) Ch. Guignebert ; Le Monde Juif vers le temps de Jésus. Paris 1950; Chapitre IV-pp. 162 ss.

وتبقى هذه الازدواجية حول مفهوم يوم الرب لدى الأنبياء الذين أتوا بعد عاموس . فالنبي إشعيا يقول مثلاً (١٣/٦ ـ ٩) : وَلْوِلُوا فإن يوم الرب قريب ، قادم من لدن القدير قدوم اجتياح . لذلك تسترخي كل يد ويذوب كل قلب لإنسان ، فيفزعون ويأخذهم الطلق والمخاض ويتضوَّرون كالتي تلد ، ويحملق بعضهم إلى بعض ووجوههم مثل اللهيب . هو ذا يوم الرب قد حضر ، يوم قاس فيه سخط وغضب مضطرم ، ليجعل الأرض خراباً ، ويبيد منها مذنبيها .

ويرى نفس هذا الباحث الفرنسي[١] أن « يوم الرب » بالمعنى الذي قصده الأنبياء ، معنى التهديد والوعيد والانتقام من العصاة وفي مقدمتهم الشعب الإسرائيلي نفسه ، هذا اليوم كان موضع تهكم وسخرية من الكثيرين ، وكانوا يرون أنه بعيد جداً ، وأطلقوا عليه لتأكيد هذا البعد الاسم العبري « أَحَرِيتْ هَيَّامِيمْ » التي معناها « آخرة الأيام » أو « الآخرة » أو « اليوم الآخر » ، وهو يوم لم تذكر التوراة عنه شيئاً ، لا على عهد موسى ولا عهد القضاة ، على الأقل في النص الموجود بين أيدينا . وكأن اليهود بإطلاقهم اسم « آخرة الأيام » ، أو نحو ذلك ، لم يكونوا على أدنى شَبَه بما استعمله المسيحيون أو المسلمون ، الذين يؤمنون بالآخرة ، وبأنها قريبة جداً ، فاليهود يسخرون كما قلنا من بُعدها مما اضطر نبيهم حزقيال (٢١/١٢ وما بعدها) إلى مهاجمتهم بسبب ذلك في قوله : وكان إليّ كلام الرب قائلاً ، يا ابن آدم ، ما هذا المثل السائر بينكم على أرض إسرائيل إذ تقولون: ستطول الأيام ، وتخيب كل رؤيا . لذلك قل لهم ، هكذا قال السيد الرب: إني مبطل هذا المثل فلا يعودون يتمثلون به في إسرائيل ، بل قل لهم قد اقتربت الأيام ، وكلام كل رؤيا . لأنه لن تكون من بعد رؤيا باطلة ، ولا عرافة مشتبهة في وسط بني إسرائيل . لأني أنا الرب أتكلم ، والكلمة التي أتكلم بها تتم ولا تؤخر من بعد ، بل في أيامكم يا أيها الجنس المتمرِّد ، أتكلم بالكلمة وأتمُّها ، يقول السيد الرب .

(١) نفس المرجع .

فكرة المسيح المخلِّص :

وتأتي فكرة انتظار المخلص ، أو المسيح ، مقترنة بفكرة تجديد العهد مع الرب ، أو فكرة « العهد الجديد » . عندئذٍ تتجدد أمّة الله ، لتصبح جديرة بالله . وعندئذٍ تصير أورشليم مدينة لا مثيل لها بين المدائن ، يقيم فيها الرب على جبل صهيون ، ويتجمّع فيها المشردون من بني إسرائيل ، وتزول فيها الأحقاد ، بل يموت منها الموت نفسه وفي وسط هذه الآمال المركزة على إسرائيل ، لا ينسى مروجوا تلك البشارات أن يجعلوا فيها نصيباً ما للإنسانية من غير بني إسرائيل . يقول النبي إشعيا مثلاً (٦/٢٥ - ١٠) : وفي هذا الجبل سيصنع رب الجنود لكل الشعوب وليمة من المُسَمَّنات ، ومأدبة من المسمنات الدسمة مع النبيذ الصِرْف المروَّق ، وفي هذا الجبل سيزيل رقعة الغطاء المغطي جميع الشعوب ، والحجاب الحاجب لكل الأمم . وسيبيد الموت إلى الأبد ، ويمسح السيد الرب الدموع عن جميع الوجوه ، ويزيل عار شعبه عن كل الأرض ، لأن الرب قد تكلم . فيقال في ذلك اليوم ، هو ذا إلهنا الذي انتظرناه ، نبتهج ونفرح بتخليصه .

ويكاد المعلقون على أمثال تلك النصوص يتفقون على أمر واحد ، هو أن مبعثها إنما كان تعصباً قومياً ضيق الأفق ، شديد الحقد ، وتعلقاً بفكرة الحق الإلّهي في السلطة الدينية «الثيوقراطية» الشديدة الغيرة، وتعطشاً لمغانم مادّية ضخمة. كل ذلك ينبثق من حضيض الخوف والدمار ليخلق صورة ساحرة تداعب عواطف هؤلاء الموتورين.

وكما أن فكرة الآخرة لا تبدو كما قلنا من خلال أسفار التوراة الموسوية الخمسة بحالتها المعروفة ، فإننا لا نكاد نجد شيئاً يشعر بفكرة انتظار المسيح المخلص كذلك . ولكن الباحثين ، واليهود منهم بوجه خاص ، تأولوا ذلك من خلال آيتين ، في كل التوراة ، مع كثير من التكلف والتعسف . فالآية الأولى (تكوين ١٠/٤٩) تقول : « لا يزول صولجان من يهوذا ، ومشترع من سلالته حتى يأتي (شيلو) وتطيعه الشعوب » .

ونحن نسأل مع الباحثين في نص العهد القديم : من هو شيلو؟

الواقع أنه لا يوجد لهذا السؤال جواب شاف . فقد حرص بعضهم على أن يذكره كما هو دون تعليق . واعتبره بعضهم تحريفاً من الناسخ ، وحاول أن يصحح هذا التحريف برأيه . فمثلاً نجد سعديا الفيومي(١) من خلال ترجمته العربية يبدو أنه قرأ (شِلُو) وهي بالعبرية معناها (الذي له، الذي ينتمي إليه ، صاحبه) ولذلك يقول في ترجمته العربية : ولا يزول القضيب من آل يهوذا ، والراسم من تحت أمره إلى أن يجيء (الذي هو له) ، وإليه تجتمع الشعوب . والفرنسي جنيبير(٢) يرى وجهاً آخر في تصحيح هذا التحريف ، فيقرأ (موشلو) بدلاً من (شيلو) ومعناها « حاكمه ، والمسيطر عليه » .

والترجمة الرسمية للحاخامية اليهودية بفرنسا(٣) تقرأ (شَالِيُو) ومعناها « المسالم ، المتمسك بالهدوء والسكون » وكلها كما نرى افتراضات حول نص غامض لا سبيل إلى الوصول لوجه الحق فيه ومع ذلك فإنه بعد كل ما يمكن تصوره من تعديل أو تصحيح ، لا يمكن أن ينطبق على المخلِّص والمسيح بحال من الأحوال ، فالمسألة كلها لا تعدو أن تكون حديثاً عن سبط يهوذا الذي ينتمي إليه داود وسليمان وأسرتهما الملكية، الوحيدة في التاريخ اليهودي ، التي كان لها صولجان ولديها حق التشريع في فترة ما ، مما يرجح معه رجوع هذه الآية ، بل كل الفصل الذي وردت فيه إلى ما بعد قيام مُلك داود ، بالرغم من نسبتها هنا إلى موسى . وهذا هو رأي « دريفر » إذ يقول(٤) : إن الإصحاح ٤٩ سفر التكوين الذي يبارك فيه يعقوب الأسباط ، هو بطبيعة الحال مقحم على يد كاتب من المدرسة اليهودية (اليَهْوِية) أخذه من مصدر مستقل . فالملابسات التاريخية والجغرافية التي تشع منه ، هي نفس الملابسات المعروفة في عصر القضاة وصمويل وداود ، وهو العصر

(١) سعديا بن يوسف الفيومي : تفسير التوراة بالعربية،
أخرجه وصححه وبينه بحواش بالعبرانية يوسف درنبورج - باريس ١٨٩٣ ص ٧٧.
(٢) المرجع المذكور له سابقاً ، ص ١٧١ حاشية رقم (٥).
(٣) La Bible, traduite du texte original par les membres du Rabbinat Français. Tome I p.63- Paris, 1900.
(٤) S.R.Driver, DD; An Introdaction to the Literature of the Old Testament; 9 th edition 1929-Edinburgh; p.19.

الذي أخذت فيه عادة بركة شيخ القبيلة شكلها الشعري الذي نراه هنا . والمؤلف البريطاني يوافق في ذلك الألماني دلمان ، ويتفق معهما في نفس الرأي العلاّمة السويسري لوسيان جوتييه وغيره .

أما الآية الثانية التي وجدها بعض الباحثين في توراة موسى وتوهموا أنهم عثروا فيها على المخلّص المسيح المنتظر فتقول (العدد ١٧/٢٤) : إنني أراه وليس حاضراً ، أبصره وليس قريباً ، يبرز كوكب من يعقوب ويقوم صولجان من إسرائيل ، فيحطم طرفي مؤاب ، ويخسف كل أبناء الغرور .

والآية تنطوي على غموض لا يقل عن سابقتها . فالترجمة التي أثبتناها هي ما فهمته منها الحاخامية الفرنسية . أما الترجمة العربية الكاثوليكية فتثبت بدل المقطع الأخير « ويريح جميع بني شيت » . على حين أن الترجمة العربية البروتستنتية تقول « ويهلك كل بني الوغى » . ويترجمها سعديا الفيومي بقوله : « ويزلزل سائر بني شيت » . ومهما يكن من شيء فإن هذا الموصوف هنا يبدو جبّار حرب ، منتقماً شديد البطش، بعيداً عما يقترن بفكرة المسيح المنتظر من الوئام والسلام . ومع ذلك فلا بد لنا من القول بأن فكرة المسيح المنتظر قد أخذت في عقلية اليهود ، بحسب العصور والظروف التي عاشوا فيها أشكالاً مختلفة جداً ، كل جيل منهم صنع مسيحه حسب هواه ، وطبقاً للصورة الخيالية الوجدانية التي يحلم بأن يكون عليها هذا المسيح .

تعلُّق اليهود بفكرة المخلِّص - النبي إلياس (إلياهو) :

والذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى تعلق اليهود بفكرة المخلِّص، والبناء الفكري المعقد الذي ارتبط بهذا الأمل والذي أصبح عالماً حافلاً بحكايات كثيرة ترتبط به وشخصيات ، لعل أعظمها وأشهرها وأشدها ارتباطاً بما يراه اليهود في المسيح هي شخصية النبي إلياس ، الذي يسميه اليهود « إيليا التشبي » أو « إلياهو النبي » .

ووصفه في العهد القديم بالتِشْبِي هو نسبة إلى موضع غامض قد يكون من أرض جلعاد ، التي هي بادية الشام . أما نسبه في بني إسرائيل ففيه

خلاف كبير ، فبعض أحبار اليهود نسبوه إلى سبط جاد ، وآخرون إلى سبط بنيامين ، بل قيل أيضاً إنه من الكهنة ، أي من سبط ليفي الذي ينسب إليه موسى وهارون .

وأخبار معجزات هذا النبي كثيرة في العهد القديم نفسه ، حيث كان معاصراً للملك آخاب ، سابع ملوك دولة إسرائيل المنشقة في شمال فلسطين ، التي كانت عاصمتها السامرة في إقليم نابلس . جاء في سفر الملوك الأول ١٦/٢٩ ـ ٣٣ :

« وآخاب بن عمري ملك على إسرائيل في السنة الثامنة والثلاثين لآسا ملك يهـوذا، وملك آخاب بن عمري على إسرائيل في السامرة إثنتين وعشرين سنة . وعمل آخاب بن عمري الشر أمام عَيْنَيْ الرب أكثر من الذين قبله ، وكأنه كان أمراً هيناً أن يسلك خطايا يربعام بن نباط ، حتى اتخـذ إيزابيلا ابنة إثُويَعَل ملك صيدا زوجة ، وسار وعبد البعل وسجد له ، وأقام مذبحاً للبعل في معبد البعل الذي بناه في السامرة. وعمل آخاب أوثاناً من الخشب، وأمعن آخاب في إغضاب الرب إله إسرائيل أكثر من الذين كانوا قبله». كان ذلك حوالي سنة ٩٠٠ قبل الميلاد.

ويبدو من حديث العهد القديم عن النبي إلياس أن هذا الرجل أخذته الغيرة على الدين والأخلاق أمام الانحلال والفساد والكفـر التي تفشت في إسرائيل ، ممثلة في الملك نفسه ، فقام ينادي بالإصلاح . وأقسم لآخاب بالله رب إسرائيل أنه لن ينزل مطر من السماء إلا بناءًا على قوله هو (الملوك الأول ١٧/١) . والظاهر أن آخاب وقف منه موقفاً عنيفاًجداً حتى خاف على نفسه ، إذ تقول القصة إن كلام الرب جاءه قائلاً : « انطلق من هنا ، واتجه نحو الشرق ، واختبىء عند نهر كَريت الذي في مواجهة الأردن ، فتشرب من النهر، وقد أمرتُ الغربان أن تعولك هناك. . . وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحاً وبخبز ولحم مساءً وكان يشرب من النهر».

ثم تأتي قصته مع امرأة أرملة تعيش هي وابنها في « صرفة » وهي إحدى قرى الشمال التي تسيطر عليها صيدا . كان ذلك في زمن قحط

ومجاعة ، وكان كل ما في بيت المرأة من الدقيق والزيت لا يكاد يكفي لصنع فطيرة واحدة . فطلب منها إيليا أن تصنع له فطيرة صغيرة وتصنع الباقي لها ولابنها . وظلت تصنع الفطائر لها. ولأهلها جميعاً طيلة زمن المجاعة فلا يفرغ الدقيق ولا ينقص كوز الزيت .

وفي أثناء ذلك مرض ابن الأرملة ومات « فأخذه من حضنها ، وصعد به العِلِّيَّة التي كان يقيم بها وأرقده على سريره ، وصرخ إلى الرب وقال : أيها الرب إلٰهي ، أكذلك قد أسأت إلى الأرملة التي أنا عندها بإماتتك ابنها ؟ ثم تمدد على الولد ثلاث مرات ، وصرخ إلى الرب وقال : يا رب ، إلٰهي ، لترجع نفس هذا الولد لجوفه . فسمع الرب لصوت إيليا ، ورجعت نفس الولد إلى جوفه ، فعاد إلى الحياة . فأخذ إيليا الولد ونزل به من العلية إلى البيت ودفعه لأمه . وقال إيليا: انظري ، ابنك حي . فقالت المرأة لإيليا : الآن علمت أنك رجل الله ، وأن كلام الرب في فمك حق .

وبعد هذه الخوارق والمعجزات التي قام بها إيليا التشبي أثناء اختفائه من بطش آخاب ، حان الوقت الذي يتحدى فيه هذا الملك الظالم .

وجاء إلى السامرة وكانت المجاعة فيها قد اشتدت جداً وانقطع نزول المطر وهلك الناس والدواب . وكان الموظف الذي يدير القصر يسمى « عوباديا » وهو رجل صالح متدين لا يشارك آخاب في آرائه ولا في جرائمه فقابله إيليا وقال له : اذهب وقل لسيدك إن إيليا هنا . فلما رآه آخاب قال له : أأنت ذلك الشخص المزعج لإسرائيل ؟ فقال : أنا لم أزعج إسرائيل ، بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وسيركم وراء الأصنام . « والآن أرسل فأجمع إليّ كل إسرائيل على جبل الكرمل ، وكذلك أنبياء البعل الأربعمائة والخمسين ، وأنبياء الأوثان الخشبية الأربعمائة الذين يأكلون من مائدة إيزابيللا . . . فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال لهم : إلى متى تعرُجون بين الفرقتين ؟ إن كان الرب هو الله فاتبعوه ، وإن كان البعل فاتبعوه . فلم يجب الشعب بكلمة . فقال إيليا للشعب : لقد بقيت الآن وحدي نبياً للرب ، وهؤلاء أنبياء البعل أربعمائة وخمسون رجلاً . فليؤت لنا

بثورين ، فيختاروا لهم ثوراً ثم يقطعوه ويجعلوه على الحطب ، ولا يضعوا ناراً . . وأنا أيضاً أهيىء الثور الآخر وأجعله على الحطب ولا أضع ناراً . ثم تدعون أنتم باسم آلهتكم ، وأنا أدعو باسم الرب ، والذي يجيب بنار فهو الإله .

فأجاب جميع الشعب قائلين : هذا كلام حسن . فقال إيليا لأنبياء البعل : اختاروا لكم ثوراً وافعلوا أولاً ، لأنكم كثيرون ، وادعوا باسم آلهتكم ، ولكن لا تضعوا ناراً . فأخذوا الثور الذي أعطاهم ، وقربوا ، ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر ، وهم يقولون : يا بعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا مجيب . وكانوا يرقصون حول المذبح الذي صنعوه . فلما كان الظهر سخر منهم إيليا وقال : اصرخوا بصوت أعلى فإنه إله ، ولعله في محادثة أو خلوة أو في سفر ، أو لعله نائم فيستيقظ . فكانوا يصرخون بصوت عال وقد تجرحوا بالسيوف والرماح حسب طقوسهم حتى سالت دماؤهم . فلما فات الظهر وهم يتنبأون إلى حين إصعاد التقدمة، وليس صوت ولا مجيب ولا مصغ ، قال إيليا لجميع الشعب ادنوا مني فدنا جميع الشعب منه . فرمم مذبح الرب المتهدم ، ثم أخذ إيليا اثني عشر حجراً ، بعدد أسباط بني يعقوب الذي كان كلام الرب إليه قائلاً يكون اسمك إسرائيل . وبنى تلك الحجارة مذبحاً باسم الرب ، وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من الحب. ثم صفف الحطب، وقطع الثور ووضعه على الحطب، وقال املأوا أربع جرار ماء، وصبوا على المحرقة وعلى الحطب. ثم قال ثنوا فثنوا. ثم قال: ثلثوا، فثلثوا. فجرى الماء حول المذبح دائراً وامتلأت القناة أيضاً بالماء. فلما حان إصعاد التقدمة تقدم إيليا النبي وقال: يا رب، يا إله إبراهيم وإسحٰق وإسرائيل ، ليُعلم اليوم أنك إله في إسرائيل ، وأني عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبني يا رب . استجبني ، ليعلم هذا الشعب أنك يا رب أنت الإله، وأنك أنت رددت قلوبهم إلى رجعة. فهبطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ، حتى لحست الماء الذي في القناة . فلما رأى ذلك جميع الشعب خروا على وجوههم قائلين : الرب هو

الله ، الرب هو الله . فقال لهم إيليا : اقبضوا على أنبياء البعل ، ولا يفلت منهم أحد . فقبضـوا عليهم . فأنزلهم إيليا إلى نهر قيشون ، وهناك ذبحهم[1] .

وتتوالى معجزات هذا النبي فهو ينزل المطر من السماء ، ويسيِّر السحاب ، ولكنه مع ذلك يخشى من انتقام آخاب فيهرب جنوباً نحو أرض يهوذا ، حتى يصل إلى بئر سبع . وأدركه الجوع فاضطجع في البرية ينتظر الموت ، وإذا بواحد من الملائكة قد جاء فلمسه وقال له: قم فكل . فالتفت فوجد عند رأسه رغيفاً وجرة ماء ، فأكل وشرب ثم اضطجع فجاءه ملك الرب مرة أخرى ولمسه وقال : قم فكل ، فإن الطريق أمامك بعيدة . فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين يوماً وأربعين ليلة ، إلى جبل الله حوريب ، وهو الجبل الذي سمع فيه موسى صوت الله . وبات في مغارة هناك ، فجاءه كلام الرب يقول : ما بالك ههنا يا إيليا . فقال إني ثرت ثورة للرب إله الجنرد . لأن بني إسرائيل قد نبذوا عهدك ، وقوضوا مذابحك ، وقتلوا أنبياءك بالسيف وبقيت أنا وحدي ، وقد طلبوا روحي ليأخذوها . فقال : اخرج ، وقف على الجبل أمام الرب فإذا الرب عابر ، وريح عظيمة عاتية تصدع الجبال وتحطم الصخور أمام الرب ، ولم يكن الرب في الريح . وبعد الريح زلزلة ، ولم يكن الرب في الزلزلة وبعد الزلزلة نار ، ولم يكن الرب في النار . وبعد النار حفيف نسيم لطيف ، فلما سمع إيليا ستر وجهه بردائه وخرج ووقف بمدخل المغارة، فإذا بصوت يقول له: ما بالك يا إيليا ؟ فقال إني ثرت ثورة للرب إله الجنود وكرر عبارته السابقة . فقال له الرب امض فارجع في طريقك نحو برية دمشق ، فإذا وصلت فامسح حزائيل ملكاً على آرام . وامسح ياهوبن نمشي ملكاً على إسرائيل ، وامسح إلييشع بن شافاط من آبل محولة نبياً ، خليفة لك .

وهكذا ينطلق إيليا التشبـي من دائرة النبي المحليّ في مملكة إسرائيل ، الشمالية ، لتصبح له رسالة « دولية » في منطقة الشرق الأوسط

---

(١) ارجع في هذا الصدد إلى سفر الملوك الأول، الإصحاح ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ .

كلها ، كما يختارنبياً يخلفه في هذا العمل الضخم هو إليشع الذي يسمى بالعربية « اليسع » . وهذا ما يفسر لنا اقتران الاسمين إلياس واليسع معاً عند ذكر الأنبياء في الفكر العربي .

وأدار النبي إيليا خطته بإحكام ودقة حتى علا شأنه جداً ، وتنبأ بهزيمة آخاب وبأن زوجته الكافرة إيزابيللا ستقتل وتأكلها الكلاب ، هي وكل العصاة من إسرائيل ، ومن لم تأكله الكلاب منهم فستخطفه جوارح الطير . واستمرت مملكة إسرائيل في عدائها لإيليا النبي بعد موت آخاب حتى أرسل إليه خليفته « أحزيا » فرقاً من جيشه تريد أن تستدرجه وتنزله عن الجبل الذي اعتصم به . كانت كل فرقة تتألف من خمسين جندياً عليهم قائد ، فيأمر إيليا السماء فترسل عليهم ناراً تلتهمهم .

وكان آخر كرامات هذا النبي هو صعوده حياً إلى السماء حيث يعتقد اليهود أنه موجود فيها حتى الآن . « أراد الرب أن يرفع إيليا في العاصفة نحو السماء ، وكان إيليا قد ذهب مع إليشع من الجلجال . فقال إيليا لإليشع : اقعد ها هنا فإن الرب قد بعثني إلى بيت إيل. فقال اليشع لعمر الله ، ولعمرك أنت ، انني لن أفارقك . فسارا إلى بيت أيل . فخرج بنو الأنبياء الذين في بيت إيل إلى اليشع وقالوا له : هل علمت أن الرب في هذا اليوم سيأخذ سيدك من فوق رأسك ؟ فقال نعم قد علمت ، فاسكتوا . ثم قال له إيليا : يا اليشع اقعد ها هنا ، فإن الرب قد بعثني إلى أريحا . فقال لعمر الله ، ولعمرك أنت ، إنني لن أفارقك . وأتيا أريحا . « وتكرر نفس المنظر مع بني الأنبياء في أريحا ، ثم انتقلا إلى الأردن . فأخـذ إيليا رداءه ، ولفه ، وضرب به الماء ، فانفلق من هنا وهناك ، وجازا كلاهما على اليبس ، فلما عبرا قال إيليا لإليشع : سلني ماذا أصنع لك قبل أن أوخذ عنك . فقال اليشع : ليكن لي سهمان من روحك ، قال : قد سألت أمراً صعباً إن أنت رأيتني عندما أوخذ من عندك يكون لك ذلك ، وإلا فلا .

وفيما كانا سائرين ، وهما يتحادثان ، إذا مركبة نارية ، وخيل نارية قد فصلت بينهما ، وطلع إيليا في العاصفة نحو السماء ، واليشع يبصر ويصرخ

يا أبي يا أبي ، يا مركبة إسرائيل وفرسانه ، ثم لم يره بعد : فأمسك ثيابه وشقها شطرين ، ورفع رداء إيليا الذي سقط عنه ، ورجع ووقف على شاطىء الأردن . وأخذ ـ رداء إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء وقال : أين الرب إله إيليا الآن أيضاً ؟ وضرب المياه فانفلقت من هنا وهناك وعبر اليشع » . وكل ذلك مذكور بتفصيله ، من سفر الملوك الأول ١٧ إلى سفر الملوك الثاني ٢ .

موسى وإلياهو :

وقد بقي النبي إيليا إلى يومنا هذا من الأركان الغيبية في الفكر اليهودي . وكثر الحديث عنه في التلمود والمدراش وفي كتب التصوف اليهودي ، واعتبر في نظر أكثر اليهود مساوياً لموسى ، بل اعتبر الوحيد في أنبياء بني إسرائيل الذي يمكن أن يقارن بموسى . جاء في المجلد الثاني من دائرة المعارف العبرية المنشور في نيويورك سنة ١٩٠٨ ، بإشراف يهودا دافيد أيزنشبتاين، تحت عنوان « موسى وإلياهو » أن أصحاب المدراش جروا على تشبيه إلياهو بموسى من عدة وجوه أهمها :

١ ـ أن الاثنين ينتميان إلى سبط اللاويين ، (وقد أشرنا إلى الخلاف القائم حول نسبة إلياهو إلى هذا السبط).

٢ ـ أنهما مكلفان من الله برسالة محددة هي خلاص بني إسرائيل ، أما موسى فقد أتم رسالته بتخليصهم من فرعون ؛ وأما إلياهو فالأمر فيه مختلف جداً، إذ أنه ـ في اعتقادهم ـ قد صعد إلى السماء في المركبة النارية التي ذكرنا قصتها وأنه سينزل إلى الأرض في آخر الزمان ، قبل يوم الدين ، ليتم رسالة الخلاص التي كلف بها ، وقد كانت هذه العقيدة شائعة بين اليهود بعد العودة من السبي البابلي ، فالنبي ملاخي الذي عاش في أواسط القرن الخامس قبل الميلاد يقول (ملاخي ٤/٤ ـ ٦) : اذكروا شريعة موسى عبدي التي أوصيته بها في حوريب ، إلى جميع إسرائيل ، رسوماً وأحكاماً . هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي ، قبل أن يجيء يوم الرب العظيم الرهيب . فيرد قلوب الآباء إلى الأبناء ، وقلوب الأبناء إلى آبائهم لئلا آتي وأضرب الأرض بلعنة » .

٣ ـ أن كلًا منهما نبيّ ، وقد لقب كلاهما بلقب « رجل الله » في الكتاب المقدس .

٤ ـ أنهما جميعاً قد صعدا إلى السماء . وقد رأينا في ذلك نصاً صريحاً في قصة إلياهو ، أما موسى فالنص الصريح الذي عندنا في الكتاب المقدس عنه أنه مات ولم يرفع ، بل دفن في قبر لم يكن الذي سجل التوراة بالكتابة يعرف أين هو (التثنية ٣٤/٥ ، ٦). والواقع أن ارتفاع موسى إلى السماء قد تأوله اليهود اجتهاداً فيما بعد .

٥ ـ أن كلًا منهما قتل رجلًا ظالماً ، فموسى قتل المصري الذي رآه يضرب واحداً من قومه ، وقالوا إن إلياهو قتل حيئيل باني مدينة أريحا ، المعاصر لإلياهو وللملك الإسرائيلي آخاب، وحادثة القتل المنسوبة إلى إيليا النبي هي أيضاً من اجتهادات اليهود في التأويل ولم يرد بها نص صريح ، وكل ما هنالك أنهم توهموها في آية (هوشع ١٣/١) التي لا تفصح عن ذلك بحال فهي تقول : « لما تكلم إفرايم ، ألقى الرعب في إسرائيل ، فأثم في البعل ومات » .

٦ ـ أن موسى وإيليا كلاهما قد اعتمد في فترة معينة على امرأة ، موسى على بنت كاهن مدين ، وإيليا على الأرملة التي أحيى لها ولدها من الموت .

٧ ـ أن موسى هرب من وجه فرعون ، وإلياهو هرب من وجه آخاب وزوجته الكافرة إيزابيلا .

٨ ـ أن موسى جمع شمل قومه على جبل الطور في سيناء ، وإلياهو جمع شملهم على جبل الكرمل في شمال فلسطين .

٩ ـ أن كلًا منهما اتخذ له مغارة يختبىء فيها ، وورد ذكر مغارة موسى في سفر الخروج (٢٢/٣٣) في قول الرب له : « ويكون متى اجتاز جلالي أني أضعك في نقرة من الصخرة وأسترك بيدي حتى أجتاز » .

١٠ ـ أن كلًا من موسى وإلياهو قد بقي أربعين ليلة على وجبة واحدة .

موسى عندما واعد ربه ، وإلياهو في صحراء يهوذا في الجنوب من فلسطين .

١١ ـ أن موسى وإلياهو كانا جديرين بالتجلي الإلٰهي العجيب ، وتأولوا هنا قول نبيهم ناحوم (٣/١) : الرب في الزوبعة ، وفي العاصفة طريقه ، قالوا إن الزوبعة هي موسى والعاصفة هي إلياهو .

واليهود بالطبع أحرار في أن يقارنوا ويؤولوا في كتابهم ، ولكن هناك آية صريحة في توراة موسى نفسها تجعل هذه المقارنة تبدو عجيبة ، وكأنما هي تتجاهل قول التوراة (التثنية ٣٤/١٠) : « ولم يقم من بعدُ نبيٌّ في إسرائيل كموسى » .

الخيال الشعبي اليهودي أمام فكرة المسيح المخلص :

اعتقد اليهود كما قلنا أن إيليا النبي سيأتي مبشراً بمجيء المسيح ، بل لقد قال بعضهم إن المسيح هو ابن الأرملة الذي أعاده إلياهو إلى الحياة ، وأنه سيأتي في آخر الزمان بعد أن يتقدمه إلياهو . بل يبدو أن بعض فرق اليهود قد ظنت أن إلياهو والمسيح شيء واحد ، ونشعر بذلك من خلال لهجة الإلحاح التي يرددها بعض علماء اليهود عندما يبدأون الحديث عن إلياهو فيقولون إنه ليس هو المسيح . ولكنهم جميعاً يؤمنون بأنه سيأتي ، بل إنه ينزل من حين إلى حين إلى هذه الدار الفانية ليطمئن على أنه ما يزال هناك يهود يقيمون الناموس والشعائر والأعياد حسب ما تقرر عليهم منذ القدم[١] .

ووجد الخيال الشعبي اليهودي في أحلك أوقاته غذاء خصباً في سيرة النبي إيليا ، فهو عند أطفال اليهود يقابل « بابانويل » عند أطفال العالم المسيحي ، يزورهم في المنام حاملاً لهم اللعب والهدايا . وهو ينزل من السماء ليكون ضيفاً على الأتقياء يعلمهم توراة الرب ، ويأتيهم بالخيرات والبركات . ويذكر التلمود (باب السنهدرين) أن الرِّبِّي يوساي كان صديقاً للنبي إلياهو إذا دعاه حضر إليه تواً من السماء ، وإلى يوساي هذا تنسب العبارة التي يقول فيها : « إن أبانا إلياهو غضوب ، فهذه ثلاثة أيام أدعوه فيها

(١) أنظر مادة (إلياهو) في دائرة المعارف العبرية « أو تصار بسرائيل » ـ نيويورك ١٩٠٨ ، المجلد الثاني .

فلا يحضر ، فتجلى له إلياهو وقال : أدعوتني غضوباً ، ولماذا ؟ فأجاب يوساي : إن أمرك معنا الآن يثبت هو نفسه أنك غضوب » . وباختصار فإنه لا تكاد تذكر في الحكايات اليهودية قصة فرج بعد شدة ، أو جزاء عادل على عمل ما ، أو حادثة خارقة للعادة ، أو تدخل معجز من الملائكة كجبريل وميكائيل إلا أفسح الفكر اليهودي فيها مكاناً للنبي إلياهو أيضاً . بل لقد اقتضت تقاليد عيد الفصح في بعض خطواتها ، عندما يصب النبيذ في الكؤوس ، أن يصب كأس للنبي إلياهو أيضاً .

وقد جرى المفسرون اليهود على التركيز على مجيء النبي إلياهو ، عند تفسير الآية (ملاخي ٣/١) : « إنني مرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي ، وبغتة يأتي السيد الذي تنتظرونه إلى هيكله ، وملاك العهد الذي ترتضون به . ها إنه آت ، قال رب الجنود » . وقالوا إن « مَلاك العهد » المذكور فيها هو النبي إلياهو نفسه .

وإذا كان إيليا النبي قد أصبح جزءاً لا يتجزأ من فكرة المسيح المنتظر عند اليهود ، فإن هذا المسيح المنتظر بدوره قد أثر تأثيراً عميقاً في التطور الديني عند اليهود .

فقد بدأت كلمة « مسيح » بالعبرية « مَاشِيَحْ » ، حياتها اللغوية بمدلول مادي عادي . فالفعل « مسح » كان يستعمل لمبايعة الملوك ، إذ يأتي الكاهن الأكبر الذي يقوم بطقوس التتويج ويأخذ على كفه بعضاً من الزيت المقدس فيمسح به مقدم رأس الملك ثم يضع التاج . وهكذا كان كل ملك عند العبريين يسمى في القديم « مسيحاً » ، أي أنه متوج بطريقة شرعية وممسوح بالزيت المقدس .

ومع الحوادث الجسام التي تعرض لها اليهود في إبان السبي البابلي ، وما كان قد سبقه من فساد في ملوك إسرائيل ويهوذا ، أصبح حلم الأنبياء والمصلحين والكثرة الكثيرة من اليهود أن يأتي ملك فذ من نوعه ، مخلّص ، معه القوة والبركة ، معجز يعيد الأمجاد السالفة ، فيكون هو الملك بحق ، وهو «المسيح». نرى هذه الفكرة واضحة متبلورة في قول النبي الإسرائيلي

(إشعيا ٩/٦ ، ٧) : « لأنه يولد لنا ولد ، ونُعطَى ابناً ، وتكون الرئاسة على كتفه ، ويدعى اسمه عجيباً ، مشيراً إلهاً قديراً أباً ، أبدياً ، أميراً للسلام . لنمو الرياسة ، ولسلام لا انقضاء له على عرش داود ومملكته ، ليقرها ، ويوطدها بالعدل والإنصاف من الآن إلى الأبد . إن غيرة رب الجنود ستصنع هذا » .

تأكدت مع السبي البابلي ثم مع النكبات المتعاقبة التي حلت باليهود فكرة الأمل في المسيح المخلص حتى أصبحت كما قلنا من أركان العقيدة اليهودية العامة ، وسميت عند كثير من مؤرخي تطور الفكر الإسرائيلي باسم « المسيحانية »[1] .

أما لماذا لم يؤمن اليهود بالمسيح عيسى بن مريم عند قيامه بدعوته فيما بينهم ، فإنهم يتعللون في ذلك بأن سيدنا عيسى عليه السلام لا تتحقق فيه الشروط التي وردت عند الأنبياء السابقين حول المسيح المنتظر وزمانه . فإن النبي إيليا لم ينزل مُرهِصاً له ، ولم يعد من السماء قبل مجيئه معلناً عن بعثته . ثم إنهم يقولون إن النبي إشعيا في سفره (الأصحاح الحادي عشر) يصف هذا المسيح المنتظر فيقول :

« ويخرج فرع من جذر يَسَّى ، وينبت غصن من أصوله . ويحل عليه روح الرب ، وروح الحكمة والفهم ، روح المشورة والقوة ، روح المعرفة وتقوى الرب . وتكون لذته في مخافة الرب ، فلا يقضي بحسب نظر عينيه ، ولا يحكم بحسب سمع أذنيه . بل يقضي بالعدل للمساكين ، ويحكم بالإنصاف لبائسي الأرض ، ويضرب الأرض بعصا فمه ، ويهلك المنافق بنفخة شفتيه : ويكون البر نطاقاً لحقويه ، والحق حزاماً لجنبيه . فيسكن الذئب مع الحمل ، ويربض النمر مع الجدي والعجل ، وشبل الأسد مع دابة العلف ، وصبي صغير يسوقها . وترعى البقرة والدب معاً ، ويربض أولادهما معاً ، ويأكل الأسد تبناً كالبقر ، ويلعب الرضيع على جُحْر الثعبان ، ويضع

---

(١) Messianisme .

الفطيم يده في نفق الأفعوان . لا يؤذون ولا يفسدون في كل جبل قدسي ، لأن الأرض ستمتلىء من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر . وفي ذلك اليوم يكون أصل يَسَّى قائماً كراية للشعوب ، ترجوه الأمم، ويكون مثواه مجيداً . وفي ذلك اليوم يمد المولى يده ثانية ليفتدي بقية شعبه التي بقيت من أشور ومصر وفتروس وكوش وعيلام وشنعار وحماة وجزائر البحر. ويرفع راية للأمم، ويجمع المنفيين من إسرائيل ويضم المشتتين من يهوذا من أربعة أطراف الأرض. فيزول حسد إفرايم، وتضمحل عداوة يهوذا. فلا إفرايم يحسد يهوذا، ولا يهوذا يعادي إفرايم. بل ينقضّان على أكناف الفلسطينيين غرباً، وينهبان بني المشرق معاً! ويكون على أدوم ومؤاب امتداد يدهما، وبنو عمون في طاعتهما! ويبيد الرب لسان بحر مصر، ويهز يده على النهر بريحه العاصفة، ويشقه سبعة جداول فيُعبر بالأحذية وتكون سكة لبقية شعبه، التي بقيت من أشور، كما كانت لإسرائيل يوم نزوحه عن أرض مصر».

وقد تكرر ذلك كله في مواضع أخرى من أقوال نفس هذا النبي ، أشهرها ما جاء في نهاية الإصحاح الخامس والستين من سفره حول السلام الدائم القائم بين الذئب والحمل ، وما سيكون من إقلاع الأسد عن الافتراس واكتفائه بأكل التبن كالبقر . ويقول اليهود إنه لم يتحقق شيء واحد من ذلك على عهد عيسى بن مريم فالذئب ما يزال يأكل الحمل . والأسد لا يذوق التبن بل يعيش على قتل الفريسة وتمزيقها ، والحية تهلك الإنسان ، وبقية إسرائيل ويهوذا ذليلة مشردة في الأرض . وهكذا تنكر هؤلاء اليهود للمسيح ، حتى إنهم حرفوا اسمه من « يسوع » التي تنطق بالعبرية « يشوع » ومعناها المخلص ، فسموه « يشو » وهو تحريف خبيث بنوه على حساب عددي لحروف هذه الكلمة ، إذ هي بحساب الجمل تساوي ثلثمائة وستة عشر وقد جعلوها رمزاً لعبارة سرية فيما بينهم تساوي في هذا الحساب نفس القيمة، وهي العبارة الآرامية «نبلا بريكا» التي معناها «الرِّمة المقدسة» ينعتون بها السيد المسيح عليه السلام.

والواقع أن الحلم المسيحاني لم يكفّ عن مداعبة خيال اليهود منذ

السبي البابلي وحتى القرن العشرين . يقول النبي دانيال : (الإصحاح السابع ، الآية ١٣ وما بعدها) : « ورأيت في رؤى الليل فإذا بمثل ابن آدم آتياً على سحاب السماء حتى وصل إلى الأزليّ فقدم بين يديه ، وأوتي سلطاناً ومجداً وملكاً ، فجميع الشعوب والأمم والألسنة تتعبد له ، وسلطانه سلطان أبدي لا يزول وملكه لا ينقرض . فارتاع روحي ، أنا دانيال ، في وسط جسمي ، وأفزعتني رُؤى رأسي . فاقتربت إلى أحد الواقفين ، وسألته عن حقيقة ذلك كله ، فأخبرني وأعلمني بتعبير الكلام » ثم يستمر هذا الإصحاح نفسه في سياق تفسير أحلام دانيال ، وهي نبؤات سياسية وعسكرية متوقعة في آخر الزمان ، تنتهي بهلاك أعداء الرب وشعبه المختار ، واحداً تلو الآخر ، حتى يأتي آخر الظالمين « فينطق بأقوال ضد العليّ ويبتلى قديسي العلي ، ويخال أنه يغير الأزمنة والشريعة . وسيقعون في يده إلى زمان وزمانين ونصف زمان . ثم يجلس أهل القضاء فيزال سلطانه ويدمر ويباد على الدوام . أما الملك والسلطان ، وعظمة الملك تحت السماء بأسرها ، فتعطى لشعب القديسين للعليّ ، يكون ملكه ملكاً أبدياً ، وجميع السلاطين يصيرون عبيداً له ويطيعونه ! » .

ادِّعاء كثير من اليهود بأنه المسيح المنتظر :

وككل الأحلام التي تداعب خيال الشعوب ، ظفر الحلم اليهودي المسيحاني على مدى التاريخ بكثير من اليهود الذين يدّعي كل منهم أنه المسيح المنتظر .

ثيوداس :

فمن هؤلاء « ثيوداس » الذي ظهر سنة ٤٤ ميلادية ، فاتبعه جمهور كبير من اليهود ، وأراد أن يستغلهم لصالحه سياسياً ، فاجتمع بهم على نهر الأردن ، وادعى أنه سيفلق ماء النهر مثل موسى ليعبر هو والشعب معه . فعلم بأمره الحاكم العسكري الروماني للمنطقة ، وأرسل كتيبة من الفرسان فقتلت من هؤلاء اليهود عدداً كبيراً ، وقطعت رأس هذا المسيح وحملته معها إلى قائدها .

ويذكر المؤرخ يوسيفوس مسيحاً آخر من يهود مصر ، ذهب إلى جبل الزيتون المشرف على أورشليم وأخذ ينشر دعوته فآمن به نحو ثلاثين ألفاً ، وقد قال لهم إنه بإرادته ستنهدم الأسوار الرومانية عن مدينة القدس ، فيدخلها هو وأتباعه ويستولون عليها . فعلم بذلك حاكم المدينة فليكس (من سنة ٥٥ إلى ٦٠ م) وانقضّ عليهم بجيشه فقتل منهم الكثيرين ، وشتت جموعهم ، وهرب هذا المسيح فلم يظهر بعد ذلك .

والظاهر أن ادعاء يهوديٍّ مّا أنه المسيح المنتظر كان أمراً سهلاً هيناً يكاد يحدث كل يوم . فهذا هو المسيح عليه السلام يقول لتلاميذه وهو جالس على جبل الزيتون على انفراد : « احذروا أن يضلكم أحد ، لأن كثيرين سيأتون باسمي قائلين : أنا المسيح . ويضلون كثيرين » . (إنجيل متى ٢٤/٤ ـ ٥) وفي نفس هذا الإصحاح يقول المسيح : « لأنه سيكون حينئذٍ ضيق شديد لم يكن مثله منذ أول العالم إلى الآن ، ولن يكون . ولولا أن تلك الأيام ستقصر لما كان ينجو ذو جسد ، لكن لأجل المختارين ستقصر تلك الأيام . حينئذٍ إنْ قال لكم أحد إن المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا . لأنه سيكون هناك مُسَحَاء كذابون وأنبياء كذابون ، ويعطون آيات عظيمة وعجائب ، حتى إنهم يضلون المختارين لو أمكن . ها أنا قد تقدمت فأخبرتكم . فإن قالوا لكم ها هو في البرية فلا تخرجوا ، أو ها هو في الحجرات فلا تصدقوا » . (آيات ٢١ ـ ٢٦) .

وفي أعقاب ظهور المسيح عليه السلام ، وفي نفس الوقت الذي ظهر فيه ثيوداس تقريباً ، قام يهودي اسمه يهوذا الجليلي فادعى أنه المسيح كذلك « وأزاغ شعباً كثيراً اتبعوه ، فهلك هو أيضاً وتبدد جميع الذين أطاعوه » . (العهد الجديد ـ أعمال الرسل ٥/٢٧) .

ولكثرة من يدعي من اليهود أنه المسيح المنتظر كان الموظفون الرومان يخلطون بينهم . فمثلاً عندما دخل القديس بولس الهيكل في أورشليم ، وكان اتبع شريعة المسيح عليه السلام ، رآه اليهود في الهيكل ، فراحوا يصرخون : « يا رجال إسرائيل ، أغيثوا . هذا هو الرجل الذي يعلّم جميع

الناس في كل مكان خلاف ما عليه الشعب والشريعة وهذا المكان . وقد أدخل أيضاً يونانيين إلى الهيكل ودنّس هذا الموضع الطاهر ـ وذلك أنهم كانوا قد رأوا تروفيموس الأفسسي في المدينة معه، فظنوا أن بولس، قد أدخله الهيكل ـ فهاجت المدينة كلها وتبادر الشعب إلى بولس ، فأمسكوه وجروه إلى خارج الهيكل ، وفي الحال أغلقت الأبواب ، وفيما هم يريدون أن يقتلوه بلغ الخبر قائد الحامية بأن أورشليم كلها قد هاجت . فأخذ من ساعته جنوداً وقادة مائة[1] ، وأسرع إليهم ، فلما رأوا قائد الألف[2] والجند كفّوا عن ضرب بولس . ثم دنا إليه قائد الألف ، وأمسكه ، وأمر به أن يوثق بسلسلتين . وراح يسأله من هو وماذا صنع . وكان البعض يصيح في الجمع بشيء والبعض بشيء آخر ولما لم يستطع معرفة حقيقة الأمر بسبب الضجة ، أمر أن يذهبوا به إلى المعسكر . فلما بلغ الدرج حمله الجنود خوفاً من سطوة الجمهور ، فإن جمهور الشعب كانوا يتبعونه وهم يصرخون : خذوه . ولما قارب بولس أن يدخل المعسكر قال لقائد الألف : هل لي أن أكلمك ؟ فقال : هل تعرف اليونانية ؟ ألست أنت ذلك المصري الذي أثار قبل هذه الأيام هيجاناً ، وخرج إلى البرية بأربعة آلاف رجل من القتلة ؟ (أعمال الرسل ٢١/٢٨ ـ ٣٨) . ويبدو بوضوح أن القائد خلط بين بولس الرسول وبين اليهودي المصري الذي سبقت الإشارة إلى ادعائه أنه المسيح المنتظر .

بركوكبا :

وفي القرن الثاني الميلادي ، حوالي سنة ١٣٠ ، قام اليهودي الثائر « بركوكبا » بإعلان الجهاد المقدس لطرد الرومان وغيرهم من فلسطين ، والاستيلاء عليها لتكون وطناً لليهود . ولو أنه قصر الأمر على ذلك لكانت حركته حركة صهيونية عسكرية ككثير غيرها في تاريخ اليهود . ولكنه ادعى لأتباعه ـ أو لعلهم هم الذين ادعوا ـ أنه المخلّص والمسيح المنتظر . ولما جاء جيش الإمبراطور الروماني هدريان فأباد اليهود من فلسطين ، وغيّر أكثر آثارهم هناك بتهديمها ومحوها وتغيير أسمائها ، تبين لليهود أن هذا المسيح

(١) درجة من درجات الضباط تقارب درجة « نقيب » أو « كابتن » .

(٢) درجة عسكرية عليا تقارب درجة « مقدم » أو « قومندان ـ كولونيل » .

المنتظر لم يكن إلا دجالاً ، فغيروا اسمه من « بركوكبا » أي ابن الكوكب أو النجم وجعلوه «بركوزيا» أي ابن الكذاب. وكان اسمه الأصلي «بركوسيبا».

وبعد الضربة القاضية التي تلقاها اليهود من الامبراطور هـدريان، انكمشت الأحلام المسيحانية عندهم ، واكتفوا إما بالمعيشة في المنفى ، يجمعون المال ، أو ينكبون على دراسة شرائعهم ، ورواية تعاليمهم الشفوية ، التي تألف منها التلمود كما قلنا ، أو الحياة في ظل الفقر والخوف والتشرد . ولم يشعروا بشيء من العدالة والحرية إلا بعد ظهور الإسلام .

عوبديا :

ومع هذه الطمأنينة التي تمتعوا بها ، عاد المسيح المنتظر يداعب خيالهم من جديد ، فكان أول الأدعياء بعد ذلك هو إسحق بن يعقوب عُوبديا المعروف باسم أبي عيسى الأصفهاني . وقد عاش في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) . وهو من مواليد أصفهان ببلاد فارس ، وقد تناول الشريعة بالتغيير والتبديل ، ثم خلفه تلميذه « يوجدان » ، الذي ادعى بدوره أنه المسيح المنتظر ، وصدقه قوم كثيرون ، معتمدين على حسابات خرافية أساسها أن بين يوجدان هذا وبين دانيال ألفاً وثلثمائة وخمساً وثلاثين سنة، توهموا أنها المدة التي بشر دانيال ببعثه المسيح بعدها. وقد أطلقوا عليه لقب «الراعي» وإليه تنسب طائفة اليوجدانية أو اليودجانية من اليهود التي سننوه ببعض تعاليمها في موضعها من هذا الكتاب.

سيرينوس :

وفي أيام عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠ م) ظهر مسيح آخر في سوريا اسمه « سيرينوس » . ولعل السبب في ظهوره هو أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد لاحظ أن اليهود أساؤ وا استعمال الحرية التي نالوها في ظل الإسلام ، فبدأ يشدد الرقابة عليهم ويأخذهم بالحزم ، ويعاقبهم بشدة إذا انحرفوا عن جادة الصواب . وبالرغم من أن أخبار هذا المسيح الكذاب قليلة إلا أنه يبدو منها جميعاً سعيه لإقامة المجتمع اليهودي على حرية مطلقة ، تتوغل كثيراً في الفوضوية، بحجة تحريرهم من سلطة الحاكم. فقد قال بإلغاء

السلطة الملوكية وتعطيل شرائع التلمود ، والصلوات . وإلغاء عقود الزواج ، ورفع الحظر عن المحرمات في الطعام والشراب . . . إلخ . وقد استمر في دعوته إلى أيام الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان الذي تلا عمر بن عبد العزيز . وقد ألقى هذا الخليفة القبض عليه ، فأنكر جديته في هذه الدعوة ، وقال إنه كان يعبث لمجرد الضحك . فأرسله الخليفة ليسلم إلى بعض اليهود المتمسكين بدينهم ليتوب، وهكذا انتهت حركة سيرينوس هذا.

وعلى أثر ذلك رغب عدد كبير من اليهود الذين كانوا قد اتبعوه في العودة إلى الديانة اليهودية الرسمية ، ولكن الحاخامين الذين واجهوا هذه المشكلة لم يستطيعوا البت فيها ، وكان أكثرهم يميل إلى الاستمرار في اعتبار هؤلاء العائدين من أتباع هذا المسيح الكذاب كفاراً ، لا يمكن قبولهم في الدين من جديد . وأخيراً قرروا استفتاء شيخ الشريعة التلمودية الباقي في أكاديمية فومبديثا وهو الرِّبّي «الجاأون» نوطراي، فأفتى بأنه من المستحسن استمالة هؤلاء المنحرفين وإعادتهم إلى حظيرة اليهودية العامة . وقضى باستتابتهم وعودتهم إلى الإقرار بالإيمان باليهودية واعتبارهم بعد ذلك من بني إسرائيل بشكل كامل .

وتكرر انبثاق ظاهرة المسيح الكذاب في المجتمع اليهودي إبان الحروب الصليبية ، في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . ظهر واحد منهم في فرنسا ، ولكنه قتل عام ١٠٨٧ ، كما ظهر آخر في قرطبة عام ١١١٧ ، وثالث في فاس بالمغرب عام ١١٢٧ ، وقد تحدث عنهم موسى بن ميمون في كتابه « رسالة اليمن » .

داود الرائي :

ومن أشهر من ادعوا شخصية المسيح المخلّص داود الرائي . وهو داود بن سليمان من مواليد مدينة آمد في إقليم كردستان سنة ١١٣٥ . درس في شبابه التوراة والمدراش والمشنا والتلمود على أكبر أساتذة عصره ، ونذكر منهم الحاخام حَسْدَاي ، رئيس يهود العراق الذي كان لقبه الرسمي « رأس الجالوت » أي كبير الجالية اليهودية التي وجدت في العراق منذ أيام بختنصر

حسب زعم اليهود في ذلك ، كما درس على الجأون عِيلي ، شيخ علماء الشريعة اليهودية في بغداد إذ ذاك ، وكان لقبه الرسمي هو « رأس المثيبة » أي مدير الأكاديمية الشرعية اليهودية ، كما أن لقب « الجأون » الذي معناه الحرفي « الأفخم » أو « المعظم » كان يعطى لكبار علماء الشريعة اليهودية الذين أعقبوا عصر التلمود مباشرة ، أي من القرن الخامس الميلادي إلى مستهل القرن الثاني عشر أو بعده بقليل. كذلك أتقن داود الرائي علوم العرب التي كانت مزدهرة جداً في عصره ببغداد ، قاعدة العباسيين وكبرى عواصم العالم الإسلامي . وأوغل في تعلم التنجيم والسحر وسائر هذه المعارف السرية .

وقد بدأ داود الرائي خطواته الأولى نحو ادعاء أنه المسيح المنتظر حوالي سنة ١١٦٣ ، بمحاولة القيام بحركة صهيونية دعا إليها بين يهود بغداد والإقليم المحيط بها ؛ فكان ينادي بالذهاب إلى القدس وانتزاعها من أيدي العرب وإعلان حكم يهودي فيها . والواقع أن هذه الدعوة لم تكن مجرد نزوة في فكر داود الرائي ولكنها كانت قائمة على تخطيط مدروس . ذلك أن الصليبيين كانوا في ذلك الوقت يحاولون ضعضعة العالم العربي من جهات شتى وأساليب متنوعة ، منها الجاسوسية ، والحرب ، وبث الأراجيف والإشاعات ، وتشجيع حركات الزندقة والإلحاد ، وإثارة الأقليات الدينية والعنصرية ضد وحدة العالم العربي والإسلامي . وقد امتد هذا التخطيط الهدام إلى أعماق بلاد فارس وإلى سوريا ومصر ، وتنبه اليهودي داود الرائي إلى ذلك فأراد أن يغتنم الفرصة ويحاول إقامة هذه الصهيونية في صميم العصور الوسطى . ونجح فعلاً في إثارة الفتنة في الدولة السلجوقية ، وفي الخلافة العباسية نفسها ، سمى نفسه « مناحم » ومعناها بالعبرية « المُواسِي » ثم أطلق على نفسه لقب الملِك المخلّص « المسيح » . ولم يكتف بذلك بل راح يذيع بين يهود العالم العربي أن رسالته المقدسة هي خلاص بني إسرائيل من الغربة والاحتقار والتشرد في الأرض ، وجمعهم جميعاً في فلسطين ، واغتصاب هذه البلاد من العالم العربي ، وإعلان حكومة يهودية مستقلة فيها تعيد مملكة داود وسليمان .

وقد تحمس لذلك اليهود ، وبخاصة الأعداد الكبيرة منهم التي كانت تقيم في إقليم أذربيجان ، فكونوا جيشاً من المتطوعين وضعوه تحت قيادة هذا المسيح الكذاب نفسه . ومن مقر قيادته راح يرسل الدعوة سراً إلى يهود الموصل وبغداد بأن ساعة الخلاص قد حانت ، ويطلب منهم مساعدته على تحقيق هذا الهدف ، بالقيام بأقصى ما وسعهم من أعمال التخريب والإرهاب وإشاعة الفوضى في دولة العرب .

وقرر داود الرائي أن يشن هجوماً حربياً بجيشه هذا على المسلمين ، ورأى أن يبدأ بالاستيلاء على مدينة آمد التي ولد فيها ، ولكن جيوش المسلمين فتكت به وأحبطت هجومه ، وقتل هو نفسه في هذه المعركة.

وعلى عادة اليهود ، سرعان ما تحول داود الرائي بعد قتله إلى أسطورة حافلة بالخوارق والمعجزات الخرافية . فقد حكى الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي ، الذي قام برحلته بعد هذه الحوادث بعشر سنين فقط ـ سنة ١١٧٣ ـ أنه سمع من اليهود في تلك المنطقة بقيام مسيح مخلص يدعي أن الله أرسله لاحتلال القدس وتخليص اليهود من حكم الأمم الأخرى . وأن كثيراً من اليهود آمنوا به ، وبأنه المسيح المنتظر . فلما سمع بذلك أمير خراسان المسلم بعث إليه يستدعيه . فلما حضر بين يديه استجوبه فأكد له داود الرائي أنه المسيح نفسه . فأمر بوضعه في السجن بمدينة طبرستان . وبمجرد وصوله إلى السجن وإغلاق الأبواب عليه ، فوجىء الأمير برؤيته واقفاً أمامه ، فصاح بالحرس ليقبضوا عليه ، فأجاب الحراس بأنهم لا يرون إنساناً ولكنهم يسمعون صوته فقط ! وانصرف داود الرائي من القصر ، وركب فرسه ومشى به على ماء النهر حتى عبره ، فلم يستطع الجنود اللحاق به ، لأنهم بعد عبورهم على أثره تبينوا أنه قطع مسيرة عشرة أيام في يوم واحد .

ويقال إنه لما وصل إلى آمد، أرسل حاكم خراسان بالخبر إلى أمير المؤمنين في بغداد ، حتى يتصل برؤساء الدين اليهودي ، ليحذروا أبناء طائفتهم من هذا المسيح الكذاب ، وإلا وجب قتل كل اليهود في خراسان فكتبوا إلى داود الرائي يطالبونه بالكف عن حركته لأن زمان الخلاص لم يحن

بعد ، وعلاماته لم تظهر . وهددوه بإعلان تكفيره إذا تمادى في عمله . كذلك كتب الحاخام الأكبر زكاي رئيس يهود العراق ، والعالم اليهودي المنجم يوسف المعروف بلقب برهان الفلك ، محاولين رد داود الرائي عن عزمه . ولكن كل هذه المحاولات لم تفلح ، فأهدر أمير خراسان دمه ، وجعل لمن يقتله سراً مكافأة قدرها عشرة آلاف دينار وتم اغتياله فعلاً ، وهكذا انتهت دعوته . وطالب أمير خراسان اليهود بغرامة قدرها مائة قنطار من الذهب ، تعويضاً عما أحدثوه من أضرار بالدولة بسبب قيام هذا المسيح الكذاب بينهم. وزعم بعض اليهود أنه كان يشفي الأبرص، كما ذكر بعضهم أنه قال للأمير عندما ادعى أنه المسيح وسأله الأمير عن معجزتـه إنه لو قطعت رأسه بالسيف فلن يموت ، فأمر الأمير بقطعها ، ومات . ولكن بعض المؤمنين به بقوا زمناً طويلاً ينتظرون عودته ، وكانت فرقتهم تسمى « النحمانيين » نسبة إلى « نحمان » أو « مناحم » التي معناها المواسي ، والتي كانت من ألقاب داود الرائي كما ذكرنا .

أشر إملين :

وفي سنة ١٥٠٢ ادعى اليهودي الألماني أشر إمْلين أنه المسيح الحق ، وأن الله أرسله أيضاً للاستيلاء على فلسطين وإقامة دولة لليهود بها . فآمن به عدد كبير . وأمرهم أن يهدموا الأفران التي يخبزون فيها خبز الفصح الشرعي المعروف باسم « مَصَّة » ، وعلل ذلك بأنهم في الفصح القادم سيخبزونه في القدس ، فأطاعوه . ولكنه مات بالسكتة في هذه السنة ، فتزعزع إيمانهم ، لدرجة أن بعضهم ترك الديانة اليهودية كلها واعتنق المسيحية .

داود الرأوبيني:

وممن يجدر ذكرهم في ادعاء شخصية المسيح داود الرأوبيني ، الذي ولد حوالي سنة ١٤٩٠ ميلادية في خيبر بالقرب من المدينة المنورة ، وتوفي في إسبانيا سنة ١٥٣٥ . بدأ دعوته بقوله إنه الوريث الشرعي لعرش مملكة خيبر اليهودية التي أسقطها الإسلام . وأرسل إلى البابا في روما ، وإلى ملوك أوروبا يطلب منهم أن يمدوه بالأموال والأسلحة حتى يحارب العرب . واستقبله البابا « كليمنت السابع » في الفاتيكان بحفاوة كبيرة سنة ١٥٢٤ .

وفي السنة التالية جرى له استقبال رسمي في قصر ملك البرتغال ، وكثر أتباعه في أوروبا وذاع صيته بين اليهود جميعاً . ولكن حدث أن كثيراً من اليهود الذين كانوا قد تنصَّروا هم وذريتهم تحت ضغط محاكم التفتيش المسيحية في إسبانيا والبرتغال بدأوا يتركون المسيحية ويتهودون من جديد ، وكان من بين هؤلاء اليهودي المتنصر « دييجو بيريز » الذي اتبع هذا المسيح وتهود من جديد وأصبح اسمه « سلومون مولخو » . وقد أحدث ذلك رد فعل في غاية السوء بالنسبة لهذا المسيح الكذاب ، خصوصاً بعد أن تقرر إحراق مولخو علناً لخروجه من المسيحية وهكذا تم القبض على داود الرأوبيني في إسبانيا وأودع السجن ، ووضع له السم في طعامه فمات .

شبتاي صْبِي :

والمسيح الكذاب التالي شخصية عجيبة بلغت غاية الخطورة وغاية الهزل في آن واحد ، هي شخصية شبتاي صبي (وتنطق زفي خطأ) .

ولد في مدينة أزمير في صيف ١٦٢٦ ومات في ألبانيا سنة ١٦٧٥ . وكان أبوه ، مردخاي صبي ، من سلالة أسرة يهوديةإشكنازية (ألمانية) نزحت واستقر بها المطاف في أزمير ، بعد إقامة في شبه جزيرة المورة في بلاد اليونان .

بدأ أبوه في الاشتغال بتجارة البيض والطيور ، ثم أصبح مندوباً لشركة تجارية بريطانية ، وربح من ورائها ربحاً كبيراً . وكان ابنه شبتاي على ما يبدو ذكياً غاية الذكاء . دخل في سن السادسة إلى مدرسة يهودية شهيرة تعلم فيها التوراة والتلمود ، فما أن بلغ الخامسة عشرة حتى كان يتعاطى التدريس، واستمر في نفس الوقت في دراسة « القبالة » وهي علم التأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود . وفي سن الثامنة عشرة رخص له بأن يمارس الأستاذية وتخريج الطلاب . واشتهر إلى جانب ذلك بهيئته الجميلة وطلاقة لسانه في الحديث والخطابة . وقد لوحظ عليه حب العزلة ، وكثرة التطهر بالغطاس في ماء البحر صيفاً وشتاء . وفي هذا الوقت قام نزاع مسلح بين تركيا وإمارة البندقية حول السيطرة على جزيرة كريت ، فنشطت هذه الحرب التجارة في

أزمير وأصبح أبو شبتاي من كبار الأغنياء . فخطب لابنه بنت ثري كبير من أثرياء اليهود ، وكانت غاية في الجمال ، ولكن يقال إنه لم يدخل بها وطلقها. وتزوج من فتاة أخرى ، ولكنه طلقها أيضاً دون أن يدخل بها .

أثرت عليه دراسته لعلم « القبالة » فأخذ يحسب الحسابات الفلكية والسرية ثم أعلن أن سنة خلاص بني إسرائيل هي سنة ١٦٤٧ . ثم إنه وجد أن هذا الخلاص محتاج إلى مجيء المسيح المنتظر ، ولم يجد في الأمة اليهودية كلها من هو أحق منه بهذه الرسالة ، وأعلن الأمر لتلاميذه فآمنوا به فوراً . ثم راح يشيع بين يهود المدينة خلاصة ما وصلت إليه حساباته الفلكية . ولما علم به رؤساء الدين اليهودي نظروا في دعوته وأعلنوا لعنتهم عليه وعلى المؤمنين به . فبدأ الرأي العام اليهودي في أزمير يتنكر له ، وحاول بعضهم الاعتداء عليه هو وتلاميذه بالضرب والقتل ، فهرب بحراً إلى القسطنطينية . وكان السلطان العثماني وكبار رجال حكومته موجودين في هذا الوقت خارج العاصمة في مدينة أدرنة . فانتهز شبتاي فرصة غياب السلطان وراح يبشر بالخلاص ، وقد وجد لمعاونته اليهودي أبراهام ياكيني ، الذي اجتهد في بث الدعوة . ولكن رؤساء اليهود في أزمير أرسلوا يحذرون منه في القسطنطينية . فأحس بالخطر وفر هو وأتباعه إلى مدينة سالونيك التي كانت مركزاً لدراسة علم القبالة .

هناك أقام في أمان وكثر حوله الأتباع والتلاميذ . واستمرت إقامته في هذه المدينة ثماني سنين . وفي إحدى الولائم خطر له أن يحول الوليمة إلى حفلة زواج يكون هو فيها العريس وتزف إليه التوراة كالعروس . وبعد ذلك أعلن للجموع المحتشدة أنه المسيح المنتظر . ولكن شيوخ الدين اليهودي في المدينة ينكرون عليه ذلك ويستصدرون حكماً من المحكمة المليّة اليهودية بكفره واستحقاقه للقتل ، فيلوذ بالفرار في أوائل عام ١٦٥٨ . وبقي سنة كاملة مشرداً في البلاد فذهب إلى أثينا . ثم هرب منها إلى أزمير ، ورجع إلى القسطنطينية. وأخذ يتعاطى التنجيم ورؤية الطوالع معلناً أن وقت الخلاص قد حان ، وأن دولة اليهود ستقوم في فلسطين .

ولكن المعارضة اشتدت عليه ، خصوصاً عندما ذهب إلى القسطنطينية فهرب إلى مسقط رأسه ، أزمير وأقام هناك ثلاث سنين ملتزماً الحيطة والسرية في اتصالاته .

ومن العجيب أن دعوته هذه تركت أثراً يشبه العدوى في الأوساط الإسلامية والمسيحية ، وانتشرت إشاعات مختلفة فيما بينهم ، فالمسلمون يقولون بظهور المهدي المنتظر عما قريب، والمسيحيون يحددون سنة ١٦٦٦ تاريخاً لتجلي السيد المسيح على الأرض، وبالغ بعض المسيحيين فراحوا يبشرون بأن هذه السنة هي سنة الخلاص لليهود أيضاً. وحركت هذه الإشاعات رغبة شبتاي صبي في أن يتمادى مرة أخرى في ادعاء أنه المسيح المنتظر. فاتجه سنة ١٦٦٢ أو ١٦٦٣ من أزمير إلى القدس ثم تركها وحضر إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة[١].

وفي القاهرة تعرف بيهودي من وجهاء المجتمع هو رفائيل يوسف جلبي ، مدير خزينة الدولة ورئيس الطائفة اليهودية بمصر . وقد آمن به هذا اليهودي المصري وأكرمه وأغدق عليه الأموال الطائلة . فقرر أن يقوم برحلة أخرى إلى القدس ، ماراً بمدينتي غزة والخليل .

كانت الأحوال الاقتصادية في فلسطين في ذلك الوقت قد بلغت من السوء درجة جعلت من بقي من أغنياء اليهود بها يهاجرون ، بحيث لم يبق هناك إلا قلة من البؤساء والصعاليك . وحتى هؤلاء كانوا في حال من الضيق واليأس جعلهم يرحبون بأية محاولة للتغيير . وانتهز الفرصة شبتاي صبي ، وراح يعلن البشائر في كل مكان ، وكثر أتباعه . والتزم هو في هذه الفترة أن يكثر من الصوم والتقشف والعبادة ، واهتم بتدريس المعارف الروحانية المتضمنة في كتب « القبالة » اليهودية . بل إنه كان يأخذ بعض

---

(١) « أوتصار يسرائيل » ـ دائرة المعارف اليهودية العبرية ـ نيويورك ـ المجلد العاشر ص ٥٢ ـ ٥٦ .
H. Graetz; Histoire des Juifs, traduit de l'Allemand par Moise Bloch; Paris, 1897 — Tome 5, p.194-210.

ضعفاء العقول ويذهب بهم إلى المقابر في الليالي المظلمة ، ويمارس عليهم تأثيراً نفسياً بحيث يؤكدون أنهم سمعوا أصواتاً في القبور تهتف وتقول « شبتاي صبي هو المسيح » وفي هذه الفترة ، اتخذ له بطانة من الناس ، كان أقربهم إليه يهودي أفّاق معروف بالإجرام اسمه صمويل فريمو .

وحدث في ذاك الوقت أن القائمقام (والي فلسطين) فرض إتاوة باهظة على اليهود. ففكر شبتاي صبي في أن يسوي لهم المشكلة بأن يطلب من صديقه اليهودي المصري رفائيل يوسف جلبي المساعدة . وفعلاً ترك القدس وعاد إلى القاهرة .

وتصادف في نفس هذه الفترة أنه كانت في أوروبا فتاة يهودية تريد أن تقلد في قومها ما صنعته جان دارك . كان اسم هذه الفتاة سارة ، وكانت قد هربت من بولونيا على أثر حملة من حملات اضطهاد اليهود[1] ، واستقر بها المطاف في أمستردام بهولندا . وهناك راحت تبشر بأن الأوان قد آن ليقوم على رأس الشعب اليهودي مبعوث من العناية الإلهية يكون مسيحاً وملكاً . وكانت سارة هذه على جانب كبير من الجمال ، بحيث كثر بين المؤمنين بها أهل الريبة والفسوق . وأخذت تطوف أوروبا حتى وصلت إلى مدينة « ليفورنو » بإيطاليا . وما أن سمع شبتاي صبي وهو في القاهرة بهذه الفتاة حتى أرسل يستدعيها ليتخذها زوجة . أما رفائيل يوسف جلبي فإنه أعطى شبتاي صبي مبلغاً ضخماً من المال مساعدة منه ليهود القدس في دفع الإتاوة المفروضة عليهم .

وذهب هذا المسيح الكذاب لأداء المهمة فمر بمدينة غزة ، والتقى هناك بيهودي آخر ، من أصل إشكنازي (ألماني) اسمه ناتان بنيامين هاليفي ، الذي يعرف في تاريخ هذه الحركة باسم ناتان الغزاوي . فجعله شبتاي صبي من صحابته المقربين ، وأعلن أنه نبي في إسرائيل ، واتفق معه

---

(١) تسمى حملات التنكيل باليهود هذه ـ وخاصة في أوروبا الشرقية ـ البوجروم Pogrom وهي غارة كان أعداء اليهود والمتعصبون ضدهم يشنونها على مراكز التجمع اليهودية فيعيثون فيها بالقتل والنهب والإحراق والاغتصاب وانتهاك الأعراض ونحو ذلك.

على تزييف وثيقة تشهد بأن شبتاي صبي هو المسيح المنتظر . فأحضر قطعة قديمة جداً من رق الغزال ، وأزال منها الكتابة القديمة ، وكتبا عليها نصاً يثبت هذه الأكذوبة ، وأظهرا الصحيفة للناس . ثم دخل القدس في حفل حافل في أخريات سنة ١٦٦٤ ، فأعلن بنفسه أنه المسيح ، وأنه المتصرف في مصير العالم كله .

وثارت ثائرة الحاخامين ، القائمين على أمر الدين اليهودي في شكله التقليدي العام المتوارث . وجمع الموجودون منهم في القدس كل قواهم وهجموا على هذا المسيح الكذاب هجوم المستميت حتى طردوه هو وتابعه ناتان الغزاوي . وبمجرد وصول هذا الأخير إلى غزة بعث بمنشور لكل أتباع مسيحه يطلب منهم أن يبشروا في كل مكان بأن شبتاي صبي ـ الذي كان مختفياً في هذا الوقت ـ سيظهر للناس. وكان أول ظهوره في مدينة أزمير . وفي عيد رأس السنة اليهودية الموافق يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٦٦٥ ، سارت المواكب من أتباعه تهلل وتنفخ في الأبواق وتعلن التجلي الأعظم للمسيح المنتظر . فاشتد غضب رؤساء اليهود ، وأعلنوا الفتوى الشرعية بإهدار دمه ، ولكن أحداً لم يجرؤ على المساس به لكثرة أتباعه .

وبدأت مع ذلك فترة صعبة من المناوشات والمعارك بين أتباعه وبين اليهود التقليديين . وفي تلك الفترة أباح شبتاي صبي لأتباعه أن ينطقوا اسم الله الأعظم « يهوه » الذي كان محرماً على اليهود النطق به ـ ومايزال ـ بسبب الغضب الإلهي الذي أقرّوا بأنه حل عليهم ، والذي انتهى بالسبي البابلي على يد بختنصر . فمنذ هذا الوقت كانوا إذا وصلوا في قراءتهم إلى هذه الحروف الأربعة « يهوه » نطقوها « آدوناي » أي مولانا . وكان شبتاي صبي يزعم أن غضب الله ارتفع عن الأمة ببعثته وأن الاسم الممنوع قد أصبح مباحاً .

وفي يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٦٦٥ ، وكان صاحبنا في أوج مجده وانتصاره على الحاخامين اليهود ، استدعي للمثول أمام قاضي المسلمين التركي ، فأشاع أنه سيذهب للقائه ويقيم الدليل على صحة دعواه بعمل

بعض المعجزات والخوارق . وانتشرت هذه الشائعات ، وأصبح الناس في الشوارع والأسواق يحكون القصص الخيالية عن هذه المعجزات . وكثر المؤمنون به في مدينة أزمير ، حتى لوحظ أن الأطفال كانوا يتغنون بكراماته في الشوارع . ويقول مؤرخو هذه الفترة من اليهود التقليديين المعادين لحركة هذا الرجل إن السبب في سكوت دوائر الأمن التركية عنه طيلة هذه المدة أنه كان يدفع لهم مبالغ طائلة من المال رشوة حتى يغمضوا أعينهم عنه ، يضاف إلى ذلك أن هؤلاء المسؤولين الأتراك كانوا يكرهون اليهود ويحتقرونهم ، ولا يهمهم ان تحدث مثل هذه الفتن الدينية في أوساطهم .

ومع ذلك فقد وصلت أخبار هذه الفتنة إلى الوزير التركي « كوبرلي » بالقسطنطينية ، وإذا بقاضي ازمير يعلن شبتاي صبي بأنه مطلوب منه التوجه إلى العاصمة في ظرف ثلاثة أيام . فقال له شبتاي صبي إنه سيذهب ليقيم الدليل على صحة نبوته أمام الوزير . فاستشاط كوبرلي باشا غضباً ، وأرسل إلى قائمقام أزمير أمراً بالقبض على هذا الدجال وإرساله في الحديد ، وتحت الحراسة ، إلى العاصمة .

وتم ترحيله بحراً من أزمير يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٦٦٥ ، ولكن البحر في فصل الشتاء هذا كان هائجاً جداً ، فطالت الرحلة إلى يوم ٤ فبراير سنة ١٦٦٦ ، ولم تصل إلى غايتها ، بل أصيبت السفينة بعطل قرب مضيق الدردنيل ، فأنزل ركابها إلى الأرض ، وأقيمت حراسة مشددة على شبتاي صبي ، الذي استمرت رحلته في عربة بطريق البر حتى وصل إلى قرية قريبة من القسطنطينية تدعى « كوجوك جكمجي » .

ووصل خبر وجوده إلى يهود العاصمة التركية فخرجوا للاحتفال باستقباله ، فعاد إليه الأمل القديم في الاستمرار في ادعاء النبوة ، ولكن أحد الضباط الأتراك الموكلين بحراسته عندما سمعه يردد أنه المسيح المبعوث من السماء صفعه على وجهه علناً ، فحاول أن يستمر في ادعائه وأدار له الخد الآخر ليصفعه أيضاً . وعندما مثل أمام الوزير أحمد باشا كوبرلي سأله من هو ، وماذا دعاه إلى إثارة هذه الفتنة . فأنكر في إجابته أنه ادعى شيئاً مما

يقال ، وزعم أنه مجرد رجل دين يهودي من القدس ، يجوب البلاد ليجمع الصدقات . ولكن كوبرلي لم يأخذ بقوله وأمر بوضعه في السجن . ثم نقل من سجن إلى سجن خشية أن يحاول المؤمنون به إخراجه بالقوة أو بالحيلة ، حتى وضع في النهاية في قلعة حصينة على الدردنيل اسمها « إقليد البحر » أي مفتاح البحر ، ومنذ ذلك الوقت يسميها أتباع شبتاي صبي إلى اليوم « إقليد العز » ويعظمونها ، لارتباطها بسيرة زعيمهم .

وبعد اتصالات مختلفة أحضره حاكم أدرنة إلى هذه المدينة التي كانت مقراً للحكومة في ذاك الوقت . وفي يوم ١٦ سبتمبر سنة ١٦٦٦ ادخل شبتاي صبي للمثول أمام السلطان التركي محمد الرابع . وفي هذه المقابلة أعلن أنه يريد الدخول في الإسلام . ووافق السلطان وحاشيته ، وأعلن شبتاي صبي اعتناقه للديانة المحمدية ، وأصبح اسمه محمد أفندي ولقبه « قافوجي باشى إيطراق » ومعناها خادم الأعتاب ، كما أعلن أن زوجته سارة قد أسلمت أيضاً وأصبح اسمها فاطمة قادن ، أي السيدة فاطمة .

وبالرغم من إسلامه ، وإتقانه للغة العربية والتركية ودراسته للقرآن وتفسيره على يد مفتي الأتراك ، فإنه لم يقطع الأمل في قيادة حركة جديدة بين اليهود . وقد كتب للمؤمنين به من اليهود ، بعد دخوله في الإسلام بتسعة أيام فقط ، رسالة يقول فيها : « الآن ألحقوني بنسل إسماعيل (العرب) ، ومع ذلك فأنا أخوكم محمد قافوجي باشى إيطراق» وكان كلما قابل بعض أتباعه القدماء أنكر الإسلام ، وأفهمهم أنه مجرد ستار يحتمي به ويتخفى وراءه . فإذا التقى بالأتراك راح يتهم اليهود بالسخرية من الإسلام والدس على المسلمين ، محاولاً بذلك استمرار الفتن في أدرنة والقسطنطينية . وبعد سنوات أحس الأتراك بخطورته فنفوه إلى ألبانيا، وحددوا إقامته في قرية داخلية سكانها جميعاً من الأرناؤوط ، ويصعب على اليهود الاقتراب منها ، وهي قرية « الباسان » وهناك عاش يتصل باليهود عن طريق الرسائل والمندوبين إلى أن مات في ٣٠ سبتمبر سنة ١٦٧٥ بمرض الكوليرا ، ودفن في مقابر المسلمين الأتراك في هذا المكان .

وأتباع هذا المسيح الكذاب يسمون « الدونمة » ، وقد كتبها بعض المؤرخين « الدومنة » ، ويظهر أن التسمية كانت في الأصل تعني الفرقة ذات الأصلين اليهودي والمسلم أو التركي . وأتباع هذه الفرقة يسمون أنفسهم « المؤمنون » وهم قليلو العدد لا يتجاوزون بضعة آلاف ، أكثرهم متمركز في إقليم سالونيك .

والذي دعانا إلى تخصيص هذا الوجه اليهودي العجيب بوقفة طويلة هنا ، هو أن تلك الظاهرة ، وهي ظاهرة الازدواجية الدينية عند بعض طوائف اليهود تكررت في تاريخهم ، فقد ظهر اليهود « المارانوس » في البرتغال على أثر محاكم التفتيش الكاثوليكية ، وكونوا فرقة يهودية في جوهرها كاثوليكية في مظهرها الخارجي فهم يبنون معابدهم على شكل الكنائس ، ويظهرون في الحياة العامة بمظهر لا يميزهم عن الكاثوليك ، بينما هم في عباداتهم وعقيدتهم يهود متعصبون حاقدون على الأمم الأخرى والعجيب أنهم بعد نهاية عصور الاضطهاد الديني لم يرجعوا عن هذا المظهر الذي اتخذوه لأنفسهم وأصبحوا فرقة وحدهم .

كذلك يهود الدونمة الذين استمروا في التخفي وراء واجهة إسلامية، مع بقائهم على الولاء لأصلهم اليهودي ، واعتقادهم أن شبتاي صبي لم يمت وأنه سيعود في يوم ما لممارسة سلطته الزمنية والدينية مسيحاً وملكاً .

وبعد موت شبتاي صبي ورثه ابنه يعقوب صبي في رئاسة الفرقة ، فادعى هو أيضاً أنه المسيح وأمر أتباعه بإظهار الديانة الإسلامية ، فتبعه نحو أربعمائة يهودي ، أعلنوا الإسلام سنة ١٦٨٧ . وسافر هو إلى مكة للحج سنة ١٦٩٠ ، وفي طريق العودة مرض ومات في الاسكندرية .

وورثه ابنه « بركيا » (١٦٩٥ ـ ١٧٤٠) وادعى أيضاً أنه المسيح المنتظر . ثم جاء واحد من نفس فرقة الدونمة فزعم نفس الزعم وقال إنه المسيح ابن يوسف .

مردخاي :

وفي نفس تلك الفترة ظهر مسيح آخر من أتباع شبتاي صبي اسمه

مردخاي من مدينة ايزنشتادت . وقاد حركة كبيرة مؤداها أن رجوع شبتاي صبي من السماء سيكون بعد ثلاث سنوات . ومرت هذه المدة دون أن يرجع صاحبه ، فقلق أتباعه ، ولكنه وجد لهم فتوى أقنعتهم وهي أن شبتاي صبي قد أضاع صفة المسيح لأنه عندما ظهر في هذه الدنيا أصبح كثير المال واسع الثراء ، ومن علامات المسيح المنتظر أنه يركب حماراً ، ولما كان هو نفسه فقيراً جداً ، فقد ركب لهم حماراً وادعى أنه هو شخصياً المسيح ابن داود . ووصل صيته إلى إيطاليا ، فدعاه يهود روما للاحتفال به سنة ١٦٨٠ ، ولكن قساوسة محاكم التفتيش علموا بأمره وقرروا قتله، فهرب من روما إلى بولنده وظل مختفياً بها إلى أن مات .

يعقوب فرانك :

ومن أشهر الذين ادعوا المسيحانية يعقوب فرانك المولود سنة ١٧٢٦ . وهو مؤسس فرقة مشهورة باسم الفرانكية . وكان يعتقد بتقمص الأرواح ، ويقول إن روح المسيح سكنت أولاً في سيدنا داود ، وفي النبي إلياهو ، ثم انتقلت إلى يسوع المسيح (عيسى بن مريم) ، ومنها إلى نبي المسلمين محمد ﷺ ، وحلت بعد ذلك في شبتاي صبي ، وتلاميذه ، حتى وصلت إلى بركيا ، ثم انتقلت الصفة المسيحانية إليه هو شخصياً . فسمى نفسه ، « سانتو سنيور » أي السيد المقدس ، وأعلن الكفر بالتلمود ، وزعم أتباعه أنه يصنع المعجزات . بدأ ذلك كله في إقليم « بودوليا » في الجنوب الغربي من روسيا ، بالقرب من منطقة غاليسيا . وقد انتهى بقرار من السلطات الروسية بطرده هو وأتباعه من البلاد . ولكنه عاد إليها سنة ١٧٥٩ ، وأعلن هو وتلاميذه الدخول في الديانة المسيحية ، وكان عددهم جميعاً حوالي ألف . ولكن الإشاعات انتشرت بأنهم تنصروا في الظاهر فقط . فقبض على يعقوب فرانك وقدم للمحاكمة ، ويقول المؤرخون له من اليهود الفرانكية ؛ ان القاضي الذي نظر في أمره كان ملحداً لا يؤمن بالله ولا بدين من الأديان ؛ فحكم عليه بالسجن . وقد مات سنة ١٧٩١ ودفن في المقابر المسيحية بمدينة أوفنباخ .

الفصل الثالث

الشريعة الموسوية وتطوير الدين اليهودي

اليهود اليوم واليهود أيام سليمان :

يتبين لنا من تلك الجولة التي قمنا بها حتى الآن خلال النصوص المقدسة عند اليهود، ومما ذكرناه من وصولهم في وقت متأخر، إلى الاعتقاد باليوم الآخر ، والأمل في مجيء المسيح المخلص ، وما كان من استغلال بعض المفتونين أو الدجالين لهذا الأمل ، أن الفكر الديني لدى اليهود كان يتسم بظاهرة ينفرد بها دون الأديان السماوية ، وهي بقاء بابه مفتوحاً على مصراعيه لكل ألوان التطور ، بحيث أصبح اليهودي اليوم لا يشبه ما كان عليه اليهود على أيام داود وسليمان ، فضلاً عن أولئك الأقوام الذين عاشوا في البداوة تحت حكم القضاة ، أو الرعيل الأول الذي اتبع تعاليم موسى وهارون . فالنصوص تغيرت ، والظروف التاريخية كذلك ، والعقائد والطقوس أيضاً ، بحيث يجد مؤرخ الفكر اليهودي نفسه أمام عدة أديان ومجتمعات مختلفة ، غريبة بعضها عن بعض ، لا تتفق إلا في الاسم ، وتدخل بسببه في ركام متكتّل .

القرآن والتوراة :

ولو أننا ألقينا نظرة على الإسلام وحاولنا المقارنة من وجهة النظر

هذه ، لوجدنا أن النص المقدس الذي بين أيدي المسلمين ، وهو القرآن الكريم ، قد جاء به نبي واحد هو سيدنا محمد ﷺ ، وأنه كمل كله في حياته ، على مدى ثلاث وعشرين سنة ، كان أثناءها حريصاً على تقييده بالكتابة ، يأمر بذلك كتبة الوحي ، ويمليه عليهم ، ويراجعه معهم . وكان يمنع من كتابة ما ليس بقرآن موحى به من حديثه الشريف ، حتى لا تختلط النصوص . وكان يشجع على حفظ القرآن وترتيله بحيث لم يكن هناك أدنى شك في هذا النص عند وفاته ﷺ ، وقد جمعه أبو بكر الصديق ، ونسخه ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان من الصحابة الحافظين له ومن النسخ النبوية نفسها، ورتبه في صورته المعروفة لنا. وقد تم ذلك كله بعد وفاة الرسول بأقل من عشرين عاماً. فهذا الكتاب الذي بين أيدي المسلمين يبدو ولا سبيل إلى تشبيهه من قريب أو من بعيد بالنصوص المقدسة التي بين أيدي اليهود، فالعهد القديم وحده يستغرق أجيالاً من الأنبياء المتعاقبين على مدى ألف سنة تقريباً، ولو أننا أضفنا إلى ذلك المشنا والتلمود، وهي نصوص مقدسة عندهم يكفّرون من يرفضها لوجدنا تراثاً شرعياً يغطي ألفي سنة، وهي فترة لا يمكن تصور مجتمعين متشابهين أحدهما على طرفها الأول والثاني على طرفها الأخير.

العهد الجديد والتوراة :

ولو أننا حاولنا نفس تلك المقارنة بين النص المقدس المسيحي ، وهو العهد الجديد ، وهذا التراث اليهودي ، للاحظنا أن السيد المسيح قام ونشر دعوته في وقت قصير جداً ، حوالي ثلاث سنين ، ثم حمل حواريوه وتلاميذه دعوته وأقواله من بعده ، ثم تم الاتفاق على روايات معينة للأناجيل وأعمال الرسل ورسائل القديسين الأوائل ، منذ القرن الثاني بعد المسيح ، استبعد ما سواها من نقول ونصوص ، بدا لآباء الكنيسة المسيحية القديمة أنها غير جامعة للشروط التي يتطلبونها في النصوص المقدسة . وبعد ذلك أغلق الباب ، فلم يعد هناك من سبيل إلى تصور نص يرتفع إلى مستوى الثقة والقدسية التي للعهد الجديد .

أثر الفكر اليوناني في التوراة :

ومهما قيل بعد ذلك من أن باب الاجتهاد ظل مفتوحاً ـ وما يزال في رأي بعض الفقهاء ـ في الإسلام والمسيحية جميعاً ، ومهما قيل من الاعتقاد في عصمة البابوات أو الأئمة لدى طوائف من المسيحيين أو المسلمين ، فالذي لا شك فيه هو أن القرآن يقف محوراً للشريعة الإسلامية كما أن الإنجيل هو عصب الديانة المسيحية ، بينما يبدو الأمر مختلفاً جداً فيما يتصل بتوراة موسى في الديانة اليهودية . فهي لم تعد غير حلقة في سلسلة طويلة جداً من نصوص لها عند اليهود نفس التقديس، تشمل كما قلنا كتب الأنبياء الأوائل والأواخر، وأسفار الحكمة، ثم تنسحب على المشنا والتلمود والمدراش. . . إلخ. وبالرغم مما يقال في الأوساط الدينية اليهودية من أن كل هذه النصوص تتفق بعضها مع بعضها ، وأنها ترتفع ـ بطريقة تعبدية ميتافيزيقية بحتة ـ إلى سيدنا موسى، فإن التطور الفكري مع الزمن ، والتأثر بالتيارات الروحية والفلسفية الأجنبية يبدو فيها واضحاً. ولعل من المفيد هنا أن نعطي للقارىء العربي فكرة عن ذلك من خلال الباب المسمى « فقرات الآباء » من الجزء الرابع من المشنا ، حيث يبدو أثر الفكر اليوناني بحدوده ورسومه وتقسيماته ، ومثله الخلقية والاجتماعية واضحاً . جاء في الفصل الأول من هذه الفقرات :

١ ـ تلقى موسى التوراة من سيناء ، وبلغها ليوشع ، ويوشع للأوائل ، والأوائل للأنبياء ، وبلغها الأنبياء لرجال الكنيسة الكبرى . وهم أوصوا بثلاثة أشياء فقالوا : كونوا مدققين في الحكم ، وأكثروا من التلاميذ ، واجعلوا سياجاً للتوراة .

٢ ـ وكان شمعون الصديق من بقايا رجال الكنيسة الكبرى ، وكان يقول : إن الدنيا تقوم على ثلاثة أمور ، التوراة ، والعبادة ، والإحسان .

٣ ـ وتلقى أنطيجونوس السوخي من شمعون الصديق ، وكان يقول : لا تكونوا كعبيد يخدمون السيد بغرض تسلم المكافأة ، بل كونوا كعبيد يخدمون السيد بلا غرض في تسلم مكافأة ، فعندئذٍ تحل عليكم التقوى من السماء .

٤ ـ وعن هؤلاء تلقى يسَّى بن يوعزر الصردي ، ويسَّى بن يوحنا المقدسي . وكان الأول يقول : ليكن بيتك منتدى للحكماء ، وتعلق بتراب أقدامهم ، وكن متعطشاً إلى الارتواء بكلامهم .

٥ ـ وكان الثاني يقول : ليكن بيتك مفتوحاً للجميع ، وليكن الفقراء كأهل بيتك ، ولا تكثر الحديث مع النساء . قالوا حتى حديث الإنسان مع امرأته ، فكيف بامرأة غيره . ولذلك قالت الحكماء : كل من يكثر الحديث مع النساء يجلب شراً على نفسه إذ يهمل من وصايا التوراة ، ونصيبه في النهاية جهنم .

٦ ـ وأخذ يوشع بن فرحيا ، ونتاي الأربلي عنهما . وكان الأول يقول : اتخذ لك أستاذاً ، واغنم صاحباً ، واحكم على كل إنسان بالخير .

٧ ـ وكان الثاني يقول : ابتعد عن جار السوء ، ولا تؤاخ الشرير ، ولا تتهرب من القصاص .

٨ ـ وأخذ عنهما يهوذا بن طباي ، وشمعون بن شاطاح . وكان الأول يقول : لا تسعَ بنفسك إلى القضاء في الخصومات . وإذا وقف أصحاب الخصومة أمامك فليكونوا في عينيك كالمذنبين ، فإذا ما انصرفوا من لدنك وقد حكمت بينهم وقبلوا حكمك فليكونوا في نظرك كالأبرياء .

٩ ـ وكان الثاني يقول : أكثر من استجواب الشهود ، وكن حذراً في كلامك ، حتى لا يعتمدوا عليه في الكذب .

١٠ ـ وأخذ عنهما شمعيا ، وأبطليون . وكان الأول يقول : عليك بحب العمل ، وكره التملق ، وإياك والسعي للتقرب من العظماء .

١١ ـ وكان الثاني يقول : أيها العلماء احترسوا في لفظكم حتى لا تخطئوا خطيئة توجب عليكم السبي ، فتنفون إلى حيث المشرب الرديء ، فيشرب تلاميذكم الآتون بعدكم ويموتون ، ويستباح اسم رب السماء .

١٢ ـ وأخذ عنهما هِلِيل ، وشمَّاي وكان الأول يقول : كونوا من تلاميذ

هارون فقد كان يحب السلام ، ويبحث عنه جاهداً . وكان يحب الخليقة ، ويقربها من التوراة .

١٣ ـ وكان يقول : الساعي للاستزادة من العظمة يفقد ما عنده منها ، والذي لا يستزيد من المعرفة ينتقصها ، والذي يرفض العلم يستحق القتل والمعتمد على تاجه يسقط .

١٤ ـ وكان يقول أيضاً : إذا لم أكن لنفسي فمن يكون لي ؟ وإذا كنت لنفسي فقط فمن أكون ؟ وإذا لم أبدأ الآن فمتى ؟

١٥ ـ وكان شمّاي يقول : أجعل النفقة في الشريعة عادتك ، وتكلم قليلاً واعمل كثيراً ، واستقبل كل إنسان بوجه بشوش .

١٦ ـ وكان سيدنا جمليئيل يقول : اتخذ لك معلماً ، وتخلص باليقين من الشك ، وحتى زكاة العشر لا تؤدها بدون حساب .

١٧ ـ وكان شمعون ابنه يقول : نشأت طيلة حياتي بين العلماء فلم أجد خيراً من الصمت . وليس التفقه في العلم هو الأصل ، بل الأصل هو العمل . ومن كثر لغطه كثر غلطه .

١٨ ـ وكان يقول أيضاً : الدنيا تقوم على ثلاثة أشياء ، على الحق ، والعدل ، والسلام ، كما قال : « احكموا عند أبوابكم بالحق والعدل والسلام » . (زكريا ١٦/٨) .

وهذا النص من المشنا ، قد دخل في الصلوات اليهودية ، ليفهم منه المتعبد ـ غلطاً بطبيعة الحال ـ أنه من موسى إلى ما بعد ميلاد المسيح، تتصل أجيال متعاقبة من القدسية السماوية في إسرائيل .

أركان الإيمان اليهودي :

وقد ذكرنا من قبل أن البون شاسع جداً بين الشريعة الموسوية الفطرية وما أعقبها ، وسنعطي هنا خطوة من الخطوات المتأخرة جداً لما انتهت إليه العقيدة اليهودية في العصور الوسطى ، بعد قرون طويلة من الاختلاط بالمسيحية والإسلام ، تتمة لمعرفة الخطوط العريضة لتطور الفكر الديني

اليهودي ، وما صحبه من فرق وطوائف مختلفة . وهذا النص هو ما يسمى « الأصول الثلاثة عشر » التي وضعها موسى بن ميمون وجعلها أركان الإيمان اليهودي :

١ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق ، تبارك اسمه ، هو الموجد والمدبِّر لكلِّ المخلوقات . وهو وحده الصانع لكل شيء فيما مضى وفي الوقت الحالي وفيما سيأتي .

٢ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق ، تبارك اسمه ، واحد لا يشبهه في وحدانيته شيء بأية حال ، وهو وحده إلهنا كان منذ الأزل ، وهو كائن ، وسيكون إلى الأبد .

٣ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق ، تبارك اسمه ، ليس جسماً ، ولا تحده حدود الجسم ، ولا شبيه له على الإطلاق .

٤ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق، تبارك اسمه، هو الأول والآخر.

٥ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق ،تبارك اسمه هو، وحده الجدير بالعبادة ، ولا جدير بالعبادة غيره .

٦ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن كل كلام الأنبياء حق .

٧ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن نبوة سيدنا موسى عليه السلام كانت حقاً ، وأنه كان أباً للأنبياء ، من جاء منهم قبله ، ومن جاء بعده .

٨ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن كل التوراة الموجودة الآن بأيدينا هي التي أعطيت لسيدنا موسى عليه السلام .

٩ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن هـذه التوراة غير قابلة للتغيير ، وأنه لن تكون شريعة أخرى سواها من قِبل الخالق ، تبارك اسمه .

١٠ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق ، تبارك اسمه، عالم بكل أعمال بني آدم وأفكارهم ، لقوله : « هو الذي صور قلوبهم جميعاً وهو المدرك لكل أعمالهم » .

١١ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بأن الخالق تبارك اسمه ، يجزي الحافظين لوصاياه ، ويعاقب المخالفين لها .

١٢ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بمجيء المسيح ، ومهما تأخر فإنني أنتظره كل يوم .

١٣ ـ أنا أؤمن إيماناً كاملاً بقيامة الموتى ، في الوقت الذي تنبعث فيه بذلك إرادة الخالق ، تبارك اسمه ، وتعالى ذكره الآن وإلى أبد الآبدين .

تأثر هذه الأركان بالفكر الديني عند المسلمين :

وواضح أن علّامة اليهود في العصور الوسطى الإسلامية ، وطبيب الدولة الأيوبية في مصر ، موسى بن ميمون ، قد وصل بالعقائد اليهودية في هذه الأصول الثلاثة عشر إلى المستوى الفكري الموازي لنتائج علم التوحيد وعلوم الكلام عند أئمة المسلمين ، كما أن تأثره بها واضح أشد الوضوح ، فالخالق عنده كما يبدو في الأصل الأول من هذه الأصول قد خلعت عليه ربوبية فلسفية لا تكتفي بما كان يكتفي به القصص البسيط في سفر التكوين ، من أنه « في البدء خلق الله السموات والأرض . . . » بل وضعت من حوله الشروط والاحتياطات ، فهو وحده الذي خلق والذي يخلق ، حتى يتم النص على اختصاصه بهذه القدرة ، منذ الأزل وإلى أبد الآبدين .

وهو واحد ، ولكنه ليس في بساطة الإله الواحد الذي ورد نص التوراة بوحدانيته في سفر التثنية (٦/٤) إذ يقول : « اسمع إسرائيل ، الرب إلهنا رب واحد » وهي الآية التي تقوم مقام شهادة أن لا إله إلا الله عند المسلمين . فهذا الرب الواحد المعلن عن وحدانيته في التوراة يتركها مطلقة بلا قيد ولا شرط ، كما أنه يجعل الإيمان وجدانياً لا عقلانياً ، إذ يقول بعد هذه الآية مباشرة: «فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك » . أما موسى بن ميمون فإنه يعلن عن وحدانية لا شبيه لها على الإطلاق ، ثم ينص ، في الأصل الثالث ، على أن هذا الواحد ليس بجسم ولا تحده حدود الجسم ، وأنه هو هو منذ الأزل وإلى الأبد ، أو كما يقول في الأصل الرابع إنه الأول والآخر . ولا يكتفي بهذا بل ينص على تنزيهه

سبحانه وتعالى عن الشريك في قوله في الأصل الخامس إنه وحده الجدير بالعبادة ولا يستحق العبادة غيره .

كل ذلك يبدو فيه بوضوح أثر الفكر الديني الإسلامي الذي لم يكن معروفاً على عهد التوراة، يوم كان الإله الرب الواحد لا يعنيه إلا شعبه المختار ، ولا يغضبه أن تكون للأمم الأخرى آلهة أخرى ، ولا يتحرج الراوية من أن يقارن ـ على لسان موسى نفسه ـ بين هذا الرب وغيره من الأرباب فيقول (خروج ١٥/١١ ـ ١٨) :

« من مثلك بين الآلهة يا رب . من مثلك جليل القدسية ، مهيب التسابيح ، صانع المعجزات . تمد يمينك فتبتلعهم الأرض . ترشد برأفتك الشعب الذي افتديته ، تهديه بعزتك إلى مسكن قدسك . سمعت الأمم فارتعدت . أخذ الرعب سكان فلسطين . ذهل إذ ذاك زعماء أدوم . أقوياء مؤاب أخذتهم الرجفة . ماج كل سكان كنعان . وقعت عليهم الرهبة والهلع . من عزة ذراعك يصمتون كالحجر ، حتى يعبر شعبك يا رب ، حتى يعبر الشعب الذي اقتنيته . تأتي بهم فتغرسهم في جبل ميراثك ، في الموضع الذي أقمته يا رب لسكناك المقدس، الذي هيأته يداك يا رب . الرب يملك إلى الدهر والأبد. » ونلاحظ أن هذه الأبدية الأخيرة تفهم تأويلاً ، فما كانت اللغة العبرية تحتوي على كلمة صريحة لهذه الفكرة حينئذٍ ، وهي بحرفيتها في الآية تعني « الرب يملك إلى (نهاية) العالم والزمن » .

وفي هذه الأصول الثلاثة عشر تأتي بعد ذلك عقيدة تعلن أن كل كلام النبيين حق وخاصة نبوة موسى ، كما في الأصلين السادس والسابع . ثم تقفز فكرة صوفية إسلامية لها شبيه في المسيحية حول صاحب الدعوة ومؤسس الدين، فكثير من متصوفة المسلمين يقولون إن العالم كله قد خلق من نور النبي ﷺ . يقول البوصيري في البردة :

وَرَاوَدَتْـهُ الـجِبـالُ الـشُّمُّ مِـنْ ذَهَـبٍ
عـن نفسِـهِ فَـأَراهـا أَيَّـمَـا شَـمَـمِ

وأكَّدَتْ زُهْدَهُ فيها ضرورتُهُ
إن الضرورةَ لا تعدو على العُصُمِ
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ مَنْ
لولاه لم تخرُجِ الدنيا من العَدَمِ
محمدُ سيد الكونينِ والثَقَلَيْـ
ـنِ والفَريقَيْنِ من عُرْبٍ ومن عَجَمِ

ويقول في الهمزية :

أنتَ مصباحُ كلِ فضلٍ فما تصـ
ـدُرُ إلا عن ضوئك الأضواءُ
لك ذاتُ العلوم من عالم الغيـ
ـبِ ومنها لآدمَ الأسماءُ
لم تَزَلْ في ضمائرِ الكونِ تُخْتَا
رُ لك الأمّهاتُ والآباءُ
ما مضتْ فترةٌ مِنَ الرُّسْلِ إلا
بشرتْ قومَها بك الأنبياءُ
تَتَبَاهَى بك العصورُ وتسمو
بك علياءُ بَعْدَها علياءُ

أما في المسيحية فإن سيدنا عيسى عليه السلام قد جعل واحداً من الأقانيم أو العناصر الأزلية الأبدية الثلاثة التي تنسبك فيها ربوبية الإله الواحد ، وهي الأب والابن والروح القدس ، وسيدنا عيسى المسيح هو الابن في هذا الثالوث المقدس حسب اعتقاد النصرانية .

فعلى ضوء الفكرة الصوفية الإسلامية ، والفكرة اللاهوتية المسيحية نجد موسى بن ميمون يقول في الأصل السابع إن موسى كان أباً للأنبياء ، من جاء منهم من قبله ، ومن أتى بعده أيضاً .

وفي الأصل الثامن يأتي بأمر لم يكن معروفاً عند من قبله من اليهود الأقدمين وهو وجوب الإيمان بأن كل التوراة الموجودة بين أيدينا الآن هي نفسها التي أعطيت لسيدنا موسى عليه السلام . ويستكمل فكرته في الأصل التاسع بأنها غير قابلة للتغيير ، وأنه لن تكون شريعة أخرى سواها من قبل الخالق تبارك اسمه . وهو هنا يقلد المسلمين تقليداً صارخاً في قولهم بأن سيدنا محمداً ﷺ هو خاتم النبيين ، وأن القرآن الكريم هو خاتم الرسالات التي أنزلها الله إلى رسله الكرام .

ويطول بنا القول لو حاولنا أن نناقش علامة اليهود ابن ميمون في ذلك ، فالنبوة في إسرائيل بقيت كما رأينا مفتوحة مستمرة بعد موسى ، والتوراة التي بين أيدينا كانت قد ضاعت أكثر من مرة ، وكانت تروى مشافهة مدة مديدة من الزمان في أوساط مختلفة من الرواة ، بحيث لم تأت إلى أيدينا إلا بعد تنسيق وتجميع وزيادة وحذف ، كما بيناه في حديثنا عن مصادر نص التوراة ، وعن الأبوكريفا (الكتب غير القانونية) .

وفي الأصل العاشر يبدو أثر عقيدة الأشاعرة المسلمين ، وهي عقيدة الدولة الأيوبية التي كان ابن ميمون كبير أطبائها ، واضحاً . فهو ينص على ضرورة الإيمان بإثبات علم الله بأعمال الناس ونواياهم ، مقدماً بذلك للإيمان بالثواب والعقاب ، في الأصل الحادي عشر . ونحن نعلم أن الأشاعرة كانوا قد وقفوا موقفاً وسطاً حول أفعال العباد بين رأي المعتزلة الذين كانوا يقولون بحرية الإنسان ، وأنه هو الذي يخلق أفعاله ، وينكرون القضاء والقدر ، وبين بعض غلاة أهل السنة وطوائف من المجبرة الذين كانوا يقولون بأن الإنسان مسير لا مخير وأن كل ما يصدر عنه من أعمال إنما يأتي بإرادة الله . وكان المعتزلة يعارضون في ذلك ويقولون : إذا كان الكافر يكفر وفقاً لإرادة إلٰهية بذلك ، وإذا كان الفاسق والقاتل والسارق يرتكبون جرائمهم هذه بإرادة من الله فإن معاقبته لهم عليها تكون غير عادلة . وتوسط أبو الحسن الأشعري فقال إن القضاء والقدر هو شيء سبق في علم الله لا في إرادته ، فالله يعلم بعلمه الكامل الذي لا تحده حدود بما سيأتيه عباده من خير أو شر ، ولكنه لم يجبرهم على شيء مما يفعلون .

ولم يأخذ موسى بن ميمون بفلسفة الأشاعرة هنا فحسب ، بل زادها وضوحاً وشرحاً في كتابه المشهور في العقائد اليهودية الذي سماه « دلالة الحائرين » ، وهذه نقطة من النقط القليلة التي خالف فيها ابن ميمون سلفه سعديا جاون ، سعيد بن يوسف الفيومي ، الذي ألف هو أيضاً كتاباً في العقائد اليهودية سماه « كتاب الأمانات والاعتقادات » ، وقال فيه بحرية الخلق في أفعالهم ، وهو رأي المعتزلة الذين عاصرهم في بغداد .

أما الأصلان الثاني عشر والثالث عشر فإنهما يجمعان العقيدتين الرئيسيتين اللتين شرحناهما من قبل، وشرحنا أنهما من المعتقدات اليهودية غير الموسوية التي انبثقت في مجتمعهم في الأيام الحالكة المليئة بالنكبات التي بدأت بتصدع مملكة سليمان بعد موته مباشرة ثم انتهت بالسبي البابلي أولاً ، ثم الشتات والتشرد الروماني (الدياسبورا) ، ثانياً . هاتان العقيدتان هما كما قلنا : المسيحانية ، أو الإيمان بمجيء المسيح المنتظر ، وكذلك الإيمان بالقيامة وبعث الموتى في اليوم الآخر .

فنحن كما أسلفت القول قد ابتعدنا مع أحبار المشنا، ومع معتقدات سعديا الفيومي ، وأصول موسى بن ميمون بعداً شديداً عن تلك الشريعة البدوية البسيطة التي تضمنتها التوراة ، ترسلها موجزة ، مباشرة ، لا تحاول فيها أن تفلسف شيئاً أو تؤوّلـه.

الوصايا العشر :

ولنأخذ مثلاً الوصايا العشر التي وردت في الإصحاح العشرين من سفر الخروج ، وتكررت في الإصحاح الخامس من سفر التثنية على نحو يبدو منه أنها كانت عصب الشريعة الموسوية . تقول هذه الوصايا ، والنص هنا من سفر الخروج : « ثم تكلم الله بجميع هذا الكلام ، قائلاً :

١ ـ أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر ، من دار العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمام وجهي .

٢ ـ لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة ، مما في السماء من فوق ، ولا مما في الأرض من تحت ، ولا مما في الماء من تحت الأرض .

لا تسجد لها ولا تعبدها ، لأني أنا الرب إلهك إله غيور ، أتعقب ذنوب الآباء في الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع من أعدائي ، وأصنع إحساناً إلى ألوف من أحبائي وحافظي وصاياي .

٣ ـ لا تحلف باسم الرب إلٰهك باطلاً ، لأن الرب لا يبرىء من ينطق باسمه باطلاً .

٤ ـ أذكر يوم السبت لتقدسه في ستة أيام تعمل وتنجز كل أعمالك واليوم السابع سبت للرب إلٰهك ، لا تصنع فيه عملاً أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي في داخل أبوابك . لأن الرب خلق السموات والأرض والبحر وكل ما فيها في ستة أيام ، وفي اليوم السابع استراح . ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه .

٥ ـ أكرم أباك وأمك لكي يطول عمرك في الأرض التي يعطيك الرب إلٰهك .

٦ ـ لا تقتل .

٧ ـ لا تزْنِ .

٨ ـ لا تسرق .

٩ ـ لا تشهد على قريبك شهادة زور .

١٠ ـ لا تشتَه بيت قريبك ، لا تشتَهِ امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك .

الفصل الرابع

الشعائر اليهودية

١ ـ الصلاة :

وحتى الطقوس والعبادات اليهودية تطورت جنباً إلى جنب مع تطوّر العقائد ، ولسنا نريد أن نقول في هذا الموضوع الحسّاس برأينا ، بل نقتطف اللباب من المقدمة التي كتبها أحد علماء الشريعة اليهودية المصريين ، وهو الدكتور هلال يعقوب فارحي لترجمته لمجموع نصوص الصلوات اليهودية الذي سماه « سِدّور فارحي » وطبعه في القاهرة سنة ١٩١٧ ، يقول :[١]

ونرى أن تأدية الصلاة والعبادة كانت منذ أول وجود الجنس البشري ، وذلك عندما أدرك بنو البشر وجود قوة إلٰهية فائقة ، وضعف جنسهم ، وأن حياتهم ووجودهم متوقفان عليه تعالى .

وأول تأدية شكر وعبادة من هذا القبيل كانت تقدمات قايين وهابيل (تكوين ٤/٣ ـ ٤) . وسفر التكوين يذكر جملة صلوات متفرقة وعبادات من الآباء من هذا القبيل . وتذكر الأسفار التالية في الكتاب أنواع التقدمات

---

(١) سدور فارحي ، عرب بقلم : الدكتور هلال يعقوب فارحي ، طبع في مطبعة الأدون روبرتو موسكوفتش بمصر ، سنة ١٩١٧ ـ ص ٤ وما بعدها .

والقرابين التي قـرَّ القرار عليها رسمياً ، وكانت تقسم على يد الكهنة ، في أمكنة مخصوصة للعبادة ، وتذكر أيضاً صلوات متفرقة لرجال الله وأنبيائه (تكوين ٢٣/١٨ و ١٧/٢٠ و ١٢/٢٤ و٢١/٢٨ و ٩/٣٢ خروج ١١/٣٢ عدد ١٣/١٢ يوشع ٦/٧ صمويل الأول ١/٢ و٢٣/١٢ الملوك الأول ٢٢/٨ و٢٠/١٧ يوئيل ٢٠/٢ الملوك الثاني ٢/٢٠ دانيال ٤/٩ عزرا ٦/٩ نحميا ٤/١ . . . إلخ) .

ولذلك العهد لم تكن الصلاة محددة وإجبارية ؛ بل كانت تتلى ارتجالياً ، حسب الأحوال والاحتياجات الشخصية والعمومية .

وعندما خرب الهيكل وسبي بنو إسرائيل من بلادهم إلى بابل وبطلت التقدمات والقرابين ، وضعت الصلوات بدلاً منها إلى يومنا هذا . وهذه العبادات بالصلوات تفوق كثيراً العبادات القديمة بالذبائح والتقدمات . جاء في المشنا (البركات ٣٢) أن الصلاة أفضل من القرابين . فإن العبادات بالتقدمات هي عبارة عن تقدمة شيء من مال الإنسان ، أي مادة حسية أرضية على مذبح مادي ، بخلاف العبادة الروحية بالصلوات ، فإنها إظهار عواطف وإحساسات وتقدمة شكر روحية صادرة من نفس الإنسان على مذبح قلبه وعقله وشهواته الجسدية .

وقد أظهر الحق سبحانه وتعالى إرادته ورغبته في أفضلية هذه العبادة على التقدمات بلسان أنبيائه ، وبين لنا أن التوبة الحقيقية ، والأعمال الخيرية الصالحة وتجنب عمل الشر أفضل من التقدمات والذبائح (إشعيا/١١ ـ ١٢) وأن الصلاة تقوم مقامها (هوشع ٣/١٤) .

وما أفضل الإنسان الذي يشعر بضعفه وبخطيئته واحتياجاته ، فيتكل عليه تعالى ، وعلى قدرته ومحبته ، ويظهر إحساساته له شخصياً رأساً ، ويقدم له الشكر على نعمه وخيراته ، ويكشف له قلبه وضميره ، ويعترف أمامه بذنوبه وخطاياه وعجزه ، ويطلب إليه المغفرة والعفو ، ويلتمس منه سد حاجاته والمعونة والمساعدة في أوقات الضيق والشدة ، ويلقي عليه رجاءه عالماً بأنه رحوم ورؤوف ، يقبل صلواته ، ويمنح طلباته بكثرة محبته ورأفته

ورحمته ، ويقبل التائبين والخطاة ، ويساعد المحتاجين الذين يلجأون إليه ويدعونه ، ويعزي المصابين والحزانى ، وهو الصديق الوحيد في وقت الضيق ، وهو قريب أن يستجيب صلاة كل من يدعوه ، فإنه استجاب صلاة موسى ، ورفع الوباء عن مصر ، وشفى مريم ، وقبل صلاة إيليا وإليشع ، لأجل شفاء الأولاد وتوبة أهل نينوى ، وعفى عنهم . . .

والصلاة على نوعين: فردية ، أي شخصية ، ومشتركة ، أي عمومية .

أما الفردية فهي صلوات ارتجالية من أفراد ، تتلى حسب الظروف والاحتياجات الشخصية ، ولا علاقة لها بالطقوس والمواعيد والمواسم ، ولدينا أمثلة متعددة من هذا القبيل في الكتاب المقدس ، مثل صلاة إبراهيم لأجل خلاص سدوم ، وأيضاً لأجل شفاء أبيمالك (تكوين ١٨/٢٣ - ٣٣) وصلاة يعقوب لأجل خلاصه من عيسو أخيه (تكوين ٢٢/٩ - ١٢) ، وصلاة موسى لأجل بني إسرائيل (خروج ٢٢/٣١ - ٣٢) ولأجل شفاء مريم (عدد ١٢/١٣ - ١٤) وصلاة يشوع لأجل محاربة عاي (يوشع ٧/٦ - ٩) وهكذا صلوات صموئيل وإيليا وإليشع وداود ويونان (يونس) ودانيال وعزرا وهذا النوع من الصلاة يتلى في أي محل كان ، فإن يونان صلى في جوف الحوت ودانيال في جُبّ الأسود .

والصلاة المشتركة هي صلوات تؤدى باشتراك جملة أشخاص علناً وعموماً ، في أمكنة مخصوصة ومواعيد معلومة ، حسب طقوس وقوانين مقررة من رؤساء الدين والكهنة .

ولم توضع الصلوات الطقسية عند الإسرائيليين إلا بعد تأسيس أمكنة العبادة ، كخيمة الاجتماع والهيكل . وأول صلاة طقسية كانت عند تقديم باكورة الأثمار، وبعد أداء الأعشار (تثنية ٢٦/٥ - ١٠ و١٣ - ١٥) وعند تقدمة الذبائح كفارة عن الخطايا (لاويين ١٦/٢١) . وبركة هارون وأولاده المثلثة كانت من نوع الصلاة الطقسية (عدد ٦٥/٢٢ - ٢٧) .

ويتضح من (إشعيا ١/١٥ و٢٩/١٣ و٥٨/٥) أن في عهد الأنبياء وضعت صلوات قانونية ، ويستدل على أوقاتها من (دانيال ٦/١٠) فإنه كان

يصلي ويركع ويشكر الله تعالى ثلاث مرات كل يوم ، وكذلك من المزمور ١٧/٥٥ . وأحياناً مرتين كل يوم ، من أخبار الأيام الأول ٣٠/٢٣ .

وكانت الصلاة مركبة غالباً من النثر ثم من النظم ، وتتلى بالغناء في الابتداء . وبالتدريج صارت تستعمل آلات موسيقية قانونية ، كما يتضح من سفر المزامير ، وكان يخصص مغنون لهذا القصد ، فإن عزرا يذكر في سفره أن بين الذين رجعوا من بابل من السبي كان مائتان من المغنين والمغنيات (عزرا ٦٥/٢) .

وكانت الصلاة فريضة واجبة على النساء والرجال (المشنا ، البركات ٣/٣) وكانوا يصلون جلوساً ووقوفاً ، ويركعون ويسجدون ، ويبوّقون ، ويصومون ، ويبكون في تضرعاتهم واعترافاتهم حتى يومنا هذا . وفي أيام الضيقة كانوا يلبسون خيشاً ، ويذرون تراباً ورماداً على رؤوسهم ، ويمزقون ثيابهم ، ويحلقون شعور رؤوسهم (سفر إيخا ، أو المراثي ، ٢٠/١ ، ويوشع ٦/٧) وكانوا يحرصون بوجوب وضع الأيادي على الصدر مع حني الرأس قليلاً ، كوقوف الخادم أمام سيده ، لزيادة الاحترام . ويقرأ الصلاة الحَزَان (المنوب من الشعب) بصوت مرتفع ، والعَاميدةِ[1] بصوت منخفض ، ويكررون العاميدة بصوت عال لكي يسمع الذين لا يعرفون القراءة .

وكانوا يتجهون في صلواتهم إلى جهة أورشليم . وفي أورشليم إلى جهة الهيكل قبلة لهم (الملوك الأول ١٣/٨ و ٣٨ و ٤٤ و ٤٨) وهذه العادة متبعة ليومنا هذا .

وبناءً على نص الآية في (عاموس ١٢/٤) ـ « واستعد للقاء إلٰهك يا إسرائيل » كان الأتقياء والمتعبدون يصرفون نحو ساعة من الزمان استعداداً للصلاة ، فيما يخص النظافة واللبس وجمع الأفكار وما أشبه ذلك . وكان عزرا يوصي بوجوب غسل الجسم بكل تدقيق قبل العبادة (المشنا ـ البركات ٤/٣) وفي المجامع كانت أماكن الجلوس مرتبة حسب درجات الشعب ومراكزهم ، من أمام الهيكل إلى الوراء :

---

(١) سترد ترجمة كاملة لنصوص « العاميدة » في موضعها من هذا الفصل .

ولا يسمح الإسرائيليون بالوساطة والشفاعة في صلواتهم بينهم وبين الحق سبحانه وتعالى، قال ربي يهوذا : إذا التمست أو طلبت شيئاً من رئيس بشري فاستجابة طلبك كثيراً ما تتوقف على وساطة ومساعدة وسيط الرئيس ، كاتباً كان أو صديقاً ، خادماً أو حبيباً . ولكن بينك وبين الله تعالى لا يلزم وساطة ميخائيل أو جبرائيل ، بل إفتح قلبك وضميرك له ، واطلبه في أي وقت كان . وهو يستجيب دعاءك ، كما قال بلسان نبيه : « ويكون أن كل من يدعو باسم الرب ينجو » (يوئيل ٥/٣ في الأصل العبري = ٣٢/٢ في الترجمات) ، غير أن علماء القبالة يعتقدون بوساطة بعض الملائكة ، خلافاً لاعتقاد عموم الإسرائيليين .

أما زمن وضع الصلاة المستعملة في وقتنا الحاضر فيختلف حسب أقسامها . إنما القسم الأساسي والأهم فيها ، وهو الشِمَاع والشِمُونِه عِسْرِه ، ينسب إلى عزرا ومائة وعشرين رجلاً من الشيوخ والعلماء ، والأنبياء ، ومن ضمنهم النبي دانيال وحجي وزكريا وملاخي (بركات ٢ /٤) . فإن عزرا بعد خراب الهيكل الأول وإبطال الذبائح والتقدمات رأى وجوب وضع صلوات يومية للشعب لتقوم مقام هذه ، ولتعزيهم في ضيقانهم ويأسهم ، فجمع هؤلاء الرجال المعروفين برجال الكنيسة الكبرى ووضعوا القسم الأساسي من الصلاة المذكور آنفاً . وهو المنبع عند كافة الإسرائيليين ، ولم يتغير أساسياً إلى الآن إلا في بعض تغييرات لفظية ، وإضافة بعض فصول وأناشيد منتخبة من التوراة والمشنا والتلمود ، وأغاني روحية مثل « أدُونْ عولام »[1] . وما أشبه لسلمون جابيرول وربي يهوذا الليفي ، وإبراهيم وموسى عزرا[2] ، لتلائم الأوقات والمواسم ، أضيفت مؤخراً لغاية الجيل السادس عشر .

وقد وضعت الصلوات في اللغة العبرانية لكي يقرأها الإسرائيليون أينما وجدوا، على أن بعض صلوات خصوصية وضعت باللغة الكلدانية. وكتب سعديا هجّأون البعض بالعربية أيضاً ، ومنذ الجيل السادس عشر ترجمت إلى

---

(١) معناها « رب العالم » .

(٢) كل أولئك من أدباء اليهود وشعرائهم في الأندلس الإسلامية في العصور الوسطى .

كافة اللغات الغربية. والآن أذكر شيئاً عن القسم الأساسي من الصلاة إتماماً للفائدة .

الشمَاع:

الشِماع هو أهم قسم من الصلاة ، مأخوذ من سفر التثنية ، رتبه مع البركة التي قبله وبعده عزرا وجماعته كما ذكر آنفاً . وكلمة « شماع » أي « اسمعْ » هو أول كلمة من آية التوحيد عند الإسرائيليين : « اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا الرب واحد » (تثنية ٦/٤) . وهي أيضاً أول كلمة من مجموع آيات عقيدة الإسرائيليين .

والشماع مجموع من ثلاثة أقسام:

القسم الأول مأخوذ من التثنية ٦/٤ ـ ٩ . يبتدىء بآية التوحيد ، ثم يذكر وجوب محبة الله من كل قلوبنا ونفوسنا وأموالنا (كذا)، ووجوب حفظ وصاياه ، وتعليمها لأولادنا ، ووجوب التكلم عنها دائماً ، وربطها آية على أيدينا ، وعصابة بين أعيننا ، وكتابتها على قوائم أبوابنا .

القسم الثاني مأخوذ من التثنية ١١/١٣ ـ ٢١ . يذكر وعد الله تعالى بمكافأتنا وبإطالة حياتنا عند إتمامنا وصاياه ، وبالعكس تأديبنا إذا ارتكبنا المعاصي ولم نطع أوامره . ويكرر شيئاً من القسم الأول .

القسم الثالث مأخوذ من العدد ١٥/٣٧ ـ ٤١ . يذكر وصية الأهداب[1] ، ليذكرنا بوجوب طاعة أوامر الله عندما نراها ، ولكي لا نميل إلى شر قلوبنا وأميالنا . ويذكرنا أيضاً بخروجنا من مصر قديماً .

وكان مراد رجال الكنيسة الكبرى أن يضيفوا إلى الشماع الآيات في العدد ٢٣/١٨ ـ ٢٤ ، ولكنها لم تضف خوف الإطالة (المشنا ـ البركات ١٢) .

شِمُونِه عِسْره :

مجموع تسع عشرة بركة (وكانت في الأصل ثمان عشرة) وهي أهم

---

(١) هي أهداب الرداء المميز الذي يلبسه اليهود في الصلاة واسمه (طليت).

قسم في الصلاة بعد الشماع . وضعها عزرا ورجال الكنيسة الكبرى كما سبق . وقد قيل إنه نظراً لقلة استعمالها مع مرور الزمان رتبها ثانية شمعون الباقُولي مع ربَّان جملئيل ، في يَبْنَة ، ونظراً لانشقاق الإسرائيليين وقتئذٍ إلى فئات صدوقيين وآسيين وغيرهما ، أضاف إلى هذه البركات شموئيل القَاطَان ـ أي الصغير ـ البركة الثانية عشر « ولَمَلْشِينِيم » ضد الصدوقيين (المشنا ـ بركات ٢٨) . وقد حفظت اسمها الأصلي «شمونة عسره» أي ١٨ مع أنها صارت ١٩ بركة . وكانت تقرأ غيباً من الواحد إلى الآخر إلى عهد الجأونيم ، وقيل إنها لم تكتب إلا عند وضع « مَسِخِت سوفريم » .

وقد وردت أكثر ألفاظها وعباراتها في الكتاب المقدس ، وبعضها في المشنا مثل « تشُوبا نِسيمْ مَحَلُو هِحزير شعى » وغيرها .

وتسهيلاً للذاكرة كانوا يتخذون آيات وجملاً تدل على عدد الكلمات في كل بركة . مثلاً الآية في الخروج ٣/٢٨ تحتوي على ١٧ كلمة ، وهو عدد الكلمات في البركة الرابعة ، والكلمات في إشعيا ٨/٥٥ أو ١٣/٦ يعادل عدد الكلمات في البركة الخامسة ، وهو ١٥ . وعدد الحروف في الأمثال ٢٢/٤ أو المزامير ٣/١٠٣ يعادل عدد كلمات البركة الثامنة ، وهو ٢٧ .

وتقسم البركات الثماني عشر إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول ، شِبَاحيم أي تسابيح . يشمل الثلاث البركات الأولى « رِيشُونُوت » ويحتوي على تسابيح وتعظيم لله تعالى .

القسم الثاني ، بَقَاشوت أي طلبات أو توسلات . يشمل الثلاث عشرة البركة المتوسطة « إمصاعيُوتْ » ويحتوي على طلبات خصوصية وعمومية للشعب .

القسم الثالث ، هُودَاؤُوت أي تشكرات . يشمل الثلاث البركات الثلاث الأخيرة « أحرونوت » ويحتوي على تشكرات .

والقسم الأول والثاني من هذه البركات لا يتغيران مطلقاً في كافة الصلوات على مدار السنة ، وأما القسم الثالث فيتغير في أيام السبوت

ورؤوس الشهور والمواسم والأعياد ، ويبدل بما يلائم الأوقات .

وإليك عدد وأسماء هذه البركات بالتفصيل ، مع بيان محل ورود ألفاظها وعباراتها في الكتاب المقدس (راجع براخوت ٢٩ و٣٣ . ومجلة ١٧ و١٨ . وشبات ٢٤ وسوطه ٦٨) .

(١) أبوت : أي الآباء ، سميت بالآباء لأنه ذكرت فيها أسماء الآباء ، راجع خروج ١٥/٣ ، تكوين ٩/١٤ ، تثنية ١٧/١٠ ، إشعيا ٢٠/٥٩ . زامير ١١/٧ و٣/١٨ و٣٦ و١٠/٨٤ ، تكوين ١/١٥ .

(٢) جبوروت : أي القُوّات فيها تنسب الجبروت لله تعالى ، وتسمى أحياناً « تِحِيَّتْ هَمْيتيم » لأنه ذكر فيها قيامة الأموات . مزامير ١٤/١٤٤ خروج ٢٦/١٥ مزامير ٦/١٤٦ ـ ٧ دانيال ٢/١٢ صمويل الأول ٦/٢ .

(٣) قِدُوشَت هشّيم : أي قداسة اسم الجلالة . مزمور ٤/٢٢ و٣/١٦ .

(٤) أَتَّهْ حُونين : وتعرف أيضاً بالطلبة لأجل الفهم والحكمة . إشعيا ٢٣/٢٩ إرميا ١٥/٣ مزامير ١٠/٤٤ . وقد وردت « أته حونن » لا أقل من ١٠٠ مرة في المزامير.

(٥) تِشُوَبة : أي التوبة. إشعيا ١٠/٦ و ١٣ إشعيا ٧/٥٥.

(٦) سِلِيحَة : أي العفو والسماح. إشعيا ٧/٥٥.

(٧) بِركَت هَجْأُولَه : أي الخلاص . مزمور ١٤/٩ و١٨/٢٥ و١٥٣/١١٩ ـ ١٥٤ و١/٣٥ و١/٤٣ و٢٢/٧٤ و٥٨/٣ .

(٨) بركت هَاحُوليم : أي طلبة لأجل شفاء المرضى . إرميا ١٤/١٧ و١٧/٣٠ .

(٩) بركت هَشَّانيم : أي طلبة لأجل محصولات السنة . مزمور ٥/٤٥ و١٢ و٥/١٠٣ ارميا ١٤/٣١ .

(١٠) قبوص جليُوت : أي طلبة لأجل جميع المَسْبِيِّين . إشعيا

١٣/١١ و٢٧/ ١٣ و٤٣/٥ و٤٥/ ٢٠ و ٦٠/ ٩ إرميا ٥١/ ٢٧ تثنية ٣٠/ ٤ ميخا ٤/ ٦ مزامير ١٤٧/ ٢ .

(١١) بركت هدِّين : أي طلبة لأجل الأحكام . إشعيا ١/ ٢٦ هوشع ٢/ ٢١ مزامير ٣٣/ ٥ و٩٩/ ٤ إشعيا ٦١/ ٨ . قابل : إشعيا ٣٥/ ١٠ و٥١/ ١١ مزامير ١٤٦/ ١٠ .

(١٢) هَمِّلْشِينِيم : أي طلبة ضد الصدوقيين . مزامير ٨١/ ٥١ إشعيا ٢٥/ ٥ .

(١٣) صِدِّيقيم: أي طلبة لأجل الصالحين . إرميا ٣١/ ٢٠ إشعيا ٦٣/ ١٦ مزامير ٢٢/ ٦ و٢٥/ ٢ و ٧١/ ٥ و١٤٣/ ٨ جامعة ٦/ ٩ .

(١٤) بنيان يروشليم : أي طلبة لأجل إعادة بناء أورشليم . زكريا ٨/ ٣ مزامير ١٤٧/ ٢ و٨٩/ ٣٦ - ٣٧ و١٢٢/ ٥ .

(١٥) إت صِيمَح : أي طلبة لأجل نسل داود . هوشع ٣/ ٥ إشعيا ٥٦/ ٧ مزامير ١/ ١٣ و١١٢/ ٩ تكوين ٤٩/ ١٨ مزامير ٨٩/ ٤ و١٨ و٢١ و٢٦ و٢٥/ ٥ حزقيال ٢٩/ ٧١ و٣٤/ ٢٣ مزامير ١٣٢/ ١٧ و١٣٢/ ١٠ إرميا ٢٣/ ٥ و٣٣/ ١٥ .

(١٦) تِفِلَّة : أي طلبة لأجل قبول الصلاة . مزامير ٦٥/ ٣ .

(١٦) عَبُودَة : أي طلبة لأجل إعادة طقس العبادة في الهيكل . ميخا ٤/ ١١ .

(١٨) هُوَدأة: تحتوي على اعتراف وشكر. أخبار الأيام الأول ٤٩/ ١٣ صمويل الثاني ٢٢/ ٣٦ مزامير ٧٩/ ١٣ و٦٨/ ٦ إرميا ١٠/ ٦.

(١٩) شالوم : أي طلبة السلام . مزامير ٢٩/ ١٠ عدد ٦/ ٢٧ ميخا ٦/ ٨ مزامير ١١٩/ ١٦٥ و١٢٥/ ٥ .

وقد اختصروا الثلاث عشرة البركة المتوسطة ، أي القسم الثاني ، وتعرف بكلمة « هبينينو » ، تتلى عند كثرة المشغولية بدل العاميدة كلها على

رأي ربي عقيبا (برايتا ٤/٣ ـ ٤) . وهذا الاختصار كما يأتي :

(١) امنحنا حكمة لنتعلم طرقك (٢) اجعل قلبنا يهابك (٣) اغفر خطايانا (٤) خلصنا (٥) احفظنا من الأمراض (٦) اكفنا من محصولات الأرض (٧) اجمع شملنا (٨) حاكمنا بحقك (٩) عاقب الأشرار (١٠) كافىء الأبرار (١١) ابن أورشليم والهيكل (١٢) لتحي مملكة وسلالة داود مسيحك (١٣) استجب لنا .

كتاب الصلاة :

إن أقدم كتاب يشمل مجموع صلوات السنة (السَّدور) هو « سِيدِرْ رَبْ عَمْرام » على اسم جامعة عمرام الجأون في « ماته محسية » في بابل سنة ٨٤٦ و ٨٦٤ . وهو يختلف قليلاً عن كتب الصلاة الحالية ويقرب من طقس السفاراديم أكثر من الإشكنازيم. وبقي ما ينوف عن ألف سنة بدون طبع ، إلى أن اشترى كورونل نسخة من « حبرون » وطبعها في وارسو سنة ١٨٦٥ .

ثم قام بعده سعديا الجأون رئيس مدرسة سورا في بابل، ووضع سِدُّوراً سنة ٩٢٨ ـ ٩٤٢ وجد مخطوطاً في الفيوم محل ميلاده ، وكان يحتوي على صلاتين من وضعه، عَرَّبَ إحداهما بنفسه، والأخرى عرّبها صِيمحْ ابن يوسف. وجمع ربي إلحانان «سيدر تِقون تِفلّة» في الجيل السادس عشر .

ووضع موسى الميموني الشهير كتاب « سيدر تفلّوت كل هشّانا » في آخر كتاب له شهير معروف بـ « الْيَاد » وهو يطابق طقس السفاراديم تماماً . وقد طبع مع ترجمته للألمانية في بطرسبرج سنة ١٨٥١ .

وأهم وأول كتاب صلاة للإشكنازيم هو « مَحَزُور فِترِيْ » وضعه حاخامو فرنسا سنة ١٢٠٨ ، وهو أكبر من سدّور عمرام بعشر مرات .

أما الاختلافات الموجودة في الصلوات بين طقوس السفاراديم والإشكنازيم فهي قليلة جداً ، وتنحصر في الأغاني والملحقات ، أما أساس الصلاة والبركات فلا اختلاف فيها. غير أن السفاراديم يكثرون من استعمال

النعوت والمترادفات . ومنذ عهد العالم لُورْيَا انتشر طقس أو منهاج السفاراديم في روسيا كثيراً ، وبالأخص عند الفئة المعروفة بالحاسيديم .

وأول كتاب صلاة مطبوع ظهر في ٢ أيار عبراني سنة ٥٢٤٦ الموافق ٧ ابريل سنة ١٤٨٦ حسب منهاج يهود روما ، والنسخة الوحيدة الباقية منه موجودة في مكتبة مدرسة اللاهوت الإسرائيلية في الولايات المتحدة بأمريكا .

وأول كتاب صلاة للسفراديم طبع في فينيسيا (البندقية) سنة ١٥٢٤ دعي « تِمُونُوت ، تِحِنّوت، تِفِلُّوت» أي تأملات وتوسلات وصلوات .

وأما كتاب صلاة القرائين فيختلف كثيراً عن سِدور الإسرائيليين ، وطبع أول مرة في فينسيا في الجيل السادس عشر في أربعة أجزاء .

وأول ترجمة سدور من العبرانية إلى اللغات الأخرى كانت إلى الإيطالية في رومية ، بحروف عبرانية ، سنة ١٥٣٨ ، وبعدها إلى الألمانية في ١٥٦٢ ، وإلى الإنكليزية في ١٧٣٨ ، وإلى الفرنساوية في ١٧٧٣ ، وإلى البولاندية في ١٧٩٣ ، ثم إلى جملة لغات أخرى في أوقات مختلفة .

مواقيت الصلاة :

وإذ قد تبين لنا من شرح الدكتور هلال فارحي هذا أن أساس التدين اليهودي نفسه ، وهو الصلاة الموسوية الموصوفة في كتب الشريعة اليهودية ، لا تمت إلى ما كان من طقوس الصلاة الموسوية ، فإننا نريد أن نشير أيضاً إلى أن الأعياد الدينية الإسرائيلية ضعيفة الصلة هي كذلك بموسى وشريعته ، بل أن كثيراً منها يرجع إلى مناسبات وذكريات تاريخها متأخر عن سيدنا موسى بكثير .

وقبل أن نعطي بياناً موجزاً بذلك ، نرى أن نبين بعض التفاصيل الخاصة بإقامة الصلاة اليومية التي أشار إليها الدكتور فارحي .

الصلوات الواجبة على اليهودي ثلاث في كل يوم :

١ ـ صلاة الفجر ، ويسمونها صلاة السحر « شَحَاريت » . ووقتها

حسب ما قررته المشنا منذ أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأزرق إلى ارتفاع عمود النهار .

٢ ـ صلاة نصف النهار أو القيلولة « مِنْحَة » ، وتجب منذ انحراف الشمس عن نقطة الزوال إلى ما قبل الغروب .

٣ ـ صلاة المساء ، ويسمونها صلاة الغروب « عَربيتْ » ، ووقتها من غروب الشمس وراء الأفق إلى أن تتم ظلمة الليل الكاملة، أي ما يقابل وقت العشاء عند المسلمين.

طقوس الصلاة :

وتبدأ الصلاة بشيء يقابل الوضوء هو غسل اليدين فقط ، ثم يوضع الشال الصغير على الكتفين ، أو الشال الكبير في الصلوات التي تتم جماعة في المعبد كصلاة السبت والأعياد وهذا الشال يكون من نسيج أبيض مستطيل أو مربع وفي كل زاوية من زواياه حلية مؤلفة من ثمانية أهداب من الخيط أربعة بيضاء وأربعة زرقاء[١] ، رمزاً للتعرف على طلوع الفجر بتمييز الخيط الأبيض من الخيط الأزرق . وهذا الأزرق مختلف فيه من حيث درجته في الزرقة ، وإنما نهتم بذلك لدخوله حالياً في ألوان الراية الإسرائيلية . فنص المشنا في هذا الموضع يعبر عن الأزرق باللفظة العبرية المبهمة « تِكلِتْ » التي اختلف فيها الشراح من الأزرق الكحلي الداكن ، إلى البنفسجي ، إلى السماوي ، إلى الأزرق الفاتح الضارب إلى الخضرة القريب مما يسمى عندنا « الكرنبي » أو « اللوزي » ، ويسمى عند شراح المشنا من اليهود « الكُرّاثي » أي ، الذي لونه كلون الكُرّاث. وقد مال سعديا الفيومي إلى ترجيح الأزرق السماوي ، فكان يستعمل في ترجمته كلمة « أسمنجوني » من الفارسية « آسمان » بمعنى سماء و« كون » بمعنى لون . ومعظم اليهود يتبعون هذا الرأي الآن ، كما تأخذ به إسرائيل في اللون الأزرق لرايتها.

ولهذا الشال في طهارته أحكام خاصة أهمها أنه لا تلمسه النساء ،

---

(١) اسمها بالعبرية « صِيصِيت ».

وهكذا يخصص له موضع معلوم في المنزل ، ويجب على اليهودي لبسه منذ أن يبلغ سن التكليف بالعبادة وهي ثلاث عشرة سنة ، ويبقى عنده إلى أن يموت فيكفن عادة فيه .

والصلاة اليهودية تجب فيها تغطية الرأس ، وهي عموماً تقليد عندهم للتعبير عن الاحترام ، إذا قرأوا في النصوص المقدسة ، أو ذكروا اسم الله ، أو قابلوا عظيماً من العظماء .

كذلك يلبسون « التفّلين » . وهي عبارة عن علبة صغيرة من الخشب أو الجلد محفوظ بداخلها رقعة من رق الغزال أو الجلد مكتوب عليها « قراءة السماع »[1] التي سبقت الإشارة إليها وهذه العلبة مثبتة في شريط من الجلد . ويجب وضعها عند الصلاة في وسط الجبهة بحيث يربط شريط الجلد حول الرأس وتوضع واحدة أخرى على الكف اليسرى بحيث يربط شريطها حول اليد وتكون العلبة مثبتة عند أصل الإبهام . وإذا كان المصلي أشول أي يستعمل يده اليسرى ، وجب عليه أن يربطها على الكف اليمنى . وقد اعتمد الفقه اليهودي في فرضه لهذه « التفّلين » على فهم حرفي ظاهري للآية (التوراة ـ سفر التثنية ٨/٦) التي تقول عن كلمات الله : « وثبتها على يدك آية ، ولتكن عصائب بين عينيك » . وواضح أن المراد هو المعنى المجازى وهو التمسك بها كما يتمسك الإنسان بشيء ثمين في يده ، والاهتداء بها كما يجعل الإنسان العلامة التي تهديه أمام عينه دائماً .

ونص قراءة السماع بفقراته الثلاث هو :

إسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا، الرب واحد. فتحب الرب إلهك بكل قلبك ، وبكل نفسك ، وبكل قوتك . ولتكن هذه الكلمات التي أنا موصيك بها اليوم على قلبك . واروها لأولادك ، وتلفظ بها في إقامتك ببيتك وفي مشيك في الطريق وحين نومك وقيامك . وثبتها على يدك آية ، ولتكن عصائب بين عينيك . واكتبها على مصاريع بيتك وعلى بواباتك (التوراة ـ سفر التثنية ٦/٤ ـ ٩) .

(١) شماع بالعبرية .

فإذا سمعتم وصاياي التي أنا موصيكم اليوم سمعاً، لتحبوا الرب إلٰهكم وتعبدوه بكل قلوبكم وكل نفوسكم ، أعطيتُ مطر أرضكم المبكر والمتأخر في أوانه ، فجمعتَ قمحك وخمرك وزيتك . وأعطيتُ بهائمك عشباً في حقلك فتأكل أنت وتشبع . واحترسوا من أن تزيغ قلوبكم فتنحرفوا وتعبدوا آلهة أخرى وتسجدوا لها ، فيحمى غضب الرب عليكم ، ويغلق السماء فلا يكون مطر ، ولا تعطي الأرض غلتها ، فتبيدون سريعاً من الأرض الطيبة التي يعطيكم الرب . فضعوا كلماتي هذه على قلوبكم ونفوسكم وثبتوها آية على أيديكم ، ولتكن عصائب بين عيونكم ، وعلموها لأولادكم متكلمين بها عند الإقامة في بيوتكم وحين المشي في الطريق ووقت منامك وقيامك . واكتبها على مصاريع بيتك وعلى بواباتك ، لكي تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التي أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها طيلة أيام السماء على الأرض . (التوراة ـ سفر التثنية ١١/١٣ ـ ٢١) .

وكلم الرب موسى قائلاً : حدث بني إسرائيل وقل لهم أن يصنعوا لهم أهداباً في أطراف ثيابهم على أجيالهم ، ويجعلوا على هدب كل طرف فتيلاً من الأسمانجوني . فتصير لكم هدباً فترونها وتذكرون كل وصايا الرب وتنفذونها ولا تدورون وراء قلوبكم ووراء عيونكم إذ أنتم من ورائها تفسقون لكي تتذكروا وتنفذوا كل وصاياي وتكونوا مقدسين لإلٰهكم. أنا الرب إلٰهكم الذي أخرجكم من أرض مصر ليصير لكم إلٰهاً . أنا الرب إلٰهكم . (التوراة ـ سفر العدد ١٥/٣٧ ـ ٤١) .

وهذا الجزء من الصلاة اليهودية هو الوحيد المأخوذ كله كما رأينا من التوراة ، بينما البركات الثماني عشر التي تسمى عندهم « شمونه عسره » أو « عاميدة » فقد وصفها النص الذي سقناه من الدكتور هلال فارحي وصفاً تفصيلياً ، وأشار إلى أنها ترجع في تصنيفها إلى عزرا ورجال الكنيسة الكبرى ، وأن الحبر اليهودي صمويل الأصغر أقحم فيها ما يسمونه بالبركة التاسعة عشرة ، وترتيبها في العاميدة الثانية عشرة ، وهي في الواقع ليست بركة ولكنها لعنة يصبونها على الفرق الأخرى من غير اليهود الربانيين ،

وبخاصة طائفة الصدوقيين التي سنتحدث عنها في مكانها من هذا الكتاب. وصمويل الأصغر هذا من مدرسة «التنائيم» أي رواة المشنا كما هو معروف. وأما العاميدة في صورتها النهائية هذه فإنها تبدو على النحو التالي[1]:

يا مولاي أفتح شفتي فيخبر فمي بتسبيحك. (مزامير ١٧/٥١).

ـ ١ ـ

مبارك أنت يا رب إلٰهنا وإلٰه آبائنا، إلٰه إبراهيم، إلٰه إسحٰق. وإلٰه يعقوب. الإلٰه العظيم الجبار المهيب. الإلٰه العالي، الواهب الإنعامات الطيبة، مالك الكل، وذاكر فضائل الآباء، والآتي بمخلص لبني أبنائهم لأجل اسمه بمحبة.

(يضاف إليها في عشرة أيام التوبة[2]) اذكرنا للحياة يا أيها الملك الذي يسر بالحياة. اكتبنا في سفر الحياة. لأجلك أيها الإلٰه الحي، الملك المعين المنجي والواقي. مبارك أنت يا رب يا مجنّ إبراهيم.

ـ ٢ ـ

أنت جبار إلى الأبد يا رب، أنت محيي الموتى، القادر على الإنقاذ (ويضيفون في الصيف) المنزل الندى. (وفي الشتاء) مسير الريح ومنزل المطر.

الكافل الحياة بفضله. المحيي الموتى بمراحم جليلة. مقيم الساقطين، وشافي المرضى ومطلق الأسرى ومقيم أمانته للنائمين في التراب. من مثلك صاحب قدرات. ومن يشبهك ملكاً يميت ويحيي، وينبت النجاة. (وفي عشرة أيام التوبة يقال) من مثلك أيها الأب الرحمٰن، الذاكر مخلوقاته برحمة للحياة. وإنك لأمين على إحياء الموتى. مبارك أنت يا رب يا محيي الموتى.

(١) رجعنا إلى الدكتور فارحي في كتابه المتقدم ذكره، ص ٦٠ وما بعدها.
(٢) وهي الأيام العشرة من رأس السنة اليهودية ـ أول تشري ـ الذي يوافق شهر أكتوبر، إلى يوم الكفارة، يوم كبور، وهو العاشر من تشري.

(وعند تكرار العاميدة يضاف) نقدسك ونعظمك كأنغام نطق محفل السرافيم[1] المقدس ، إذ يثلثون لك التقديس ، فهكذا مكتوب على يد نبيك « وصاح هذا لهذا وقال : قدوس ، قدوس ، قدوس رب الجنود . ملء كل الأرض مجده » (إشعيا ٣/٦) فيقابلونهم مسبحين وقائلين « مبارك مجد الرب في مقامه » (حزقيال ١٢/٣) . والقول المكتوب في كلامك المقدس « يملك الرب إلى الأبد ، إلهك يا صهيون من جيل لجيل . سبحوا الله » (مزامير ١٤٦/ ١٠) .

ـ ٣ ـ

أنت قدوس ، واسمك قدوس ؛ والمقدسون في كل يوم يسبحونك سِلّاه[2] . لأنك إله ، ملك عظيم ومقدس . مبارك أنت أيهاالرب الإله (في عشرة أيام التوبة يضاف بعد ذلك كلمة ـ الملك) المقدس .

ـ ٤ ـ

أنت تمد بني آدم بالمعرفة ، وتعلم الإنسان الفهم فتكرم علينا من لدنك بمعرفة وفهم وفطنة . مبارك أنت أيها الرب الواهب المعرفة .

ـ ٥ ـ

ارجعنا يا أبانا لتوراتك ، وقربنا يا ملكنا لعبادتك ، واردنا بتوبة كاملة إلى وجهك . مبارك أنت أيهاالرب القابل التوبة .

ـ ٦ ـ

اغفر لنا يا أبانا لأننا قد أخطأنا . اصفح عنا يا ملكنا لأننا قد أذنبنا . فإنك رب طيب غفور . مبارك أنت يا رب يا رؤ وف يا واسع المغفرة .

ـ ٧ ـ

انظر إلى ذلنا ، وأيد دعوانا ، وعجل بخلاصنا خلاصاً كاملاً من أجل اسمك ، لأنك رب مخلص قوي . مبارك أنت يا رب ، يا مخلص إسرائيل .

---

(١) نوع من الملائكة ، يحرسون عرش الله في اعتقادهم ، واشتقاق الكلمة من مادة معناها النار .
(٢) كلمة هتاف بالعبرية .

— ٨ —

داونا يا رب لنشفى . أنقذنا لننجو ، لأنك أنت تسبيحنا (إرميا ١٤/١٧) . وتعطف بدواء وشفاء لكل أمراضنا ولكل آلامنا ولكل مصائبنا ، لأنك رب شاف رحمٰـن وأمين . مبارك أنت يا رب شافي مرضى شعبه إسرائيل .

— ٩ —

(وهي بركة لمحصولات السنة ، يقال فيها في الصيف) باركنا يا رب يا إلٰهنا في كل عمل أيدينا ، وبارك سنتنا بشآبيب الرضا والبركة والجود ، فيكون آخرها حياة وشبعاً وسلاماً كالسنين الطيبة المباركة ، لأنك أنت رب طيب ومحسن وتبارك السنين . مبارك أنت يا رب يا من تبارك السنين . (ويقال في الشتاء) بارك لنا يا رب يا إلٰهنا في هذه، وفي كل أنواع غلتنا بالخير . وأنزل ندى ومطراً للبركة على كل وجه الأرض . وأرو وجه الثرى ، وأشبع العالم كله من خيرك ، واملأ أيدينا من بركاتك ومن سخاء عطايا يديك . احفظ هذه السنة ونجها من كل أمر رديء . ومن كل أنواع الآفات ، ومن كل صنوف الغضب . واجعل لها أملاً طيباً ونهاية آمنة . أشفق عليها ، وارأف بها ، وبكل غلتها وثمارها . وباركها بأمطار الرضا والبركة والجود ، فيكون آخرها حياة وشبعاً وسلاماً كالسنين الطيبة المباركة ، لأنك أنت رب طيب ومحسن وتبارك السنين . مبارك أنت يا رب يا من تبارك السنين .

— ١٠ —

انفخ في بوق كبير لأجل حريتنا ، وارفع علماً لجمع مشتتينا ، واجمعنا من أركان الأرض الأربعة معاً إلى أرضنا . مبارك أنت يا رب ، جامع مشردي شعبه إسرائيل .

— ١١ —

أعد قضاتنا كما كان الأمر أولاً ، وناصحينا كما في البداية ، وأبعد عنا الضيق والكدر والأنين . وأملك علينا عاجلاً أنت وحدك يا رب برحمة وعدل

وحكم . مبارك أنت يا رب ، الملك المحب للعدالة والحكم . (ويقال في عشرة أيام التوبة) يا ملك الحكم .

— ١٢ —

(هذه هي الدعوة التاسعة عشر التي أضافها صمويل الأصغر) لا تكن رجاء للوشاة، بحيث يهلك كل البغاة تواً، ويستأصل كل أعدائك ومبغضوك عاجلاً ، فتقتلع وتحطم وتعدم وتقهر وتدمر ملك الفساد عاجلاً في أيامنا . مبارك أنت يا رب كاسر الأعداء وقاهر البغاة .

— ١٣ —

لترفرف مراحمك يا رب يا إلٰهنا على الصالحين والأتقياء ، وعلى بقية شعبك آل إسرائيل ، وعلى شيوخهم ، وعلى الناجين من عشيرة كتبتهم ، وعلى دخلاء الصدق وعلينا . وأعط أجراً حسناً لكل المتكلين على اسمك بالحق . واجعل نصيبنا معهم فلا نخزى إلى الأبد ، لأننا بك وثقنا ، وعلى فضلك العظيم بالحق اعتمدنا . مبارك أنت يا رب يا سند الصالحين ومعتمدهم .

— ١٤ —

اسكن في وسط أورشليم مدينتك ، حسب ما قلت . وثبت فيها كرسي عبدك داود عاجلاً ، وابنها سريعاً في أيامنا بناءً أبدياً . مبارك أنت يا رب ، باني أورشليم .

— ١٥ —

اجعل ذرية عبدك داود تنبت عاجلاً ، وارفع قرنه بفرجك ، لأننا نؤمل في فرجك كل يوم . مبارك أنت يا رب مُنْبِتَ قرن النجاة .

— ١٦ —

اسمع صوتنا يا رب يا إلٰهنا الأب الرحمٰن . اشفق علينا وارأف بنا واقبل صلاتنا برحمة ورضوان ، لأنك رب سميع للصلوات والدعوات ولا تردنا عن وجهك يا ملكنا خائبين . تحنن علينا ، واستجب لنا ، واسمع صلاتنا ، لأنك

أنت تسمع صلاة كل فم . مبارك أنت يا رب يا سامع الصلاة ، (وفي يوم الصيام يقال) استجب لنا يا أبانا . استجب لنا في يوم صوم هذا الصيام لأننا في كرب عظيم . لا تلتفت إلى شرنا ولا تتوار يا ملكنا من دعائنا . كن قريباً لصراخنا . بل استجب لنا قبل أن نصرخ إليك . نتكلم وأنت تسمع ، كالكلام الذي قيل : « ويكون أنني قبل أن يدعوا أجيب ، وفيما هم بعد يتكلمون أنا أسمع » ، (إشعيا ٥٦/٢٤) . لأنك أنت يا رب فادٍ ومخلِّص ، ومجيب وراحم في كل وقت كرب وضيق . (يقرأ الحزان[1] وحده) مبارك أنت يا رب المستجيب لشعبه إسرائيل في وقت الكرب .

ـ ١٧ ـ

ارض يا رب يا إلهنا عن شعبك إسرائيل ، وانظر إلى صلاتهم ، وأعد العبادة إلى محراب بيتك ، واقبل بمحبة ورضوان قرابين إسرائيل وصلاتهم عاجلاً . ولتكن عبادة إسرائيل شعبك دائماً مرضية . (في أوائل الشهور القمرية وفي وسط عيدي الفصح والمظال يقال) إلٰهنا وإلٰه آبائنا ، ليصعد ويأت ويصل ويظهر ويقبل ويسمع ويفتقد ويذكر أمامك ذكرنا ، وذكر آبائنا ، وذكر أورشليم مدينتك ، وذكر المسيح ابن داود عبدك ، وذكر كل شعبك آل إسرائيل ، للنجاة والخير والعطف والإحسان والرحمة ، (في أول الشهر) في يوم مستهل الشهر هذا ، (في الفصح) في عيد الفصح هذا ، (في المظال) في عيد المظال هذا ، في يوم المحفل المقدس هذا ، لترحمنا فيه وتخلصنا . اذكرنا يا رب إلٰهنا فيه للخير ، وافتقدنا فيه للبركة ، وخلصنا فيه لحياة سعيدة ، وحسب الوعد بالفرج والرحمة أشفق علينا ، وحن علينا ، وارأف بنا ، وارحمنا ، وخلصنا ، لأن أعيننا نحوك ، لأنك إلٰه ملك رؤوف رحيم .

وأنت بحسب مراحمك الكثيرة تسر بنا وترضى عنا ، فترى أعيننا رجوعك إلى صهيون برحمة . مبارك أنت يا رب الذي يعيد سكينته إلى صهيون .

---

(١) هو الكاهن الذي يقوم بصلاة الجماعة في المعبد .

نشكرك لأنك أنت الرب إلٰهنا وإله آبائنا إلى أبد الآبدين . صخرتنا ، صخرة حياتنا ، ومجن خلاصنا هو أنت . جيلاً بعد جيل نشكر لك ونتحدث بحمدك من أجل حياتنا المودعة بيدك وأرواحنا المحفوظة عندك ، ومعجزاتك التي هي معنا كل يوم ، وعجائبك وخيراتك التي هي في كل وقت مساء وصباحاً وظهراً . أيها الطيب الذي لا تنتهي مراحمك ، المشفق الذي لا تنقطع أفضالك ، فإننا منذ الأزل وضعنا أملنا فيك . (ومن مأثورات هذه الفقرة) نشكرك لأنك أنت الرب إلٰهنا وإله آبائنا وإله كل البشر ، خالقنا المصوّر في البداية . البركات والتشكرات لاسمك العظيم والمقدس لأنك أحييتنا وثبتنا . وكذلك ستحيينا وترأف بنا وتجمع المشتتين منا إلى دور قدسك ، لنحفظ فرائضك ونعمل ما يرضيك ونعبدك بقلب سليم ، لهذا نحن نشكرك مبارك رب التشكرات . (وفي عيدي الحانوكة والفور[1] يقال) نشكرك أيضاً على المعجزات والخلاص والأعمال العظيمة وعلى الفرج ، وعلى الخوارق وعلى التعزيات التي صنعتها لآبائنا في غابر الزمان وفي هذا الوقت . (في عيد الحانوكة) في أيام متاتيا بن يوحنا الكاهن الأعظم الحشموني وأبنائه عندما وقفت مملكة اليونان الفاجرة ضد شعبك إسرائيل ، لتنسيهم توراتك ، وتجعلهم يخالفون فرائض إرادتك ، وقفت أنت بمراحمك العظيمة معهم في وقت شدتهم ، وأيدتهم في خصومتهم ، وحكمت حكمهم وثأرت انتقاماً لهم . سلمت الجبابرة بيد الضعفاء ، والكثيرين بيد القليلين ، والمجرمين بيد الصديقين ، والأنجاس بيد الأطهار ، والبغاة بيد المشتغلين بشريعتك . فصنعت لك اسماً عظيماً ومقدساً في عالمك ، وصنعت لشعبك إسرائيل نجاة عظيمة وخلاصاً في مثل هذا اليوم . وبعد ذلك جاء أبناؤك إلى محراب بيتك فنظفوا هيكلك ، وطهروا مقدسك ، وأوقدوا شموعاً في أفنية قدسك ، وأقروا هٰذه الأيام الثمانية للحمد والشكر . إذ أتيت معهم بمعجزات وعجائب فنشكر اسمك العظيم . سلاه .

---

(١) سيرد شرح هذه الأعياد وغيرها فيما بعد .

(في عيد الفور) في أيام مردخاي واستير ، في العاصمة شوشن ، عندما قام عليهما هامان المجرم ، وطلب تدمير وقتل وإهلاك كل اليهود من الغلام إلى الشيخ والأطفال والنساء ، في يوم واحد هو الثالث عشر من الشهر الثاني عشر ، أي شهر آذار ؛ ونهبهم غنيمة (استير ١٣/٣) . وأنت بمراحمك العظيمة أبطلت مشورته ، وخيبت فكرته ، ورددت جزاءه على رأسه ، فعلقوه هو وأولاده على الخشب . وهكذا صنعت معهم معجزات وعجائب . فنشكر اسمك العظيم سلاه .

وعلى كل هذه ليتبارك ويتعالَ ويرتفعْ إسمك دائماً يا ملكنا إلى أبد الآبدين وكل الأحياء يشكرونك سلاه .

(في عشرة أيام التوبة) واكتب حياة سعيدة لبني عهدك . وليمدحوا ويباركوا اسمك العظيم حقاً إلى الأبد لأنه طيب إله نجاتنا وعوننا . سلآه . الإله الطيب . مبارك أنت يا رب ، الطيب الاسم ، وبك يليق الشكر . (وعند تكرار العاميدة يقول الحزان) : إلهنا وإله آبائنا باركنا بالبركة المثلثة في التوراة ، المكتوبة على يدي موسى عبدك المنطوقة من فم هارون وأبنائه كهنة شعبك المقدسين في قوله «يباركك الرب ويحرسك ، يضيء الرب بوجهه عليك ، ويرأف بك . يرفع الرب وجهه عليك ، ويمنحك سلاماً ، فيجعلون اسمي على بني إسرائيل وأنا أباركهم » (عدد ٢٤/٦ ـ ٢٦) .

ـ ١٩ ـ

اجعل علينا سلاماً وخيراً وبركة وحياة ونعمة وفضلاً وإحساناً ورحمة ، وعلى جميع شعبك إسرائيل . وباركنا يا أبانا جميعنا معاً بنور وجهك . لأنه بنور وجهك أعطيتنا يا رب إلهنا شريعة وحياة ومحبة وفضلاً وإحساناً ورحمةً وبركة وسلاماً . ليكن حسناً في عينيك أن تباركنا وتبارك كل شعبك إسرائيل بمزيد عزة وسلام ، (في عشرة أيام التوبة يقال) : وفي سفر الحياة والبركة والسلام والقوت الجيد والفرج والعزاء والأحكام الحسنة لنُذكَرْ ونُكتَبْ أمامك نحن وجميع شعبك إسرائيل لحياة سعيدة وسلام .

مبارك أنت يا رب يا من يبارك شعبه إسرائيل بالسلام ، آمين .

لتكن أقوال فمي وفكر قلبي مرضية أمام وجهك يا رب يا صخرتي وموئلي . (مزامير ١٩/١٥) .

٢ ـ التقويم العبري والأعياد اليهودية :

التوقيت ، وهوحساب الليل والنهار والأيام والأسابيع والشهور والسنين ، من أهم الأشياء التي وجه إليهااليهود عنايتهم في حياتهم الدينية . ولا عجب في ذلك ، فقد شد انتباههم منذ القدم اهتمام الأمم الأخرى المتحضرة التي تقلبوا بين ظهرانيها بحساب الزمن . فالمصريون كانوا يؤلهون الشمس، ويرصدون حركتها ويجعلون مدار السنة مرتباً مع دورتها. وكانوا يحتفلون بالفصول الأربعة ، ويربطون ذلك بأساطيرهم الدينية من ناحية ، وبحياتهم الزراعية من ناحية أخرى . والبابليون والأشوريون والكلدانيون ، وكذلك الكنعانيون والسريان الآراميون ، والعرب ، كانوا يعرفون دقائق حركة الشمس والقمر كليهما ، ودوران الكواكب على مر الأيام ، ينظمون بذلك نشاطهم في الزراعة وانتجاع المراعي والسفر للتجارة . فحذا العبريون حذوهم ، واهتموا بالتاريخ والتقويم .

والتاريخ اليهودي يجعل نقطة بدايته خلق السموات والأرض . وقد أخذ أحبارهم في حساب أعمار الأسلاف ، وضم بعضها إلى بعض ، منذ آدم، ملتزمين في ذلك حرفية نص الكتاب المقدس. وكانت النتيجة أننا الآن مثلاً، في وقت كتابة هذه الدراسة، أي في السنة الجامعية ١٩٧٠/١٩٧١ ميلادية نجد أنفسنا بالتقويم العبري في سنة ٥٧٣١ من بدء الخليقة ، وهو بالطبع تاريخ خرافي أسطوري متأخر جداً عن بدء الخليقة الذي لا يعلم إلا الخالق متى كان . ويكفي أن نقول إن لدينا آثاراً من صنع يد البشر ، وحضارات ، وبقايا من أجسام إنسانية في نواح كثيرة متفرقة من العالم ترجع إلى ما قبل هذا التاريخ بأزمان طوال جداً . ومهما يكن من شيء فإن بدء التاريخ عند كل ملة من الملل إنما هو مسألة اصطلاحية ، متى ما اتفق عليها الناس فلا مشاحة فيها ، إلا من حيث ارتباطها بحادثة إنسانية عامة ضخمة مثل بدء الخليقة ، الذي يعتبر ، بلا تردد ، أضخم حوادث التاريخ .

وحساب الشهور في السنة العبرية يتبع دورة القمر ، بينما حساب السنين يتبع دورة الشمس. ولذلك فقد كان لزاماً على اليهود حتى يتطابق الحسابان ، القمري للشهور والشمسي للسنين ، أن يكون هناك نسيء يكمل الفرق بين السنة الشمسية والسنة القمرية التي تقل بنحو عشرة أيام . هذا النسيء يجري عند اليهود بإضافة شهر كل ثلاث سنين ، بحيث تكون سنتهم الكبيسة التي تأتي مرة كل ثلاثة أعوام مؤلفة من ثلاثة عشر شهراً . وشهر النسيء يقحم عندهم بعد شهر آذار اليهودي ، الذي يأتي كما سنرى في فصل الربيع ، جزء منه في أواخر فبراير ، وبقيته في شهر مارس . وهكذا يكون في السنة الكبيسة شهران هما آذار وآذار الثاني .

ولما كانت الشهور اليهودية قمرية كما قلنا فإنها ، كشهور السنة الهجرية ، إما أن تكون ثلاثين يوماً أو تسعة وعشرين يوماً فقط . وهناك شهران اثنان فقط في السنة اليهودية يأتي كل منهما كاملاً (ثلاثين يوماً) أحياناً ، وناقصاً (تسعة وعشرين يوماً فقط) أحياناً ، وهذان الشهران هما « حِشْوان » الذي يقابل نوفمبر ، و « كِسْلِو » الذي يقابل ديسمبر .

وشهور السنة العبرية بحسب ترتيبها هي :

١ ـ تِشْرِي ـ ٣٠ يوماً ـ (أكتوبر) .

٢ ـ حِشْوان ـ ٢٩ أو ٢٠ يوماً (آخر أكتوبر ـ نوفمبر) .

٣ ـ كِسْلِوْ ـ ٢٩ أو ٣٠ يوماً ـ (آخر نوفمبر ـ ديسمبر).

٤ ـ طِبِت ـ ٢٩ يوماً ـ (آخر ديسمبر ـ يناير) .

٥ ـ شباط ـ ٣٠ يوماً ـ (آخر يناير ـ فبراير) .

٦ ـ آذار ـ ٢٩ يوماً ـ (آخر فبراير ـ مارس) .

٧ ـ نيسان ـ ٣٠ يوماً ـ (آخر مارس ـ ابريل) .

٨ ـ أيار ـ ٢٩ يوماً ـ (آخر ابريل ـ مايو) .

٩ ـ سِيوان ـ ٣٠ يوماً ـ (آخر مايو ـ يونيه) .

١٠ ـ تموز ـ ٢٩ يوماً ـ (آخر يونيه ـ يوليه) .

١١ ـ آب ـ ٣٠ يوماً ـ (آخر يوليه ـ أغسطس) .

١٢ ـ أيلول ـ ٢٩ يوماً ـ (آخر أغسطس ـ سبتمبر) .

وفي السنة الكبيسة التي يقحم فيها شهر آذار الثاني ، يحسب آذار الأول ثلاثين يوماً ، والثاني تسعة وعشرين يوماً .

وكانت الطريقة القديمة للتقويم العبري ، فيما يبدو ، تجعل بدء السنة في فصل الربيع ، بل ربما كان بدء التاريخ إذ ذاك هو قصة خروج موسى من مصر في الفترة التي يقع فيها عيد الفصح ، وهو شهر نيسان (ابريل) من شهور الربيع . ولذلك جرت عادة اليهود حتى الآن عندما يسردون أسماء شهور السنة أن يبدأوا بنيسان لا بتشرين فيقولون نيسان ـ أيار ـ سيوان ـ تموز ـ آب ـ أيلول ـ تشري ـ حشوان ـ كسلو ـ طبت ـ شباط ـ آذار .

والسنة اليهودية تنقسم إلى أربعة فصول ، كل فصل منها طوله واحد وتسعون يوماً وسبع ساعات ونصف ساعة ، وهي :

١ ـ فصل الخريف، ويسمى عندهم «تقوفت تشري». ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ سبتمبر .

٢ ـ فصل الشتاء ، ويسمى عندهم « تقوفت طبت » . ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ ديسمبر .

٣ ـ فصل الربيع ، ويسمى عندهم « تقوفت نيسان » ويبدأ في ٢٥ أو ٢٦ مارس .

٤ ـ فصل الصيف ، ويسمى عندهم « تقوفت تموز » . ويبدأ في ٢٤ أو ٢٥ يونيه .

وقد حدد الموقتون، طبقاً لحساباتهم الفلكية ، أياماً محددة من الأسبوع يبدأ فيها كل شهر من الشهور وهذا بيانها : ـ

نيسان: الأحد والثلاثاء والخميس والسبت، ولا يكون أبداً: الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة .

أيار : الاثين والثلاثاء والخميس والسبت ، ولا يكون أبداً : الأحد أو الأربعاء أو الجمعة .

سيوان : الأحد والثلاثاء والأربعاء والجمعة ، ولا يكون أبداً : الاثنين أو الخميس أو السبت .

تموز : الأحد والثلاثاء والخميس الجمعة ، ولا يكون أبداً : الاثنين أو الأربعاء أو السبت .

آب : الاثنين والأربعاء والجمعة والسبت ، ولا يكون أبداً : الأحد أو الثلاثاء أو الخميس .

أيلول : الأحد والاثنين والأربعاء والجمعة ، ولا يكون أبداً : الثلاثاء أو الخميس أو السبت .

تشري : الاثنين والثلاثاء والخميس والجمعة ، ولا يكون أبداً : الأحد أو الأربعاء أو السبت .

حشوان : الاثنين والأربعاء والخميس والسبت ، ولا يكون أبداً : الأحد أو الثلاثاء أو الجمعة .

كسلو : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، ولا يكون أبداً يوم السبت .

طبت : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والجمعة ، ولا يكون أبداً : الخميس أو السبت .

شباط : الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والسبت ولا يكون أبداً : الأحد أو الجمعة .

آذار : السبت والاثنين والأربعاء والجمعة ، ولا يكون أبداً الأحد أو

الثلاثاء أو الخميس . (وآذار الثاني مثله في السنة الكبيسة)[1] .

وأهم مواسم اليهود وأعيادهم :

١ ـ السبت ، وهو العيد الأسبوعي عندهم ، ومدته من غروب شمس يوم الجمعة إلى غروب شمس يوم السبت . وأهم شعائره الكف عن أي عمل ، فبذلك جاء الأمر صريحاً في الوصايا العشر ، المنسوبة إلى موسى في التوراة . وقد سبق أن قلنا إن هذه الوصايا العشر تكررت بألفاظها تقريباً في الإصحاح العشرين من سفر الخروج ، والإصحاح الخامس من سفر التثنية . ومن المواضع التي اختلفت فيها الروايتان الموضع الذي تشرح فيه حكمة تعطيل العمل يوم السبت ، فرواية الخروج تجعل ذلك لأن الله نفسه استراح في هذا اليوم بعد انتهائه من تكوين الخليقة، وتقول:

« واليوم السابع سبت للرب إلهك ، لا تصنع فيه عملاً لك ، أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذي في داخل أبوابك ، لأن الرب في ستة أيام خلق السموات والأرض والبحر وجميع ما فيها ، وفي اليوم السابع استراح . ولذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه » .

وفي رواية سفر التثنية يبدو أن الحكمة في تقديس يوم السبت هي بكل بساطة تمكين الإنسان والحيوان من الراحة بعد أسبوع من العناء . ولا يرتبط ذلك هنا بأن الله استراح في اليوم السابع . بل ربماكان المفهوم من السياق هو ربط هذه الراحة بالتحرر من السخرة والعبودية ، عندما كان قوم موسى ما يزالون في مصر عبيداً لفرعون يعملون بأمره ولا يحق لهم أن يستريحوا يوماً واحداً في الأسبوع ، فهذه الرواية تقول : « احفظ يوم السبت وقدسه كما أمرك الرب إلٰهك . في ستة أيام تعمل وتصنع جميع أعمالك . واليوم السابع سبت للرب إلٰهك ، لا تعمل فيه عملاً أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وثورك وحمارك وسائر بهائمك ونزيلك الذي في داخل أبوابك ، لكي يستريح عبدك وأمتك مثلك . واذكر أنك كنت عبداً في أرض مصر فأخرجك الرب

---

(١) كتاب الصلوات ، ترجمة الدكتور هلال يعقوب فارحي . باب التقويم العبراني ص ٢٥٠ وما بعدها .

إلٰهك من هناك بيد قوية وذراع ممدودة ولذلك أمرك الرب إلٰهك بأن تحفظ يوم السبت » .

وتفنن فقهاء اليهود في تفسير الكف عن العمل يوم السبت ، فحرموا فيه كل ما من شأنه أن يشعر بالسعي في الرزق أو الانشغال بحرفة أو صناعة أو إنتاج أو بذل جهد في تحقيق هدف معين . لذلك حرموا إيقاد نار يوم السبت ، وإن كان أكثرهم قد أباح بقاء النار التي أشعلت قبل الدخول في السبت والانتفاع بها يوم السبت نفسه ، كأن توقد الأنوار والشموع والقناديل والأفران ونيران المطابخ والمدافىء والمواقد بعد ظهر الجمعة لاستخدامها ليلة السبت . كذلك حرموا السفر في هذا اليوم ، لتحريم ركوب الدواب قديماً ، وتحريم إيقاد النار التي تنطبق الوصية بها على وسائل المواصلات الحديثة ، كالقطار والسيارة والباخرة والطيارة ، التي تعتمد كلها فيي سيرها على النار . وجعلوا من السفر عبور الجداول والأنهار أو الانتقال بحراً . كذلك يحرم في يوم السبت إنفاق النقود أو تسلمها ، فهذا كله عمل أساسه البيع والشراء أو أنواع مشابهة من الاكتساب والأخذ والعطاء بين الناس .

ومما يحرم في يوم السبت الكتابة لأنها في عرفهم تكون لإبرام العقود وعقد الاتفاقات ونحوها مما يدخل في مفهوم الشغل ، لذلك جرى العرف على ألا يخرج اليهودي المتمسك بتعاليم السبت من بيته إلا وقد تأكد أن جيوبه ليس فيها أقلام ولا أوراق ولا نقود ولا كبريت ، وأكثرهم يخرج إلى المعبد وليس معه إلا التوراة أو كتاب الصلوات « السدور » .

وبطبيعة الحال يحرم عقد الزواج يوم السبت ، لاحتياج ذلك إلى الكتابة ودفع الأموال وقبضها والعمل في إعداد الزفاف ونحو ذلك .

وتحرم الحرب الهجومية يوم السبت ، لكن إذا أعلن الكاهن اليهودي أن العسكر الإسرائيلي ، أو أن أهل هذه الملة ، في خطر اعتبرت الحرب دفاعية وجاز دورانها يوم السبت . ولذلك نلاحظ أن قادة إسرائيل في الوقت الحاضر حريصون جداً على إظهار حروبهم أمام الرأي العام اليهودي والعالمي بشكل حروب دفاعية ، حتى يتخلصوا من مشاكل السبت وغيرها من

مشاكل الحرب الهجومية ، كضرورة الحصول ، في حالة التعبئة للحرب الهجومية ، على إذن باستنفار من يصلحون للقتال من المجلس الديني الأعلى . وهذا هو سرّ تسمية «جيش (الدفاع) الإسرائيلي».

٢ ـ بداية الشهر القمري ، وله طقوس وصلوات خاصة تؤدى عند رؤية الهلال كل شهر ، وهم لا يعتمدون على الرؤية البصرية، ويأخذون الآن بالحساب الفلكي . ويسمى عيد الهلال عندهم « رُوشْ حُودِشْ » أي رأس الشهر . والاحتفال به يكون أحياناً يوماً واحداً ، وأحياناً يومين .

٣ ـ رأس السنة العبرية ، ويسمى عندهم « رُوشْ هَشّانا » وتستغرق طقوسه ثلاثة أيام ، منهما اليوم الأول والثاني من شهر تشري (في أوائل أكتوبر) ثم يستمر الاحتفال في اليوم الثالث بطريقة شعبية . أما اليوم الرابع من تشري فهو يوم صيام اسمه « صوم جِدَلْيَا » ، وهو يوم حزن وحداد ـ ككل أيام الصوم عند اليهود . ومناسبته هو ذكرى قتل جِدَلْيَا بن أحيقام الذي ولاه بختنصر ملك بابل على البقية الباقية من اليهود في فلسطين بعد الاستيلاء عليها ، ونقل من يصلح للخدمة من اليهود أسرى إلى بابل . وتقول القصة إن أعداء اليهود دبروا مؤامرة لقتل جدليا في هذا اليوم حتى يتمكنوا من إتمام إبادة هذه البقية الباقية معه من بني إسرائيل .

٤ ـ يوم الغفران، أي يوم الكفارة، وهو اليوم العاشر من شهر تشري . ويبدأ هذا العيد قبيل غروب الشمس من اليوم التاسع من تشري ، ويستمر إلى ما بعد غروب شمس اليوم التالي ، فمدته حوالي ٢٧ ساعة ، يجب فيها الصيام ليلاً ونهاراً وعدم الاشتغال بأي شيء ما خلا العبادة ، واسمه بالعبرية « يوم كِبُّور » .

والظاهر أن بداية هذه الشعيرة ترجع إلى عصور العبريين الأولى ، بل من الراجح أن الشريعة الموسوية نفسها قد قررت يوماً في السنة لحساب النفس ، والندم على ما بدر من المؤمن من الخطايا ، والتكفير عنها لا بالصوم فقط بل بالذبائح والصلوات والأموال ورد المظالم إلى أهلها وطلب الصفح من المعتدى عليهم ، وكان اسمه قديماً « يوم هَكِّبُّورِيمْ » أي يوم

الكفارات . ولكن حدث صدفة أن بختنصر دمر أورشليم وأشعل فيها النيران ودخلتها جيوشه منتصرة في هذا اليوم (سنة ٥٨٦ ق.م) ، فاقترن هذا اليوم بتلك الذكرى السياسية الأليمة بالنسبة لليهود ، وأصبح عندهم أكبر أيام الحداد .

ومن الأشياء الهامة التي تجب الإشارة إليها هنا أن اليهود ، على طول تعرضهم للاضطهاد من الأمم التي عاشوا بين ظهرانيها ، قد جعلوا من يوم الغفران أو التكفير هذا يوماً يعلنون فيه نقضهم للعهود والمواثيق التي قطعوها لغير اليهود . وأفتى فقهاؤهم بأن الداعي إلى ذلك كان إكراه اليهود على تغيير دينهم . وشاع بين عوام اليهود أن يوم الغفران هذا يجوز فيه أكل الديون التي على اليهودي وعدم أدائها ، كما يجوز فيه الرجوع في كل وعد أو تعهد قطعه على نفسه طول السنة معتمدين في ذلك على نص يتعبدون به ـ باللغة الآرامية ـ يبدأ بعبارة «كل نِدْرِي وأسَّارِى وشبُوعى . . . إلخ» التي معناها « كل النذور والتحريمات والأيْمَان إلى آخره » والنص ينهي ذلك بأنها ملغاة ، وأن النذور ليست نذوراً والتحريمات ليست تحريمات والأيمان ليست أيماناً .

وبلغ من انتشار ذلك بينهم أن كثيراً من رجال الدين اليهودي المعاصرين قاموا في وجه هذه البدعة ، فحاخام بروكسل دافيد برمان يقول في ذلك[1] « إنه يكون من الخطأ الجسيم أن تفهم من هذا النص إمكانية متاحة للإسرائيلي في عدم التمسك بما قطعه على نفسه من وعود فلا يمكن أن يكون هذا النص التعبدي ملغياً لما جاء في الشريعة ـ (التوراة ، سفر التثنية ٢٣/٢٤) وأما ما خرج من شفتيك فحافظ عليه . . . » .

٥ ـ عيد الظُلَل ، واسمه بالعبرية « سُكُّوت » ، والأصل في هذا العيد أنه عيد زراعي ، كان يحتفل فيه بتخزين المحصولات الزراعية الغذائية للسنة كلها في هذا الفصل وهو فصل الخريف . فكانوا يكدسون مؤونتهم من التمر والتين الجاف والزيتون والزبيب والنبيذ ، ولذلك يسمونه أيضاً بالعبرية « حج هاأسيف » أي عيد التخزين .

---

(١) David Berman ; Initiation au Judaisme; Paris 1937 — 1938; p.148 ss.

ويبدأ هذا العيد في اليوم الخامس عشر من شهر تشري ، ويكون الاحتفال به منذ غروب شمس اليوم الرابع عشر ، بحيث تكون هذه ليلة العيد . ومدته التقليدية تسعة أيام ، منها سبعة أيام هي عيد الظلل بذاته ، ويومان آخران هما الثاني والعشرون والثالث والعشرون من تشري ، ولهما لون آخر ، فالأول منهما يسمى الثامن الختامي « شميني عَصِيرِتْ » لأنه يختم عيد الظلل بأيامه السبعة ، بل يختم كل الأعياد المكدسة في الشهر الأول من السنة العبرية وهو شهر تشري . وأما اليوم الثاني من هذين اليومين الأخيرين فإنه يفتتح دورة مديدة من قراءة التوراة ، ولذلك يسمى عيد فرحة التوراة « سِمْحَتْ توراة » .

أما سبعة أيام الظلل ، فاليومان الأوّلان منها عيد بكامل مظاهر البهجة والاحتفال ، والخمسة الباقية استمرار مخفف لهما . والتقليد عند اليهود في هذا العيد أن يقيموا في أكواخ مصنوعة من أغصان الشجر التي لا تحجب عنهم رؤية السماء تماماً . وهذه الأكواخ النباتية التي تشبه ما نسميه في مصر « الخُصّ » ، أو ما يسمى في الأقطار الشامية « العِرزال » أو « العَريشة » لا بد أن ترجع إلى أعياد زراعية ورعوية بدائية ، إذ بعد موسم الجفاف الطويل مدة شهور الصيف ، ينتظر الفلاحون والرعاة مع الخريف بواكير المطر، ويحتفلون بها احتفالاً خاصاً. ولذلك فإن اليوم السابع والأخير من عيد الظلل يسمى عند اليهود «اليوم الكبير لطلب النجدة»، وبالعبرية «هُوَ شَعْنَارَبّـا». ويبدو أنها في الأصل كانت صلاة استسقاء عندما يتأخر المطر . وقد جرى عرف اليهود الآن على أنهم في هذا اليوم يدخلون المعبد لهذه الصلاة وفي يد كل واحد منهم غصن من الأغصان التي تستعمل في تهيئة هذه الظلل ، فيضربون على الكراسي بهذه الأغصان حتى تتساقط أوراقها كلها ، ويعتقدون أنه مع سقوط الأوراق تسقط عنهم ذنوبهم التي ارتكبوها في السنة .

وبالطبع أصبح اليهود المقيمون في أوروبا وأمريكا لا يحتفلون بعيد الظلل في الهواء الطلق لشدة البرودة ، واحتمال سقوط الأمطار في هذه الأيام الأخيرة من تشري (أواخر أكتوبر) . ولذلك فهم يكتفون بعمل مظلة صغيرة

من السعف أو أغصان الصفصاف ، ومعها غصن من الأترج ، وهو نوع من الموالح معروف ، بحيث تنصب هذه المظلة في إحدى الشرفات بالمسكن ، ويتناولون فيها وجبات الطعام فقط ، ثم ينامون في فراشهم داخل بيوتهم .

٦ ـ الحانوكة ، أو عيد التدشين وهو عيد له طبيعة سياسية وصهيونية وتاريخية في الخامس والعشرين من شهر كسلو ، الذي يقابل شهر ديسمبر . وهو بوضعه هذا يمكن أطفال اليهود من الاحتفال بعيد إسرائيلي في نفس الفترة التي يحتفل فيها المسيحيون بعيد الميلاد .

ومناسبة هذا العيد ترجع إلى سنة ١٦٥ ق.م. إذ كانت فلسطين هي وسائر بلاد الشام تحت الحكم اليوناني ، كما كانت مصر أيضاً . وكان المتصرف في الأقطار الشامية هو انتيوخوس إبيفانس ، الذي حاول إرغام اليهود الواقعين تحت حكمه على ترك دينهم ، والدخول في الوثنية اليونانية . ولكن الكاهن الأكبر متاتيا أعلن المقاومة يعاونه في ذلك أحد أبنائه واسمه يهوذا المكّابي ، وأملهما انتزاع المعبد اليهودي من الجيوش اليونانية السورية التي وجهها انتيوخوس ابيفانس . وفي ٢٥ كسلو من هذه السنة أخرجت التماثيل اليونانية من الهيكل ، وزوده متاتيا وابنه يهوذا المكابي بمذبح طاهر جديد ، وأعيد فتحه للشعائر اليهودية . وهذا هو السر في تسمية هذا العيد بعيد التدشين .

والطابع المميز للاحتفال بهذا العيد هو إشعال الشموع الكثيرة والأنوار المختلفة لمدة أسبوع كامل ، كذلك تدخل في العبادة قصائد وأناشيد كثيرة كلها إشادة بالأعمال الجليلة البطولية التي تمت في هذه الفترة . وبالرغم من أن السفرين الخاصين بتاريخ المكابيين يعتبران من النصوص غير القانونية عند اليهود ، فإن المثقفين منهم يقرأونهما عادة في هذه المناسبة .

وتجعل الصهيونية من هذا العيد فرصة من الفرص التي تغتنمها للدعاية . فالحاخام البلجيكي دافيد برمان يذكر أن الدروس التي يستفيدها اليهودي من العيد هي :[١]

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١٩ وما بعدها .

١ ـ الإيمان ، والإمكانيات الخارقة التي يمكن أن يصنعها الإيمان . ويقول في هذا الصدد ما خلاصته إن أمراء الحشمونيين اليهود (المكابيين) لم يكونوا شديدي التمسك بالدين اليهودي أو التعصب له ولكن إيمانهم قوي إزاء رؤيتهم أصنام اليونان في داخل معبدهم . وإلى هذا التاريخ يرجع تحليل القتال عند اليهود يوم السبت .

٢ ـ الشجاعة والبسالة ؛ ويقول نفس المؤلف إن هؤلاء الحشمونيين لم يكونوا في الأصل من المحاربين المغاوير . ولكنهم اكتشفوا ذلك عندما تعرضوا للخطر ، كما أنهم قرنوا الشجاعة بالبراعة السياسية والدبلوماسية .

٣ ـ صعوبة اندماج اليهود . ويقول الحاخام برمان إنه طالما كانت الحضارة اليونانية قائمة على التسامح والحرية الدينية والاعتراف بالشخصية اليهودية المتميزة عن غيرها ، ساير اليهود التيار وأخذوا ما يفيدهم من هذه الحضارة اليونانية محتفظين بمميزاتهم الخاصة . ولكن عندما أراد أنتيوخوس إبيفانس حملهم على ترك يهوديتهم نهائياً وبالقوة ، هبوا هبتهم هذه من جديد .

ويطول بنا القول لو أننا تتبعنا كل ما كتب شعراً ونثراً من أدب قصصي ومسرحي وغنائي وديني حول الحانوكة بأقلام اليهود المنتشرين في العالم ، وما حظيت به شموع الحانوكة وقناديلها من أعمال فنية تشكيلية ، وإنما أردنا أن نلفت نظر القارىء العربي إلى أن بعض القيم الروحية في اليهودية قد تحولت مع الصهيونية المعاصرة إلى قيم تعصبية سياسية وعسكرية .

٧ ـ البُوريم ، أو عيد الفُور أو عيد النصيب . وكان الكتّاب العرب يسمونه « عيد المسخرة » أو « عيد المساخر » والسبب في ذلك ما جرت به بعض تقاليد يهودية شعبية في هذا العيد من إسراف في شرب الخمر والسُكْر ، ولبس الأقنعة والملابس التنكرية على طريقة المهرجان (الكرنفال) .

وهذا العيد أيضاً لا يمت بصلة إلى رسول الله موسى عليه السلام ، ولا إلى شريعته ، بل هو احتفال تذكاري متصل بملابسات ممهدة للعودة من

السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد، بناءً على وعد صدر من ملك الفرس إلى ممثلي الجالية اليهودية المقيمة عند الكلدانيين بالعراق ، بأنه إذا تم له ـ بمساعدتهم طبعاً ـ دخول العراق وتدمير الدولة الكلدانية سيعيدهم إلى فلسطين . وبطبيعة الحال كان تقرير الاحتفال بتلك الذكرى وما علق بها من حكايات متأخراً بالنسبة لتلك الحوادث . وهو احتفال أشد التصاقاً بالسياسة منه بالدين ، ولذلك فإنه يحظى في ظل الصهيونية الحديثة باهتمام خاص ، ويدور حول قصة اليهودية إستير .

ويبدأ هذا العيد من ليلة الثالث عشر من شهر آذار من السنة اليهودية ، ويكون يوم ١٣ آذار نفسه صوماً يسمى عندهم « صيام إستير » ، أما اليوم الرابع عشر فهو العيد الذي يستمر طيلة هذا اليوم ويطلق عليه « يوم بوريم » ، ثم يكون اليوم الذي يليه ، وهو الخامس عشر من آذار ، اليوم الصاخب ، يوم الكرنفال ، ويسمونه « بوريم شوشان » نسبة إلى مدينة « شوشان » أو « سوزة » الإيرانية .

وبالرغم من وضوح مناسبة هذا العيد من الناحية السياسية والتاريخية ، فإن التلمود يزعم أنه كان معروفاً محتفلاً به منذ أيام يوشع بن نون لأسباب ـ مماثلة ـ كما يقول ـ للأحداث التي وقعت لليهود في السبي البابلي .

وخلاصة هذه الأحداث هي أن ملك الفرس « أحشويروش » ـ إكسركسيس عند المؤرخين ـ كان قد اتخذ له وزيراً اسمه هامان . وكان هذا الوزير يكره رجلاً من حكماء اليهود ، اسمه « مردخاي » ، كراهية شديدة تعَدّت شخصه إلى الجنس اليهودي كله ، بحيث أقسم هامان أن يقطع دابرهم جميعاً من بلاده . وأجرى هامان القرعة لاختيار يوم مذبحة اليهود . وكلمة القرعة في اللغة الفارسية إذ ذاك كانت « بُور » أو « فُور » ، وجمعها بالعبرية « بُوريم » . وأسفرت هذه القرعة عن تحديد الثالث عشر من آذار موعداً لتنفيذ عملية الإبادة في اليهود ، وأعدت مشنقة في الساحة العامة حتى يعلق فيها مردخاي . وكان مردخاي هذا وصيّاً ووليّاً على قريبته « إستير » التي كان جمالها مضرب الأمثال . وكان « أحشويروش » عاشقاً لها مغرماً بها ،

بحيث أفسح لها مكاناً في قاعدة ملكه ، وأبدى في مناسبات كثيرة الطاعة لأمرها لدرجة أنها كانت تسمى « الملكة إستير » .

فذهب إليها قريبها اليهودي مردخاي مستنجداً ، وتقول القصة (سفر إستير ٤/١٦) إنها قالت لمردخاي « اذهب واجمع كل اليهود الذين في شوشان (عاصمة المملكة التي تسمى سوزه أيضاً) وصوموا لأجلي، ولا تأكلوا ولا تشربوا ثلاثة أيام ليلاً ونهاراً، وأنا ووصيفاتي نصوم كذلك، ثم أدخل على الملك ، على خلاف العادة ، فإن هلكت هلكت » . وتستمر القصة في الفصل الخامس من سفر إستير فتقول :

« وكان في اليوم الثالث أن لبست إستير ثياب المُلك ، ووقفت في ساحة دار الملك الداخلية ، قبالة دار الملك . . . فكان لمَّا رأى الملك إستير الملكة واقفة في الساحة ، أنها نالت حظوة في عينيه ، فمد الملك لإستير صولجان الذهب الذي بيده ، فتقدمت إستير ولمست رأس الصولجان وقال لها الملك مالك يا إستير الملكة ، وما بغيتك ؟ ولو كانت نصف المملكة فإنها تعطى لك . فأجابت إستير : إن حسن عند الملك ، فليأت الملك وهامان هذا اليوم إلى الوليمة التي أعددتها له . فقال الملك استعجلوا هامان ليفعل كما قالت إستير . ثم جاء الملك وهامان إلى الوليمة التي صنعتها إستير . فقال الملك لإستير ، عند الشرب ، ما بغيتك فتعطى لك وما سؤالك ولو كان نصف الملكة فيقضى . فأجابت إستير وقالت بغيتي وسؤلي ، إن حظيت في عيني الملك ، وإن حسن عند الملك أن يعطيني بغيتي ويقضي سؤلي ، فليأت الملك وهامان إلى الوليمة التي أصنعها لهما، وغداً أفعل أنها كمشيئة الملك . فخرج هامان ذلك اليوم فرحاً طيب القلب .

ولما رأى هامان مردخاي بباب الملك ، وأنه لم يقم له ولم يتحرك ، امتلأ هامان غيظاً على مردخاي . ولكن هامان ضبط نفسه ، وجاء إلى بيته وأرسل فأحضر أصدقاءه وزوجته زارش . وحدثهم هامان بعظمة ثروته وكثرة بنيه وكل ما كرمه به الملك وكيف رفعه على الزعماء وعبيد الملك . وقال هامان : وفوق ذلك فإن إستير الملكة لم تُدخل أحداً إلى الوليمة التي صنعتها

إلا إياي مع الملك ، وأنا غداً مدعو أيضاً إليها مع الملك ، إلا أن هذا كله عندي كلا شيء، ما دمت أرى مردخاي اليهودي جالساً بباب الملك. فقالت له زارش زوجته وجميع أصدقائه، لتصنع خشبة بعلو خمسين ذراعاً، وغدا كلم الملك فيعلق عليها مردخاي، ثم أدخل مع الملك إلى الوليمة مسروراً. فحسن الأمر عند هامان وصنع الخشبة».

وتستمر إستير هي ومردخاي في حبك المؤامرة ، والملك يسكر معها حتى ينتهي الأمر بشنق هامان على الخشبة التي كان قد أعدها لمردخاي. وسلم الملك بيت هامان لإستير التي عينت فيه مردخاي وكيلاً . ويقول سفر إستير ، في الإصحاح التاسع ، إنه في اليوم الثالث عشر من آذار الذي كان فيه أعداء اليهود يرجـون التسلط عليهم ، « انقلب ذلك فكان لليهود التسلط على مبغضيهم . إذ اجتمع اليهود في مدائنهم ، في جميع أقاليم أحشويروش الملك ، لكي يلقوا أيديهم على جميع طالبي مساءتهم ، فلم يقف أحد في وجوههم ، لأن خوفهم وقع على جميع الشعوب . وكان جميـع رؤساء الأقاليم والأقطاب والولاة ووكلاء عمل الملك يساعدون اليهود ، لأن خوف مردخاي وقع عليهم . إذ كان مردخاي عظيماً في بيت الملك ، وقد سار ذكره في جميع الأقاليم ، لأن مردخاي كان آخذاً في العظمة فضرب اليهود جميع أعدائهم ضرب السيف والقتل والإهلاك ، وفعلوا بمبغضيهم كما شاؤوا. وفي شوشان العاصمة قتلت اليهود وأهلكت خمسمائة رجل . . . وعشرة أبناء هامان بن همداتا عدوّ اليهود قتلوهم ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى غنيمة .

في ذلك اليوم رفع عدد المقتولين في شوشان العاصمة إلى الملك . فقال الملك لإستير الملكة قد قتل اليهود وأهلكوا في شوشان العاصمة خمسمائة رجل مع بني هامان العشرة ، فما يكونون فعلوا في باقي أقاليم الملك . والآن فما بغيتك فتعطى لك ، وما سؤلك بعد فيقضى . فقالت إستير إن حسن عند الملك ، فليبح لليهود الذين في شوشان أن يفعلوا غداً أيضاً كما فعلوا في هذا اليوم ، ويعلقوا بني هامان العشرة على خشبات . فأمر الملك بأن يفعل هكذا ، وأبرز الحكم في شوشان ، فعلقوا بني هامان

العشرة . واجتمع أيضاً اليهود الذين في شوشان في اليوم الرابع عشر من شهر آذار وقتلوا ثلاثمائة رجل في شوشان ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى غنيمة . واجتمع سائر اليهود الذين في أقاليم الملك ونهضوا لأنفسهم ، واستراحوا من أعدائهم ، وقتلوا من أعدائهم خمسة وسبعين ألفاً ، ولكنهم لم يمدوا أيديهم إلى غنيمة . فعلوا ذلك في اليوم الثالث عشر من شهر آذار ، واستراحوا في اليوم الرابع عشر منه ، وجعلوه يوم وليمة وفرح .

وأما اليهود الذين في شوشان فإنهم اجتمعوا في الثالث عشر منه وفي الرابع عشر ، واستراحوا في الخامس عشر منه ، وجعلوه يوم وليمة وفرح . ولذلك جعل اليهود الذين في القرى ، الساكنون مدائن غير محصنة ، اليوم الرابع عشر من شهر آذار يوم فرح ووليمة ، ويوم خير وتوجيه « أنصبة » من بعضهم إلى بعض ... لذلك دعوا هذين اليومين بُوريم أخذاً من اسم البُور . ولذلك من أجل جميع كلمات هذه الرسالة وما رأوا من ذلك وما حل بهم ، سنّ اليهود وأوجبوا على أنفسهم وعلى نسائهم وعلى كل من يتصل بهم ، ألا يبطل تعييدهم لهذين اليومين بحسب كتابتهما وأوقاتهما كل سنة » .

وسفر إستير المتضمن لهذه القصة في العهد القديم ، والمؤلف من عشرة إصحاحات ، يكتب بخط اليد على جلد أو رقّ ، ويحفظ مع التوراة في المعبد اليهودي ، لقراءته في هذا العيد .

وقد لاحظ نقاد الكتاب المقدس منذ عهد بعيد نواحي غريبة في هذا السفر . منها أن الله غير مذكور فيه على الإطلاق ، لا على لسان اليهود ولا على لسان الفرس . ويقول بعض المعلقين إن طابع هذا العيد ، الصاخب الذي يكثر فيه شرب الخمر والتهريج والكرنفال ، قد أدى إلى احتياط في تسجيل النص بعدم ذكر اسم الله فيه . إذ يقول الآباء اليسوعيون في طبعتهم العربية للكتاب المقدس ببيروت ، عند تقديمهم لسفر إستير : « لقد حفظ هذا السفر في التوراة العبرية . وهو يقرأ كل سنة في عيد الفُوريم الصاخب ، الذي يعتبر بمثابة ذكرى لهذه الحوادث . وقد يشرح طابع هذا

العيد هذا الحدث الفريد الذي مفاده أن نص السفر كما جاء في التوراة العبرية لا يذكر اسم الله . ولربما كان ذلك خشية أن ترافق ذكر اسم الله هتافات وتظاهرات غير لائقة من قبل سامعين ، في نشوة من الأفراح . وهذا أمر مضر بالاحترام الواجب لاسم الله .

« واستدراكاً لهذا النقص فقد ذيل السفر في النص اليوناني وسائر الترجمات بصلوات جميلة يرفعها مردخاي وإستير . فلا نعلم ما هو قديم في هذا الجزء الديني . لكن حتى في القسم الخالي من ذكر اسم الله ، فالنص العبراني يتكلم ضمنياً عن الله بسبب مجرى الأمور الرباني كما يرويها السفر .

« أما تاريخية التفاصيل وجوهر السفر أيضاً فتعترضهما صعوبات جمّة على الرغم مما جاء من ملاحظات شديدة عن الأخلاق الفارسية وطوبوغرافية صحيحة عن مدينة شوشان . من الممكن أن يكون اليهود قد تعرضوا لتعنيفات من هذا النوع في أثناء الحكم الفارسي . وقد حاك المؤلف حول ذكرها قصة خيالية .

« أما تاريخه ، وهو حديث دون شك ، فقد يرجع إلى الجيل الثاني قبل المسيح » .

والصلوات المضافة إلى الإصحاحات العشرة ، والتي يشير إليها الآباء اليسوعيون ، تبدأ بتذييل طويل للإصحاح العاشر والأخير في النسخة العبرية ، ثم تشغل ستة إصحاحات كاملة ، لا يعترف بها اليهود ، ويرد فيها ذكر البطالسة وغيرهم من أعلام العصور اليونانية التالية للإسكندر .

وبالرغم من أن النبية ، أو الملكة إستير فيما يبدو لم تكن غير شخصية قصصية من نسج الخيال اليهودي الخصب ، لم يقم دليل واحد على وجودها تاريخياً ، أو على ممارستها هي وقريبها مردخاي ، هذا النفوذ الواسع النطاق في القصر الإمبراطوري الفارسي ، فإن النزعة الصهيونية التي تصيب نفوس اليهود بين الفينة والفينة ، منذ السبي البابلي ، قد شاءت أن يجعل هؤلاء

اليهود من إستير وقصتها ، لا رمزاً للدهاء اليهودي ، وما يزعمونه من عناية الله عناية خاصة بهم وحدهم ، بل جعلوا هناك ارتباطاً بين إستير وما كان من غرام الإمبراطور أحشويروش بها ، وبين موضوع العودة من السبي البابلي ، وانتشر ذلك في تراثهم الشعبي ، وفي الكرنفال الذي يقيمونه احتفالاً بعيد « بوريم » .

وواقع الأمر هو أن عودتهم من السبي قد ارتبطت بالصراع بين الفرس والكلدانيين عندما كان الإمبراطور كورش الإيراني يتحفز لاحتلال العراق . وقد تعاون اليهود معه ، انتقاماً من حادثة السبي ، ورغبة في الحصول على تصريح منه بالعودة إلى فلسطين . ويبدو أن وعد كورش قديماً ووعد بلفور حديثاً يتشابهان في أن كلاً منهما يكرس بصورة قاطعة تعاون الصهيونية مع الاستعمار في منطقة الشرق الأوسط .

ومع ذلك فهناك فرق بين الحالتين جدير بالاهتمام ؛ ففي الحالة الأولى ـ تحت حكم الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ـ ربما كانت الرغبة في العودة نابعة من الإيمان الديني ، تكتفي بإعادة بناء الهيكل وإقامة الشعائر الخاصة فيه ، دون إجلاء سكان فلسطين من غير اليهود ـ وقد كانوا دائماً وعلى مر العصور كلها كثيرين جداً ـ عن هذه الأرض . كذلك لم يفكر اليهود طيلة الحكم الفارسي وحكم الإسكندر من بعده في تحويل هذا الوجود الديني إلى وجود سياسي أو عسكري ، حتى عهد المكابيين في أواسط القرن الثاني قبل الميلاد . بل إن وعد كورش لليهود بالعودة، وتأمين إقامتهم في فلسطين تحت أسنة الحراب الفارسية ، لم يشجع على الهجرة إلى فلسطين إلا عدداً قليلاً جداً منهم ، ذهبوا مع زعيمهم النبي عزرا . ولم تتحول الهجرة اليهودية إلى شيء يستحق الذكر إلا بعد ذلك باثنتي عشرة سنة . ولكن الصهيونية الحديثة تضلل وتخلط وتستغل حتى الأساطير في إشعال نار العصبية ، والإقناع العاطفي الأهوج الذي لا يقوم على دليل صلب من التاريخ، بقضية اختلقوها من العدم، وأرادوا أن يوهموا الناس جميعاً أنها صورة مكررة من قضايا قديمة مماثلة . ومهما يكن من شيء فحكاية إستير

لا تتصل بالعودة القديمة لليهود إلى فلسطين إلا في الخيال الشعبي لتلك المجموعة البشرية المريضة .

والذي يقوله العهد القديم في ذلك هو ما جاء في الإصحاح الأول من سفر عزرا : « في السنة الأولى لكورش ملك فارس ، لكي يتم ما تكلم به الرب بفم إرميا ، نبه الرب روح كورش ملك فارس فأعلن نداء في مملكته كلها وكتابات أيضاً ، قائلاً : هكذا قال كورش ملك فارس جميع ممالك الأرض قد أعطانيها الرب إله السموات ، وأوصاني بأن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا . فمن كان منكم من شعبه أجمع فإلهه يكون معه ، وليصعد إلى أورشليم التي في يهوذا ليبني بيت الرب إله إسرائيل ، وهو الإله الذي في أورشليم . وكل من بقي في أحد المواضع حيث هو متغرب فليمدده أهل موضعه بالفضة والذهب والمال والبهائم فضلاً عما يتطوعون به لبيت الله الذي في أورشليم . فقام رؤساء آباء يهوذا وبنيامين ، والكهنة واللاويون ، مع كل من نبه الله روحه ليصعدوا لبناء بيت الرب الذي في أورشليم » . فهي كما قلنا عودة دينية ، لتجديد حرم مقدس ، وتدشينه للعبادة والحج من جديد ، وليكون قبلة لليهود جميعاً .

ويقول الحاخام البلجيكي دافيد برمان[1] ، إن هناك دروساً تستفاد من ذكرى عيد « بوريم » منها :

١ ـ أنه يجب على اليهود أن يتجنبوا إشعال نيران العداوة ضدهم ، أو ما يسميه معاداة السامية، عند الأمم الأخرى ، إلا إذا كان ذلك أمراً لا يمكن تفاديه ، كما حدث مع مردخاي قريب إستير .

٢ ـ إذا حدث واشتعل عداء السامية ضد اليهود فمن الواجب على اليهود أن يواجهوه ويناضلوا ضده بشجاعة ، كما فعل مردخاي .

٣ ـ أن الارتباط القائم بين أي يهودي وبني ملته لا يمنعه من الإخلاص والولاء العميق للحاكم الذي يعيش تحت سلطته ولو لم يكن يهودياً كما كان

(١) نفس المرجع ، ص ٢٢٩ وما بعدها .

مسلك مردخاي إزاء أحشويروش . [هذا الحاخام يكتب بالفرنسية ، وهذه العبارة مجرد دبلوماسية] .

٤ ـ أنه مهما كان اليهودي مندمجاً في الأمة التي يعيش فيها ، فعليه ألا ينسى ارتباطه بملته ، فإن الظروف لن تتركه يعيش دون هذا الارتباط ، كما كان من أمر إستير . [هذه هي أقصى ما يتصوره هذا الحاخام من وطنية اليهودي] .

٥ ـ إذا أحدق خطر باليهود ، وجب على كل واحد منهم أن يتدخل في الوقت المناسب .

٦ ـ أن أعداء اليهود يستندون إلى خلاف بينهم وبين أفراد من اليهود لكي ينادوا بإبادة اليهود جميعاً ، فإن هامان وزير أحشويروش لم يكن يكره إلا مردخاي ولكنه جعل من ذلك ذريعة لمحاولة إهلاك كل بني ملته .

٧ ـ أن معاداة السامية لا تكف أذاها عن اليهود مهما عظمت درجتهم في المجتمع .

٨ ـ أن الدفاع الباسل من جانب اليهود هو أقوى سلاح لتصفية معاداة السامية .

٩ ـ أن الصراع ، والانتصار ، والثأر الذي يناله اليهود من أعدائهم يجب ألا يكون مقترناً بسلب أو نهب أو رغبة في الغنيمة .

١٠ ـ أنه في كل مناسبة مفرحة يجب على اليهودي أن يفكر فيما سبقها من آلام ، وبالتالي يفكر في بؤساء ملته كلما أسعدته الظروف .

هذه الوصايا العشر الجديدة التي ينادي بها حاخام في أوروبا الغربية في القرن العشرين تبين أبعاد التعقيد الروحي والاجتماعي الذي تمتلىء به نفوس اليهود حيال الإنسانية كلها ، رغم ما يبدو من رفع شعارات المسالمة ، وهو أمر أصبح تقليداً في تاريخ التآمر اليهودي على الأمم الأخرى .

٨ ـ عيد الفصح ، وأول أيامه الخامس عشر من شهر نيسان من السنة

اليهودية . ويسميه بعض المستعربين من علماء اليهود « الفَسْح » ومن هؤلاء سعديا الفيومي[1] .

والفصح هو عيد الربيع عند اليهود ، فهم على غرار الأمم الأخرى في العالم، قد حرصوا على أن يكون لهم عيد كبير في الربيع . وأعياد الربيع عند شتى الأمم تتقارب بالطبع في زمانها ، وتختلف في مناسبتها التاريخية . إلا أن اليهود يذكرون أن هذا العيد كان للاحتفال بالربيع خاصة ، وكان الشهر الذي يقع فيه يسمى في التوراة شهر « أبيب » وهي كلمة عبرية معناها الربيع[2] . ثم حدث أن تحددت هجرة بني إسرائيل من مصر مع موسى في هذا الوقت ، فأصبح هذا العيد إحياءً لذكرى نجاة بني إسرائيل من فرعون ، وخلاصهم من العبودية في مصر . ومن هنا جاء اختيار أمثال سعديا من علماء اليهود أن يسموه « الفَسْح » أي الفرج بعد الضيق .

وقد اكتسب هذا العيد على مر العصور أكثر من اسم ، لكل منها معناه ومغزاه ، وأشهر هذه الأسماء : ـ

١ ـ الفصح ، أو الفَسْح كما قلنا ، وأصل معناها القديم الخطو والمرور والعبور ، وهذا الاسم يذكر اليهودي بأكثر من شيء .

(أ) مرور ملك العذاب فوق أرض المصريين دون المساس باليهود .

(ب) مرور الشتاء ليفسح المجال للربيع .

(جـ) عبور اليهود من العبودية إلى الحرية .

(د) عبور البحر مع موسى .

٢ ـ عيد الفطير ، وبالعبرية « حج هَمّصوتْ » . لأن طقوسه توجب

---

(١) في ترجمته العربية للتوراة .

(٢) وهي غير شهر أبيب من شهور السنة القبطية ، والفرعونية ، ويقع في فصل الصيف ، في يوليه ـ أغسطس .

على اليهود أن يأكلوا فيه الخبز من عجين فطري ، لا يدخله الملح ولا الخميرة تذكيراً بأنهم عند فرارهم مع موسى من وجه فرعون لم يكن لديهم الوقت ولا فراغ البال للتأنق في الخبز والانتظار على العجين حتى يخمر . وإن كان فطير الفصح قد أصبح في المجتمعات اليهودية أكثر أناقة بكثير من الخبز العادي . ويضيف بعض شراح الدين اليهودي مع ذلك أن خبز الفطير هذا فيه تذكير اليهود بمعيشة البداوة، وبالبؤس وشظف العيش.

٣ ـ موسم الحرية ، بسبب الخلاص من نير الفراعنة ، ويلفظ بالعبرية « زَمن جِيرُوتِينُو » أو زمن حريتنا .

٤ ـ عيد الربيع ، وبالعبرية « حج هاآبيب » وأبيب هنا ليس هو الشهر المعروف في التقويم المصري القديم ، ولكنها كما قلنا كلمة عبرية معناها الربيع ، ولذلك وقع هذا العيد عندهم في شهر نيسان اليهودي (مارس ـ إبريل) .

ومدة هذا العيد ثمانية أيام ، إلا أن فقهاء اليهود جعلوها تنقص يوماً لمن يحتفلون به في فلسطين ، ويقولون إن السبب في هذا هو أن التقويم اليهودي لم يتم تحديده إلا في زمن متأخر جداً بالنسبة لموسى ، وخشي المشرعون اليهود من وقوع غلط أو اختلاف عند بعد مكان إقامة اليهود بالنسبة لفلسطين ، فكانوا يزيدون في الأعياد الكبيرة يوماً من باب الاحتياط ، ولكي يتسنى للحجاج المسافرين أن يصلوا إلى الأراضي المقدسة في الموعد المحدد ، وكذلك لعدم التمكن من إبلاغ ظهور الهلال ـ لأن الشهور اليهودية شهور قمرية كما سبق .

وتبدأ طقوس هذا العيد منذ الرابع عشر من نيسان وهو الذي يسمونه ليلة التفتيش عن الخميرة ، ويجب فيه على اليهودي أن يتأكد من أن أية خميرة تصلح للخبز قد أبعدت عن البيت تماماً . أما أهم أيام هذا العيد فهي أول يومين وآخر يومين فيه ، بينما الأيام الأربعة الوسطى تعتبر بين بين ، إذ يلتزم فيها أكل الخبز الفطير ، ولكن لا تقترن بطقوس احتفالية كبيرة . ومن الجائز قطع العطلة في هذه الأيام الأربعة عند الضرورة . ولذلك جرى العرف

عند اليهود على تسمية هذه الأيام الأربعة الوسطى « حُولْ هَمّوعِد » ومعناها تحليل العيد ، أو فك الإحرام عنه ، أو وصفه بأنه « عيد صغير » ، بينما اليومان الأولان واليومان الأخيران تؤلف « العيد الكبير » .

وفي مساء كل يوم من اليومين الأوليـن تكون طقوس الاحتفال قائمة بصورة أساسية حول أمرين : (أ) مائدة الفصح (ب) حكاية الفصح .

أما مائدة الفصح فإنها تحتاج إلى منضدة ، يوضع أمامها مقعد مستطيل مثل « الدكة » أو « الكنبة » يسمح بالاضطجاع ، وهذا المكان مخصص لرئيس العائلة يضطجع عليه معتمداً على ذراعه الأيسر الذي يستند إلى بعض الوسائد . وتوضع أمامه ثلاثة أرغفة من خبز الفطير على طبق ، وبجانبها قطعة من العظم الذي يحيط به بعض اللحم مأخوذة من الغنم ومشوية ، وحزمة من بعض النباتات المرة كالخس أو الشيكوريا أو الكبَر أو الكَرَفْس ، وبجانب ذلك شيء من الفاكهة المهروسة أو المدقوقة في الهاون والمنقوعة في النبيذ . وتوضع في نفس الطبق بيضة ، وشيء من الخضر كالفجل أو الجزر ، وكأس من الماء المالح أو المخلوط بالخل . ويفسر علماؤهم كل هذا بأنه من أنواع المأكولات الكريهة على النفس التي كان أسلافهم يأكلونها أثناء فرارهم في الصحراء . وتقتضي الطقوس أن يبدأ رئيس العائلة بتذوق طرف من كل صنف ثم يشترك معه بقية أفراد العائلة في ذلك . ويجب مع تلك الوجبة شرب أربعة أقداح من النبيذ ، ووضع قدح خامسٍ فيه نصيب من النبيذ ، معدّ لأجل النبي إيليا عندما ينزل من السماء ، معلناً اقتراب مجيء المسيح المخلص .

وعلى هذه المائدة يبدأ رئيس العائلة فيقص حكاية الفصح، وهي أسطورة تحكي ما حدث لبني إسرائيل مع موسى إبان خروجهم من مصر وهروبهم من عسف فرعون . وتقضي التقاليـد بأن يعـرّفها رب الأسـرة للجميع ، ولذلك فلها ثلاث صيغ ، صيغة للكبار العقلاء المدركين ، وهي طويلة مستفيضة . وصيغة للصغار الذين تبدو عليهم سمات حب الاطلاع وهي أقصر من سابقتها . والصيغة الأخيرة صيغة مسلية جداً ، وقصيرة جداً

أيضاً ، تقال للأطفال وللأولاد الذين لا صبر لهم على الاستماع إلى حكاية طويلة . كذلك تكثر في هذا العيد القصص حول النبي إيليا والمسيح المنتظر كما تشيع الأغاني والأناشيد الجدية والهزلية ، ومن أشهر هذه الأخيرة قطعة مكتوبة باللغة الآرامية عنوانها وأول مقطع فيها هو « حد جديا ، حد جديا » أي جدي واحد ، جدي واحد .

وقد جرى اليهود على اتخاذ هذا العيد ذريعة لنشر المطامع الصهيونية في مجتمعاتهم ، فتبادل التهنئة بهذا العيد بين اليهود يكون بقولهم « السنة القادمة في أورشليم » . ومهما يكن من أمر هذه المعايدة فإنها بدون شك لم تكن تنطوي في الأصل إلا على معنى ديني بحت، نظراً لأن عيد الفصح هو الوقت المختار للقيام بالحج إلى مدينة القدس عند اليهود ، فقولهم قديماً « السنة القادمة في أورشليم » لم يكن يعني أكثر من قول المسلمين في عيد الأضحى « السنة القادمة على عرفات » ، ولكن الصهيونية الحديثة استغلت ذلك كعادتها لتركز الأطماع على مدينة القدس الشريف ، وأن تحول المعنى الروحي والديني إلى هدف سياسي وعسكري ، وهو أمر من السهل على دعاة الحرب في كل زمان ومكان أن يتذرعوا به ، كما حدث بالنسبة لتلك المدينة من جانب الصليبيين في العصور الوسطى ، على الرغم من أن السيد المسيح عليه السلام كان من أعظم دعاة السلام ، وكان أشد الداعين إلى الله كراهية للحرب وسفك الدماء .

وعيد الفصح اليهودي هو عندهم عيد الضحية ، كما أنه عيد خبز الفطير وموسم الحج . ويضحي فيه بحمل أو شاة أو جدي من الماعز أو نحوها .

وهناك ظروف معينة تبيح تأجيل شعائر الفصح شهراً كاملاً لبعض الأفراد لا لمجموع الملة اليهودية كلها ، بحيث تمكن الضحية وعجينة الفطير ورحلة الحج في الرابع عشر من أيار من السنة اليهودية ، ويسمونه في عرفهم « الفصح الثاني » .

ولا يستطيع باحث في الفكر الإسرائيلي أن يذكر عجينة الفطير

المفروضة في عيد الفصح دون أن يقف عند تهمة توجه إلى اليهود من كثير من أعدائهم في هذا العيد بالذات ، هي التي اشتهرت في العالم باسم تهمة الدم . وخلاصتها أن خبز الفطير المفروض على اليهود في فصحهم قد جرت العادة أن يدخلوا في عجينته دماً بشرياً يأخذونه من ضحية يقتلونها من أمة أخرى غير اليهود ، ويستحسن أن تكون الضحية من المسيحيين أو المسلمين . والظاهر أن هذه التهمة التي يوصم بها اليهود بدأت من عهد مبكر في التاريخ ، ويبدو أنها جلبت على أماكن التجمع اليهودي في الشرق والغرب مشاكل كثيرة ، فقد كان الحي الذي يسكنون فيه يهاجم ، وينتشر فيه القتل والتنكيل بمجرد اختفاء طفل أو شخص من مجتمع غير يهودي مجاور في فترة عيد الفصح . ونحس بذلك في المرسوم البابوي الذي أصدره من الفاتيكان في الخامس والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٥٣ البابا انوسنت الرابع ، ويقول فيه : « إننا نحرم أيضاً اتهام اليهود باستعمال الدم البشري في طقوسهم ، لأنهم مأمورون في العهد القديم بألا ينجسوا أنفسهم بأي دم على وجه العموم ، فضلاً عن الدم البشري»[(١)].

ومع ذلك فإن هذه التهمة بقيت تلاحق اليهود في كل زمان ومكان . فمن ذلك ما يقال من اختفاء طفلة عمرها سنتان يوم ٢٦ مارس سنة ١٩٤٧ وذلك في فالرياس في منطقة « فوكلوز » بجنوب فرنسا ، واسمها « ميّا » . وقد عثر عليها في اليوم التالي قتيلة، ومسحوباً دمها من جروح عملت في الجبهة واليدين والرجلين .

ومن ذلك ما يروى من قتل اليهود للطفل المسيحي «هيوج» من مدينة لنكولن بإنجلترا في موسم الفصح سنة ١٢٥٥ .

وسجل هذه التهم يطول تتبعه ، كالذي قيل إنه حدث في لندن سنة ١٢٥٧ وفي « بفورتسهايم » بألمانيا سنة ١٢٦١ ، وفي فورثامبتون سنة ١٢٧٩ ، وفي ميونخ بألمانيا سنة ١٢٨٥ ، وأوبرنيتسل سنة ١٢٨٧ ، وفي

---

(١) Albert Monnio; Le Crime Rituel chez les Juifs; Pierre Téqui, Libraire-Editeur; Paris-1914; p.7.

برن بسويسرا سنة ١٢٨٧ ، وفي كولمار سنة ١٢٩٢ ، وفي كريمس سنة ١٢٩٣ . . . إلخ[1] .

ويتساءل الإنسان إزاء سيل من مثل هذه التهم يغطي كل العصور الوسطى والجزء الأكبر من العصر الحديث ، أهذه كلها إشاعات ؟ وهل من الممكن أن تنشأ إشاعة وتهمة ووصمة عار لها كل هذه الضخامة ، فتغطي رقعة العالم كله ، على مدى عشرات من الأجيال ، دون أن يكون لها أدنى نصيب من الواقع ؟

أما ما أشار إليه البابا إنوسنت الرابع من تحريم الدم عموماً ـ فضلاً عن الدم البشري ـ على اليهود فهو حق من وجهة النظر الشرعية البحتة . لكن يحدث كثيراً بسبب الجهل ، وبسبب الحقد ، وبسبب الرغبة العارمة في الإسراف في الثأر والانتقام ، أن يخرق أي إنسان حدود القانون والشرع يهودياً كان أم غير يهودي . كم من مرة إلى هذا العصر الحديث دخلت قوات عسكرية أرضاً مغلوبة على أمرها فراح جنود هذه القوة يقتلون السكان العزّل الضعفاء الخائفين، ويسلبون ما يقع تحت أيديهم، وينتهكون الأعراض، مع أن التوراة تقول في الوصايا العشر : لا تقتل ، لا تسرق ، لا تزن . والمسيحيون والمسلمون يؤمنون بمثل هذا تماماً في شرائعهم . لكن جوهر الشريعة شيء ، واحترام أهلها لها شيء آخر . ومن المحتمل جداً أن يكون جهلة اليهود في « الجتو » في جهات متفرقة من العالم ، بتأثير قرون طويلة من الاضطهاد ، والاحتقار ، والفقر ، والجهل ، والمرض ، والخوف ، وبتوجيه خاطىء من بعض القادة الروحيين ، الذين برعوا في التأويلات والاستنباطات الغريبة ، من التوراة والتلمود والقبالة وغيرها من الكتابات الصوفية الباطنية ـ من المحتمل جداً أن يكون هؤلاء الجهلة من اليهود قد استحدثوا هذه البدعة الوحشية ، إشباعاً لما في نفوسهم من حقد على أبناء الملل الأخرى ، والمسيحيين بوجه خاص .

ولعل أعمق تهم الدم المنسوبة إلى اليهود أثراً في مجرى التاريخ هي

(١) نفس المرجع ، ص ١٣٧ إلى ٣٢٤ ، حيث ترد أهم الحوادث التي من هذا النوع وتواريخها .

حادثة دمشق سنة ١٨٤٠ . يقول المحضر الذي حرر رسمياً بهذه الحادثة[1] . « إنه في يوم الجمعة ٤ من ذي الحجة سنة ١٢٥٥ هـ (فبراير ١٨٤٠) حضر المسيو بودان ، مترجم وسكرتير قنصلية فرنسا بدمشق ، إلى ديوان الحاكم العام ، وأبلغ أنه في يوم الأربعاء الثاني من نفس هذا الشهر من سنة ١٢٥٥ ، خرج الراهب الأب توما حسب عادته بعد العصر ، واتجه نحو حي اليهود، ليضع على باب المعبد اليهودي إعلاناً عن مزاد علني في منزل المرحوم « تيرانوفا ». وعند المغرب لاحظ خادم الأب المذكور أنه تأخر في العودة إلى الدير ، فذهب للبحث عنه في الحي اليهودي ولم يعد هو أيضاً .

وقد تم استجواب الحلاق اليهودي سليمان ، الذي عثر في حانوته على صورة من إعلان المزاد المشار إليه ، ولكنه أنكر ، حتى صدر الأمر بجلده بالسياط فاعترف بأن الحاخام بوخور يهودا ، والحاخام أبو العافية ، وداود هراري وأخويه إسحٰق وهارون ، وكذلك يوسف هراري ويوسف لنيادو ، دخلوا معاً شارع الثلاج بين الظهر والعصر (ولم يحدد المتهم بدقة) يوم الأربعاء ، وهو يوم اختفاء الأب توما ، وكان الأب في صحبتهم » .

من هنا بدأ التحقيق في الحادثة بأمر من شريف باشا والي سوريا وبلاد الشام من قبل محمد باشا حاكم مصر . وفي هذا الوقت كان المحامي اليهودي الفرنسي أدولف كريميه يقود حملة سياسية عدائية ضد العرب والمسلمين ، بسبب حوادث دمشق في كل أنحاء أوروبا . واشترك معه مروجو الإشاعات . فبالغوا في وصف الفظائع التي حلت باليهود في منطقة الشرق الأوسط ، وفي دمشق على الخصوص ، فقالوا إن شريف باشا أمر بالجلد بالكرباج لسبعة من الحاخامين ووجهاء الطائفة ، مات أحدهم من العذاب ، وأسلم آخر، وإنه بالغ في اضطهاد اليهود حتى قبض على ستين من أطفالهم تتراوح سنهم بين الثالثة والعاشرة ووضعهم في السجن ، بل

---

(١) المصدر السابق ، وانظر أيضاً:
Graetz; Histoire des Juifs; Tome 5, Chapitre 17 — pp.361 — 389 .

ادعى اليهود في أوروبا ومن يصدقهم من غير اليهود الحاقدين على الشرق، أن حملات شعبية انطلقت في دمشق وغيرها من بلاد الشرق الأوسط لإبادة اليهود والتنكيل بهم . ويقول الكاتب الصهيوني ميخائيل آساف في الحديث عن استغلال اليهود لهذا الظرف : فنشأ عن تلك الحادثة المؤلمة في دمشق تجديد التضامن بين يهود فرنسا وإنجلترا والنمسا ومصر وسوريا أي أن تلك الحادثة عادت باليهود المندمجين الذين ابتعدوا عن حظيرة أمتهم شوطاً بعيداً ـ قد عادت بهم إلى أحضان أمتهم ، فنشأ تضامن لم يكن يعرفه اليهود منذ أجيال . أما ذلك التضامن فقد ارتكز على شعور جديد عند اليهود في مهاجرهم . حتى أن الطائفة اليهودية في الاسكندرية لما توجهت إلى محمد علي باشا بالشفاعة لضحايا دمشق ، قالت له : اننا لا نطلب الرحمة لأبناء طائفتنا في الشام، بل نطلب العدل.

« ولما وصل إلى مصر وفد من يهود أوروبا برئاسة المثري الإنجليزي الطيب الذكر ، موشي مونتيفيوري ، والمحامي الفرنسي المشهور ، كريمييه لم يستطع محمد علي باشا معارضة رغبة ذلك الوفد ، نظراً لما كان للوفد لدى قناصل دول أوروبا في مصر من النفوذ العظيم . فعرض الباشا منح معتقلي دمشق العفو ، ولكن كريمييه رفض قبول العفو عنهم ، وطلب إعلان براءتهم وإطلاق سراحهم بلا قيد ولا شرط، وهكذا كان».

« وإننا نكرر القول بأنه كان لهذه الحادثة تأثير عظيم في تكوين تاريخ اليهود فيما بعد »[1] .

من هذه الحادثة فعلاً كان منطلق الصهيونية التي ظلت تعمل دائبة في فلسطين والشرق الأوسط ، وفي أوروبا وأمريكا ، حتى إذا نضجت مخططاتها الجهنمية على مدى نصف قرن من الزمان ، اتخذت لنفسها صورة التنظيم السياسي العلني في المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد في بال سنة ١٨٩٧ .

وعيد الفصح اليهودي يحدد بداية فترة خاصة عند اليهود مدتها خمسون

(١) ميخائيل أساف ، مائة سنة من تاريخ اليهود (١٨٤٠ ـ ١٩٣٩) ـ مطبعة سيناي ـ القدس ؛ ص : ١٢ - ١٣ .

يوماً يسمونها « عُومِرْ » تبدأ بعيد الفصح ، وتنتهي بعيد الحصاد أو ما يسمونه عيد الأسابيع . وهذه الفترة من المواسم الزراعية القديمة ، وهي الأيام التي تبدأ فيها سنابل القمح بالامتلاء بالحب إلى أن تنتهي بالحصاد . وكانت العادة الشعبية في هذه الفترة أن يخرج المعلمون بتلاميذهم إلى الحقول ، حيث تلقى الدروس في الهواء الطلق . ولعل سبب ذلك هو رغبتهم في حراسةمحصول القمح ضد الجراد والعصافير ، والدفاع عنه إذا حدث هجوم من الأعداء بقصد تدمير المحصول أو إحراقه . واستمرت هذه العادة متبعة على عهد المسيح نفسه .

٩ ـ الثالث والثلاثون في العُومِرْ . وهو أهم أعياد فترة العومر هذه ، ويسميه اليهود « لَجْ بعومر » لأن اللام في حساب الحروف عندهم بثلاثين والجيم بثلاثة . وهذا العيد يقع في الثامن عشر من أيار.

١٠ ـ عيد الحصاد أو عيد الأسابيع ، وبالعبرية « شبوعُوت » ويبدأ في اليوم الخمسين من العومر ، الموافق السادس من شهر سيوان (آخر مايو ـ أول يونيه) ومدة هذا العيد يومان أي السادس والسابع من شهر سيوان ، ويقابله في الأعياد المسيحية «عيد العنصرة».

وأهم ما يتميز به عند اليهود أنهم يجعلون نزول الوصايا العشر على موسى في هذا التاريخ، ومن ثم يقومون بحفلة زفاف للتوراة في داخل المعبد ، كأنها ، عروس ، ويبالغ بعضهم فيتمون قراءتها في يومي هذا العيد . وله في التراث الشعبي اليهودي خمسةأسماء هي :

أ) شبوعوت ، أي الأسابيع ، ومفهوم ذلك عندهم : « أسبوع الأسابيع » ، أو الأسبوع الفضيل الممتاز على كل أسابيع السنة .

ب) حج هقاصير ، أي عيد الحصاد .

جـ) حج هبكوريم ، أي عيد البواكير أو أوائل الثمار .

د) حج هتوراه ، أي عيد التوراة ، ويسميه بعضهم « زمن متن توراتينو » أي زمن منح شريعتنا .

هـ) عصيرت ، وهي كلمة عبرية معناها الإغلاق ، لأنه كما قلنا العيد الذي يغلق الفترة المسماة بالعومر والواقعة بعد الفصح ، وزعم بعضهم أن الإغلاق هنا مقصود به إقفال المخازن على محصول القمح أو الشعير .

١١ - صوم تموز ، وهو يوم واحد يصومه اليهود في الثامن عشر من شهر تموز اليهودي (يوليه) ، ويجعلون هذا الصيام حداداً من أجل حوادث مختلفة أهمها : تحطيم ألواح التوراة ، إبطال القربان اليومي صباحاً ومساءً ، إحراق التوراة في أورشليم على يد القائد الروماني المدعوّ بوستهوموس، كما ورد ذلك في التلمود ـ كتاب الصيام « تعانيت » ٦/٨٤ ، وينسب إلى هذا الروماني أيضاً إقامة تمثال في هيكل اليهود مع علمه بأن ذلك محرم عندهم . كذلك يجعلون هذا الصوم ذكرى بداية مهاجمة « تيتوس » الروماني لأورشليم بقصد إبادة اليهود من فلسطين سنة ٧٠ ميلادية .

١٢ - صيام التاسع من آب ، وهو ذكرى سقوط أورشليم في يد تيتوس ، وتخريب الهيكل الثاني الذي كان قد أقيم بعد العودة من السبي البابلي في القرن الخامس قبل الميلاد ، على يد نحميا وعزرا وزروبابل .

وكان هناك عيد في الخامس عشر من آب أيضاً ، يحدد اقتراب الخريف ، وتقدم فيه قرابين من الحطب إلى كهنة الهيكل ، ولكنه تضاءل الاحتفال به بعد تخريب تيتوس للهيكل، وإن كانت بعض طوائف اليهود تحتفل به إلى الآن ، فهو مثلاً ما يزال مثبتاً في التقويم اليهودي لحاخامية اليهود المصريين .

ومما سبق يتبين أن أعياد اليهود معظمها لا يرجع إلى عهد موسى ، بل هو أحدث من ذلك بكثير . وربما كانت أعياد الحج ترجع إلى أشياء تماثلها في الشريعة الموسوية القديمة .

وأعياد الحج عندهم هي الفصح والحصاد والظلل .

الفصل الخامس

بعض الأحكام التي تميز شريعة اليهود

بعد هذه الجولة في أهم أركان العقائد الدينية والطقوس التعبدية عند اليهود، لا بأس بأن يقف القارىء العربي على طرف من أحكام الفقه المطبقة في المجتمع اليهودي، والتي تميز شريعتهم بوضوح عن غيرها من الشرائع.

الزواج :

ففي الزواج مثلاً يعتبر بقاء اليهودي أو اليهودية في العزوبة أمراً منافياً للدين . ذكر « جان دي بولي » في ترجمته لمواد التشريع المدني والجنائي في الفقه اليهودي[1] ، في المادة ٣٩٣ ، أن كل يهودي يجب عليه أن يتزوج . وأن الذين يبقون عزاباً يتسببون في أن يتخلى الله عن شعبه إسرائيل . وجاء في « كتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين » ، تأليف ، « م. حاي بن شمعون »[2] ، المادة ١٦ : الزواج فرض على كل إسرائيل » .

(١) Jean de Pauly; Code Civil et Pénal du Judaïsme; Paris, 1896.

(٢) كتاب الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين . تأليف : م. حاي بن شمعون ، مطبعة كوهين وروزنتال بمصر ـ سنة ١٩١٢ ، ص : ٧ .

يحرم الزواج بين اليهود وغيرهم . ويسمى غير اليهود في كتب الشريعة الإسرائيلية « كُفّاراً » يستوي في ذلك المسلمون والمسيحيـون والوثنيـون والزنادقة[1] . ويقول دي بولي في المادة ٣٩٦ إن الزواج المعقود بين يهودي وكافرة أو العكس باطل ، والحياة الزوجية القائمة بينهما تعتبر فجوراً وزناً مستمرين ، والأولاد الذين يولدون من هذه المعاشرة المرذولة يعتبرون أبناء زنا . ونجد بن شمعون لا يكتفي بوحدة الدين بين الزوجين بل ينص أيضاً على وحدةالمذهب فيقول في المادة ١٧ : « الدين والمذهب شرط لصحة العقد ، فإذا كان أحد الاثنين من غير الدين أو من مذهب آخر فلا يجوز العقد بينهما وإلا كان باطلاً » . ويضيف في المادة ١٨ أنه « يصح أن يعقد بين اثنين كان أحدهما أجنبياً ثم اعتنق الدين أو المذهب اعتناقاً شرعياً » . ويزيد معظم الشراح على ذلك أن الأولاد الذين يولدون من زواج اثنين أحدهما يهودي والثاني أجنبي لصيق باليهود عن طريق اعتناق دينهم ، لا يصح أن يكون منهم كهنة في إسرائيل ، تأكيداً للنزعة العنصرية التي تصبغ أكثر الشرائع الفقهية عند اليهود ، ولا سيما مااتصل منها بالأحوال الشخصية . ومن أوضح الأدلة على ذلك ما جاء في المادة ١٩ من كتاب بن شمعون في الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين، حيث يقول : « إذا ارتد الإسرائيلي ثم تزوج شرعاً بإسرائيليـة صح العقـد ، كذلـك إذا ارتدت الإسرائيلية ثم تزوجت بإسرائيلي » . ومعنى ذلك أن الزواج عندهم ليس فرعاً من الإيمان كما هو عند المسلمين أو المسيحيين ، بل هو فرع من العصبية العنصرية ، فالإسرائيلي يبقى كذلك حتى ولو كفر ، وكذلك الإسرائيلية .

يجوز للإسرائيلي الزواج ببنت أخيه أو بنت أخته، ولكن العكس محرم فلا تتزوج المرأة بابن أخيها أو ابن أختها. وحرّم كثير من فقهائهم زواج بنت الأخ.

تعدد الزوجات جائز شرعاً عند اليهود ، ولم يرد بتحريمه نص واحد ، لا في الكتاب المقدس ولا في التلمود ، وكانت العادة جارية بين اليهود ، على اتخاذ أكثر من زوجـة . وليس في الدين أيضـاً حد أقصى لتعـدد

(١) كلهم يسمون «جوييم» وهم الأمم الأخرى غير بني إسرائيل.

الزوجات ، فقد كان مباحاً لليهودي أن يتخذ من النساء ما طاب له بلا قيد أو شرط . ولكن ظهر في العصور الوسطى الحاخام الفقيه المفسر ، « جرشوم بن يهودا » المولود في مدينة « متس » بإقليم اللورين بشمال شرق فرنسا سنة ٩٦٠ ميلادية والمتوفي في مدينة « ماينس » بألمانيا سنة ١٠٤٠ ميلادية ، فأفتى بوجوب تحريم تعدد الزوجات بين اليهود .

وكانت هذه الفتوى مبنية في الأساس على ما كانت تلاقيه الجاليات اليهودية في أوروبا في العصور الوسطى من احتقار واضطهاد بسبب تعدد الزوجات فيها ، وهو أمر حرمته الديانة المسيحية تحريماً قاطعاً ، وجعلت تعدد الزوجات جريمة تجمع بين الكفر والزنا . فأراد الحاخام جرشوم أن يضع حداً لهذا المظهر المثير من مظاهر تكوين المجتمع اليهودي . ولكن اجتهاده لم يحظ بالتطبيق القانوني المتفق عليه في المجالس المليّة ومحاكم الأحوال الشخصية لليهود في أوروبا إلا حوالي سنة ١٢٤٠ ميلادية، إذ اتفقت كلمة كهنة اليهود وقضاتهم على هذا التحريم ، وإن كان تعدد الزوجات بين اليهود قد ظل منتشراً ؛ سراً أو علناً ، قروناً طويلة بعد هذا التاريخ ، وبخاصة في بلدان إفريقية وآسيا . وهكذا نجد دي بولي يذكر في المادة ٣٩٥ أنه « بالرغم من كون تعدد الزوجات حلالاً في الدين ، فإنه قد صدرت الفتوى بتحريمه من الحاخام جرشوم بسبب المطالب الباهظة للحياة الحاضرة التي تجعل القيام بأمر زوجة واحدة ، فضلاً عن زوجات عدة ، أمراً صعباً . وكل يهودي يخالف فتوى الحاخام جرشوم فإنه يقع تحت عقوبة التكفير والخلع والطرد من المجتمع الإسرائيلي » . وفي ذلك تقول المادة ٥٤ من كتاب بن شمعون : « لا ينبغي للرجل أن يكون له أكثر من زوجة ، وعليه أن يحلف يميناً على هذا حين العقد ، وإن كان لا حَجْر ولا حصر في متن التوراة . » ونلاحظ أن هذا الأخير أقل تشدداً في هذا الباب ، فهو مثلاً يغفل عقوبة التكفير والطرد ، بل إنه يضيف في المادة ٥٥ أنه « إذا كان الرجل في سعة من العيش ، ويقدر أن يعدل ، أو كان له مسوغ شرعي ، جاز له أن يتزوج بأخرى». وواضح أن الشريعة اليهودية هنا تتلوّن بالشرائع التي تجاورها، فالحاخام جرشوم يبدو مسيحياً في اتجاهه نحو التحريم البات للتعدد ، بحكم

معيشته في أوروبا الكاثوليكية، بينما بن شمعون يتأثر بالشريعة الإسلامية، بحكم معيشته في القاهرة ، فلا يتشدد في المسألة بنفس الطريقة ، حتى بعد تسعة قرون من فتوى الحاخام جرشوم .

الطلاق :

ويؤكد تأثر هذا الحاخام الأوروبي بالمسيحية ما وضعه من قيود على الطلاق أيضاً . فالطلاق في التوراة كان حقاً موضوعاً بيد الرجل وحده ، يستعمله بلا قيد أو شرط . وكان الاستعمال اللغوي نفسه لا يعرف كلمة الطلاق ، وإنما يستعمل عادة كلمة « طرد الزوجة من البيت » . فأفتى الحاخام جرشوم بتحريم طرد المرأة من بيت الزوجية إلا إذا أفتى القاضي بطلاقها ، أو اتفقت مع زوجها بالتراضي على الطلاق .

والمرأة التي ثبتت عليها تهمة الزنا يحرم عليها الزواج بالرجل الذي اتصل بها . ولو حدث زواج بينهما ، مع جهل موثق العقود بذلك ، يعتبر هذا الزواج لاغياً ، وينفذ الطلاق بينهما بالقوة . يقول بن شمعون في المادة ١٩٠ : « تحرم المختلية على من اختلت به ، وإذا عقد عليها كلف شرعاً بطلاقها » .

اليبُوم:

ومن طرائف الشريعة الخاصة بالأحوال الشخصية ، أن أرملة اليهودي الذي مات ولم ينجب منها ، يجب تزويجها لأخيه الأعزب على وجه الإجبار فإذا أنجب منها فإن المولود لا يحمل اسمه وإنما يحمل اسم أخيه الميت وينسب إليه . وإذا امتنع أخو المتوفى عن هذا الزواج فإنه يشهر به ويخلع من المجتمع الإسرائيلي . وتسمى الشريعة الإسرائيلية المرأة التي تؤول إلى أخي زوجها الميت «يَبَامَهْ». جاء في التوراة:

« إذا أقام أخوان معاً ، ثم مات أحدهما وليس له عقب ، فإن زوجة الميت لا تصير إلى الخارج لرجل أجنبي ، بل أخوه يدخل عليها ، ويتخذها زوجة له ، ويقيم عقباً لأخيه . ويكون البكر الذي تلده منه هو الذي يخلف اسم أخيه الميت فلا يندرس اسمه من إسرائيل . فإن لم يرض الرجل أن

يتزوج امرأة أخيه ، تصعد امرأة أخيه إلى الباب ، إلى الشيوخ[1] ، وتقول قد أبى أخو زوجي أن يقيم لأخيه اسماً في إسرائيل ، ولم يرضني زوجة. فيستدعيه شيوخ مدينته ويكلمونه في ذلك ، فيقف ويقول إني لا أرضى أن أتخذها . فتتقدم إليه امرأة أخيه ، بحضرة الشيوخ ، وتخلع نعله من رجله وتبصق في وجهه ، وتجيب قائلة هكذا يصنع بالرجل الذي لا يبني بيت أخيه . فيدعى في آل إسرائيل بيت المخلوع النعل » . (سفر التثنية ٢٥/٥ ـ ١٠) . والمعمول به الآن هو ما ورد في المادة ٣٦ عند بن شمعون في قوله : « المتوفى زوجها إذا لم يترك أولاداً ، وكان له شقيق أو أخ لأبيه ، عدّت له زوجة شرعاً ، ولا تحل لغيره ما دام حياً ، إلا إذا تبرأ منها كنص المادة ٤٣ » . وهذه المادةالمشار إليها أخيراً تقول « تبرّؤ سِلف الزوجة المتوفي زوجها عن غير عقب من التزوج بها، منصوص على طريقته في سفر التثنية، بالإصحاح ٢٥».

الابن البكر :

كذلك تهتم الشريعة اليهودية بالابن البكر . وكانت في بداوة العبريين القديمة تجعله خليفة لأبيه في كل شيء . يستولي على السلطة من بعده ، ويكون هو المتصرف في كل ثروته ، وكثيراً ما كانت المنافسات تشتعل بين الإخوة الصغار وأخيهم الأكبر البكر بسبب هذا . كذلك كانت تحدث مؤامرات ، ومغالطات حول انتزاع هذا الحق والاستيلاء عليه . وقصة يعقوب وتآمره مع أمه رِفْقَة على انتزاع هذا الحق الذي كان لأخيه عيسو من أبيهما إسحٰق عندما شاخ وفقد بصره مشهورة ، مذكورة بتفاصيلها في الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين في التوراة . وفي الفقه اليهودي المعمول به الآن يكون « للولد البكر من الأب مثل حظ الولدين ، فهو مميز بسهم بعلة البكورة . » ـ (بن شمعون ، مادة ٤٩١) .

وتتجلى العصبية العنصرية من جديد في التشريعات الخاصة بالابن

---

(١) كانت إجراءات التقاضي تتم قديماً عند بوابات المدينة ، وهناك كان القضاة يجلسون للنظر في الخصومات .

البكر ، فإن « البكر المولود وأبوه أجنبي عن الملة لا يعد بكراً ، وإذا عاد إلى الملة وَوَلَدَ فلا بكورة أيضاً . » - (بن شمعون ، مادة ٥٠١) . وتتأكد هذه العصبية العنصرية أكثر وأكثر في المادة التالية (٥٠٢) عندما ينص على أن « البكر من الجارية أو الأجنبية لا يمنع البكورة من الإسرائيلية بعدها » . وهذا الاجتهاد من فقهاء التلمود مقصود به تزييف حق العرب وجدِّهم سيدنا إسماعيل في النسبة والميراث والبكورة من سيدنا إبراهيم . فإسماعيل ولد قبل أن يولد إسحٰق ، فهو ابن إبراهيم البكر ، ولكنه مولود من هاجر الجارية المصرية ، فأفتى التلموديون بثبوت البكورة للابن الأصغر ، إسحٰق ، لأنه وإن تأخر في الولادة ، سليل الزوجة التي توصف بأنها عبرية ، سارة . وكان لا بد من هذا الاجتهاد حتى تستقيم نظريتهم في شعب الله المختار .

الأموال والممتلكات :

ومما يستوقف الباحث في باب الأموال والممتلكات في الفقه اليهودي ، أن الربا محرم بين اليهود بعضهم وبعض فقط ، وعقوبة المخالف لذلك التكفير والخلع ، بينما يباح الربا إذا أقرض اليهودي لغير اليهودي مالاً . ولكن نظراً لما جبل عليه هؤلاء الناس من حب المال فإنهم تحايلوا ، حتى على تحريم الربا فيما بينهم ، فبعد أن جاء في المادة ٥٨٤ من المجموعة القانونية التي ترجمها دي بولي أنه « محرم على اليهودي أن يقرض اليهودي مالاً أو غيره من الأشياء التي يحتاج إليها كالقمح أو الدقيق مثلاً بالربا . وأن المقرض بالربا يتعرض تلقائياً للخلع والطرد » ، تعود المادة التالية ٥٨٥ فتقيد تحريم الربا بما يعطيه اليهودي من قرض لأخيه اليهودي ليواجه به ضرورات ملحة لا قبل له باحتمالها . « أما إذا اقترض اليهودي نقوداً من يهودي آخر ، بقصد الاستثمار ، أو التوسع في التجارة ، أو تنفيذ بعض المشروعات التي تدر ريعاً ، فإن الذي يقرضه المال يمكنه أن يفرض عليه نصيباً في الأرباح يتفق عليه » ، ويبدو من التطبيق العملي لهذه الفقرة أن المقصود هو هو الأرباح فقط دون الخسائر ، بحيث لو ضاع المال في هذه المشاريع كان على المقترض أن يؤدي دينه كما أخذه . فالتطبيق أشبه هنا في عالم الأوراق المالية بالسندات منه بالأسهم .

الطعام والشراب :

ونختم هذه المختارات الفقهية المميزة للشريعة اليهودية بالكلام عن تقاليدهم في الطعام والشراب ما يحل منه وما يحرم .

يحل من الحيوانات ذوات الأربع كل ما له ظلف مشقوق وليست له أنياب . ويأكل العشب ويجترّ . فالخيل والبغال والحمير تحرم لحومها لأنها ليست ذات أظلاف مشقوقة . وكذلك الجمل لأنه ذو خف لا ظلف . ويحرم الخنزير بالرغم من أظلافه المشقوقة لأنه ذو ناب . وتحرم السباع كلها لأنها ذات مخالب وأنياب . ولحم الأرانب وما يتصل بها من القوارض آكلة العشب حرام لأنها ذات أظافر لا أظلاف مشقوقة .

ويحرم من الطيور كل ما له منسر ، أي منقار معقوف ، أو مخلب أو كان من أوابد الطير التي تأكل الجيف والرمم . فيحرم أكل الصقر والنسر والبومة والحدأة والببغاء لكونها ذات منسر أو مخلب أو كليهما معاً . ويحرم أكل الغراب والهدهد ونحوها خوفاً من الخطر ، لأنها من أوابد الطير التي لا يُعْرَفُ ماذا تأكل . ويحل أكل الدجاج والأوز والبط ونحوها من الطيور الأليفة التي يمكن تربيتها في البيوت والحقول . كما تحل السماني والعصافير وبعض الطيور البرية آكلة العشب والحب .

ويشترط في الحيوانات والطيور الأليفة التي تذبح للأكل ، أن تكون سليمة من العطب ومن الجروح والكسور والأمراض ، وأن تذبح من منحرها بالطريقة الشرعية بعد تلاوة بركة تتضمن اسم الله ، بشكل يقارب القواعد الإسلامية .

أما الأحياء المائية فيحل منها السمك الذي له زعانف وعليه قشور ، وفيما عدا ذلك فكل صيد البحر حرام . فممنوع على اليهودي أكل الأسماك الملساء، وأنواع الأخطبوط والجمبري (القريدس) أو الربيان والسرطان (الكابوريا) والمحار.

والدم محرم على اليهود كتحريمه على المسلمين .

ولا يجوز لهم الجمع بين اللحم واللبن الحليب ، أو أي شيء يمت إليه بصلة في طعام واحد ، فحرام طبخ اللحوم في السمن أو الزبد ، بل يحب أن تطبخ في زيوت نباتية . وحرام أن يتناول اليهودي اللحم والجبن أو الزبد أو اللبن أو نحوها في وجبة واحدة . بل حرام أن يوضع اللحم في إناء كان قد وضع فيه لبن أو جبن من قبل ، أو أن تستعمل سكين واحدة في تقطيع اللحوم والجبن أو ما إليه . ولذلك يتعين على كل يهودي متمسك بشريعته ، وعلى كل مطعم يهودي يهتم بأن يكون ما يقدمه « كاشير » ، أي حلالاً ، أن يتوفر له مجموع من الآنية والصحون وأدوات المطبخ تخصص للحوم فقط ، وتوضع في مكان محدد ، ومجموع آخر يخصص للألبان ومستخرجاتها ، وله مكان منعزل أيضاً .

كذلك يحرم على اليهود خلط الأنبذة أو الخمور ، أو خلط الألبان .

علاقة ذلك باضطهاد اليهود :

كل هذه الأحكام الفقهية وكثير غيرها ، بخيرها وشرها ، كانت لغرابتها وطرافتها ، سبباً في اجتذاب الأنظار نحو هذه الملة التي لا تريد أن تعيش كما يعيش غيرها من عباد الله ، فجر عليها ذلك الاضطهاد والتعصب ، الذي كان يتبلور في نواحٍ كثيرة من العالم ، وفي أوروبا على وجه الخصوص ، في تنظيمات وفلسفات وعقائد تدور كلها حول « عداء السامية » أو « مناهضة اليهود » أو « اللاسامية » ، كما يتساهل بعض الباحثين فيسمونها بهذا الاسم الأخير .

وهذه اللاسامية كانت من أهم البواعث على قيام الصهيونيات المختلفة المتعاقبة عبر التاريخ . فنحن هنا نجد اليهود قد جعلوا الإنسانية تدور في حلقة مفرغة كلها خطأ في خطأ . هم يكرهون البشر ويحتقرونهم وينعزلون عنهم ويعتبرون أنفسهم الشعب الممتاز المختار بإرادة إلٰهية ، والبشر جميعاً ينكرون عليهم هذا ويصمونهم بالكفر والتدجيل والوحشية والنصب والاحتيال وانعدام الوطنية والخسة والجبن والقذارة ، وما لا يحصى من ذميم الصفات ، ومن هذا الصراع العقيم الخاطىء من الجانبين ، كان كثير من اليهود ينادون

بالوطن اليهودي الخاص الذي يستطيع فيه كل واحد من أبناء هذه الملة أن يمارس حريته الدينية دون أن يجر ذلك عليه المقت والبغض من غير اليهود .

كانت هذه الفكرة الأخيرة هي الشعار الذي رفعته الصهيونية لجذب الأنصار ، وهي المحتوى الذي ضمنه زعيم هذه الصهيونية « تيودور هرتسل » كتابه المشهور « دولة اليهود » . وكان على الوطن العربي أن يدفع ثمن هذه النزوة اليهودية من صميم أرضه وكيانه ومستقبله ، بالرغم من أن العرب لم يكونوا في يوم ما متهمين بمناهضة السامية أو اضطهاد اليهود ؛ إذ العرب أنفسهم ساميون ، والمسيحيون منهم لا ينسون أن سيدنا عيسى نفسه ينحدر من أصل يهودي ، والمسلمون لا ينسون أن اليهود أهل كتاب ، وأهل توحيد ، وأنهم ـ ولو نظرياً ـ ينحدرون من سيدنا إبراهيم أبي العرب كذلك .

وإذا كانت الشعارات الاستجدائية قد ارتفعت بذلك ، فإن النفاق اليهودي رفع شعارات أخرى لدى غير اليهود من الأمم التي خدعت في المشروع الصهيوني . فزعم قادة الصهيونية أن الدولة اليهودية التي يعملون على إقامتها في فلسطين ، ستكون الدولة العصرية في وسط المتخلفين ، والدولة الديمقراطية بين الإقطاعيين ، وكل هذا لم يكن إلا كلاماً معسولاً الغرض منه جمع أكبر ما يمكن من المال والأنصار .

ولكن اللعبة كانت خطيرة بالنسبة لليهود أنفسهم تكاد تنذر بشر مستطير . ذلك أن التجمعات الدينية اليهودية أحست بأن ملك الله على الأرض ، كما عرفوه في كتب الدين والتصوف ، لا يشبه في شيء هذا التنظيم السياسي والعسكري والاقتصادي الذي صممه « هرتسل » ونفذه من بعده « حاييم وايزمان » ، ومن هنا نشب هذا الصراع بين « دولة اليهود » ممثلة في الدينيين ، و « الدولة العصرية الديمقراطية » التي يقف من ورائها الاستعماريون ، والرأسماليون ، والاشتراكيون ، والإصلاحيون التطوريون الجدد من اليهود . ولا شك في أن هذا التمزق الذي سببته في البداية صور التناقض الرهيب بين الشعارات التي خصصتها الصهيونية لشعب الله المختار ، والشعارات الأخرى التي رفعتها أمام أعين « الجوييم » كانت من

أهم الأسباب في انبثاق يهودية روحية اندماجية غير صهيونية ، ينادي دعاتها بأن ممارسة شريعة من الشرائع لا تحتاج إلى امبراطورية حتى تتصل بالله . هذا بالطبع إلى جانب الوحشية الخسيسة الظالمة التي انتجتها العسكرية الصهيونية في فرض إرادتها في منطقة الشرق الأوسط .

وخلاصة القول إن الفكر الديني الإسرائيلي يرتطم الآن بصخرة هذه الصهيونية ، التي قد يتحطم عليها كما لم يتحطم من قبل ، لا على يد بختنصر ولا تيتوس ولا هتلر .

ولا نريد أن نضع نقطة النهاية في هذه الجولة حول الشريعة اليهودية دون أن نشير إلى أن الأحكام الفقهية التي يتدارسها المتدينون من اليهود تستقي من مدرستين ترجعان إلى القرن الأول الميلادي ، مدرسة هليل المشهورة بالتساهل والتسامح ، ومدرسة شماي المعروفة بالتزمت والتشدد والتدقيق ، والأولى أكثرهما رواجاً بالطبع .

الفصل السادس

المذاهب والفرق

تمهيد :

يعتبر ما ذكرناه حتى الآن هو خلاصة الفكر الديني عند السواد الأعظم من اليهود ، وهم اليهود الربيون أو الربانيون ، نسبة إلى « رب » التي تعني في اللغة العبرية « الكبير » أو «الرئيس». والمقصود بذلك أنهم اليهود الذين أبقوا باب المقدسات مفتوحاً على مصراعيه بعد وفاة موسى بل بعد السبي البابلي ؛ بحيث دخلت منه المرويات الشفوية ، والاجتهادات، والفتاوي ، وغيرها من النصوص الدينية المحتواة في المشنا والتلمود والمدراش ، والمروية عن هؤلاء « الكبار » أو « الرؤساء » أو « الأحبار » ، من طبقات « السوفريم » أي الكتبة و«التنّائيم» أي رواة المشنا ، و« الأمورائيم » أي أحبار التلمود و« الدرشانيم » أي المفسرين للكتاب المقدس، أصحاب المدراش الذي هو التفسير ،و «الجأونيم» أي الفقهاء العظام الذين ظهر الإسلام أثناء وجودهم ، و« الموسيفيم » أي أصحاب الحواشي والتعليقات والفتاوي ، الذين استمروا على طول العصور الوسطى حتى العصر الحديث .

وجمهور اليهود هذا ينقسم إلى طائفتين كبيرتين جداً :

(أ) الإشكناز :

وهم اليهود الذين استقروا في شمال أوروبا وشرقها . وكلمة إشكناز كانت تدل في الفكر اليهودي في العصور الوسطى على الأراضي الأوروبية التي يسكنها الجنس الجرماني ، ثم أصبحت تعني « ألمانيا » باختصار . ومع ذلك فإن جزءاً كبيراً من اليهود الإشكناز سكنوا ، لا في ألمانيا ، ولكن في شمال فرنسا وشرقها ، وفي ألمانيا بطبيعة الحال ، والنمسا وبولونيا وسائر دول أوروبا الشرقية ، وكذلك في الاتحاد السوفييتي . وكان هؤلاء اليهود الإشكناز قد فقدوا القدرة على استعمال اللغة العبرية نهائياً ، وحلت محلها في مجتمعاتهم رطانة خاصة بحارات اليهود فقط في تلك الأقاليم ، أساسها لهجة ألمانية قديمة محرفة مكسرة امتزجت بألفاظ وعبارات كثيرة من اللغات السلافية وببعض الكلمات العبرية الشديدة التحريف ، المستقاة من المصطلح الديني والأخلاقي والاجتماعي عند اليهود . فلما عاد هؤلاء الإشكناز إلى الاهتمام باللغة العبرية ، كانت لهم فيها لهجة خاصة محرفة أيضاً خارجة على القواعد التي أقرها القدامى من العلماء . وهم في صلواتهم ينطقون بالعبرية هذا النطق المميز لهم ، كما أنهم يختلفون اختلافاً طفيفاً عن غيرهم من حيث بعض النصوص التي توجد في كتاب صلواتهم ولا توجد عند الآخرين ، أو العكس . كما أنهم يختلفون أيضاً في بعض طقوس الأعياد وبعض التقاليد في المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، بفعل المناخ البارد الذي عاشوا فيه قروناً طويلة ، وبتأثير الأمم التي جاوروها أيضاً . ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن الإشكناز هم أقطاب الصهيونية الحديثة .

(ب) السفرد :

وهؤلاء هم اليهود الذين استقروا في حوض البحر الأبيض المتوسط. وكلمة « سفرد » كانت تدل في الفكر اليهودي في العصور الوسطى على شبه جزيرة إيبيريا ، التي تضم إسبانيا والبرتغال . ثم أصبحت تعني « إسبانيا » باختصار . وهؤلاء اليهود ، كانوا أيضاً قد فقدوا اللغة العبرية بعد

« الدياسبورا » ، أي التشتيت الذي أوقعه بهم الرومان على يد تيتوس سنة ٧٠ ميلادية ، وهدريان سنة ١٣٥ ميلادية ، وأصبحوا يتكلمون لهجة إسبانية قديمة ركيكة مكسرة محرفة ، كانت تسمى « لادينو » أي « لاتيني » ، لاعتمادها على أصول لاتينية إسبانية عامية ممزوجة ببعض المصطلحات الدينية العبرية . إلا أن هؤلاء السفرد كانوا من الناحية اللغوية أسعد حظاً من الإشكناز ، فعندما ظهر الإسلام ، ودخل العرب الأندلس بقيادة طارق بن زياد ، منح اليهود حرية دينية وثقافية واجتماعية لم يعرفوها في أي عهد من عهودهم ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن اليهودي البسيط لم يعرف هذا الأمن ولا هذه الكرامة حتى في فلسطين تحت حكم سيدنا سليمان ، إذ من الثابت تاريخياً أن رعية سليمان تمردت عليه أكثر من مرة بسبب ثقل الضرائب ونقص الحريات[1].

وفي إسبانيا الإسلامية ازدهرت اللغة العبرية مع ازدهار اللغة العربية ، وكثرت المدارس والجامعات والمعاهد والمعابد اليهودية في قرطبة وأليسنة (لوسينا) وطليطلة وأشبيلية وسرقسطة وتطيلة وبرشلونة وغيرها . وانبثقت حركة أدبية قوية باللغة العبرية اقترنت بعناية فائقة بضبط اللغة وتقييد ألفاظها وقواعدها ، بحيث أصبح استعمال السفرد لهذه اللغة هو أنقى وأفصح صورها المعروفة وقد ازدادت فصاحة بمجاورتها للغة العربية التي تعد أرقى لغات المجموعة السامية كلها . وتأثر اليهود السفرد في عباداتهم وتلاوتهم وترتيلهم وإنشادهم بالذوق العربي في الأذكار والأناشيد والموسيقى ، كما انفردوا بنصوص شعرية ونثرية في أدعيتهم وصلواتهم قريبة الشبه بما يماثلها عند المسلمين . وقد ترتب على ذلك أن دولة إسرائيل عندما قامت على أكتاف الإشكناز وجدت نفسها ، بالرغم من كل شيء ، مضطرة إلى اعتبار عبرية السفرد هي اللغة الرسمية للمسرح والإذاعة والتعليم في الجامعات والمدارس . بل إن المؤلفين في الأدب العبري الحديث ، أو في الدراسات

---

(١) ثبت هذا في توراة اليهود المحرَّفة، ونحن نجلُّ سليمان عليه السلام أن يظلم رعيته (الناشر).

اللغوية ، حتى ولو كانوا من الإشكناز ، قد اضطروا إلى الخضوع المطلق للسان السفرد .

وما دمنا بصدد الحديث عن الطائفية اللغوية بين اليهود الربانيين ، فإنه ينبغي أن نتنبه إلى أنه بعد خروج العرب من الأندلس ، وتضييق محاكم التفتيش الكاثوليكية بعد ذلك على بقايا المسلمين واليهود في إسبانيا ، هاجر عدد كبير من هؤلاء السفرد إلى فرنسا وإيطاليا واليونان وتركيا ، فضلاً عمن استقر منهم في العالم العربي ، كما ذهبت أعداد كبيرة منهم أيضاً إلى إنجلترا وأقام بعضهم كذلك في هولندا .

ويهود العالم العربي هم بطبيعة الحال من السفرد . إلا أن فروقاً محلية في النطق أصبحت تميز اليهودي العراقي من اليهودي اليمني أو المغربي أو المصري . ويهود إيران هم كذلك من السفرد ، منذ استقرار العرب واللغة العربية في تلك البلاد على عهد عمر بن الخطاب ، وإن كانت لهجتهم متأثرة أيضاً بنطق اللغة الفارسية .

فرق ومذاهب أخرى :

إلى جانب هذه اليهودية العامة التي تتبعها الكثرة الغالبة من أهل هذه الملة ، وجدت فرق ومذاهب أخرى كثيرة تنبثق من التطور المستمر في الفكر الديني الإسرائيلي ثم تعيش مدة تطول أو تقصر بحسب الأحوال والملابسات ، بحيث اندثر أكثرها وبقي بعضها قائماً حتى الآن . وأهم هذه الفرق وأشهرها هي التي سنتحدث عنها بإيجار الآن .

١ ـ السامريون

هذه الفرقة الصغيرة الفقيرة التي لا يزيد أبناؤها على وجه هذه الأرض عن بعض مئات من الأنفس، تعيش بجوار مدينة نابلس العربية بفلسطين وتثير خلافاً وجدلاً شديداً حول أصلها وتاريخها . والذي زاد من حدة هذا الجدل هو أن هؤلاء السامريين بحكم طبيعة دينهم ليسوا صهيونيين، ولا يمكن أن يكونوا كذلك ، لسبب بسيط جداً هو أن جبل صهيون اكتسب قدسيته من كونه القلعة التي اختارها داود للدفاع عن مملكته ، والقصبة التي جعلها سليمان امتداداً ومقدمة لقصبة ملكه في أورشليم ، وهؤلاء السامرة يكفرون بداود وسليمان . وبناءً على ذلك فإن جبل صهيون بالنسبة لهم يمثل قاعدة الكفر ، والصهيونية تمثل محاولة خطيرة لتجديد هذا الكفر وتقويته وبسط سيادته على كل صور الفكر الإسرائيلي .

وهم ينتسبون إلى مدينة السامرة القديمة التي يعيشون حولها ، والتي قامت على أنقاضها مدينة نابلس . وكانت السامرة عاصمة مملكة إسرائيل المنشقة على عرش سليمان بعد وفاته . ونابلس أو السامرة هي التي كانت تسمى قبل أن تطرق أقدام العبريين أو اليهود فلسطين مدينة « شكيم » ويشرف عليها جبل مقدس اسمه جبل « جرزيم » . وتقول التوراة إن يعقوب ، الجد الأعلى للعبريين ، قد بنى معبده المكرس للرب في هذا المكان وسماه « بيت إل » أي بيت الله . وهكذا يزعم السامريون أنهم البقية الباقية على الدين الصحيح، وأن موسى كان يجعل قبلته نحو «بيت إل». أما داود وسليمان فقد غيرا من شكل المجتمع الديني بحسب هواهما ، حتى تحول

إلى مملكة تشبه مملكة فرعون أو بختنصر ، وأنهما غيرا القبلة القديمة ، كما غير الأنبياء الذين ظهروا بعد موسى شكل الدين وشوهوه وحرفوه ولذلك فإن عقيدة السامريين تتلخص في النقط الآتية[1] :

(أ) الإيمان بإله واحد ، وبأن هذا الإله روحاني بحت .

(ب) الإيمان بأن موسى رسول الله ، وأنه خاتم رسله .

(جـ) الإيمان بتوراة موسى وتقديسها وبأنها كلام الله .

(د) الإيمان بأن جبل جرزيم المجاور لنابلس هو المكان المقدس الحقيقي وهو القبلة الحقيقية الوحيدة لبني إسرائيل .

وقد ترتب على أركان الإيمان هذه أنهم لا يؤمنون كما قلنا بنبوة الأنبياء الذين جاءت أسفارهم بعد توراة موسى في العهد القديم. ويعتبرون كل هذه النصوص من صنع البشر وأنها من عمل قوم ضالين مضللين ، ولا يستثنون من ذلك إلا يوشع بن نون الذي يأتي سفره بعد توراة موسى مباشرة ، لأن التوراة نفسها تشير إلى أن يوشع كان صاحب موسى وخادمه ، وأن موسى عهد إليه بالخلافة من بعده ، وأنه هو الذي عبر الأردن بأول موجة من بني إسرائيل تدخل فلسطين . وبطبيعة الحال هم يرفضون بقية النصوص المقدسة اليهودية، كالمشنا والتلمود والمدراش ونحوها، ويعتبرونها من الأعماق البعيدة في الكفر.

والنص المقدس الذي يتعبدون به هو توراة موسى ويضاف إليها أحياناً سفر يوشع بن نون ، وبذلك يَتألف كتابهم المقدس من ستة أسفار فقط . وهم لا يستعملون النسخة الموجودة عند باقي اليهود بل لهم نسخة برواية خاصة تختلف اختلافاً محسوساً عن التوراة الشائعة ، كما أن لهم لهجة

---

(١) السامريون : تأليف الأب مرمورة ، طبع نابلس .

J, Rosenerg; Lehrbuch der Samaritanischen Sprache und Literatur; Hartleben, Leipzig — Pest — Wien; p 4 — 5.

عبرية ، وكتابة خطية ، مختلفة يزعمون أنهما جاءتا إليهم صحيحتين دقيقتين من عهد موسى .

أما المعتدلون من اليهود الربانيين فإنهم يقولون إن أصل هؤلاء السامريين يرجع إلى من بقي من اليهود الجهلة الضعفاء في فلسطين بعد السبي البابلي[1] . ويبالغ غيرهم فيقول إن منشأ السامريين واضح مشروح في سفر الملوك الثاني الإصحاح السابع عشر إذ يقول : « وجرى بنو إسرائيل على جميع خطايا يُرُبْعَام التي صنعها ولم يحولوا عنها . حتى نفى الرب إسرائيل من وجهه ، كما قال الرب على ألسنة جميع عباده الأنبياء : وجلا إسرائيل عن أرضهم إلى أشور إلى هذا اليوم . وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكُوت وعَوًّا وحماة وسَفَرْوَائِيم، وأسكنهم في مدن السامرة مكان بني إسرائيل ، فامتلكوا السامرة واستوطنوا مدنها » . والذين يعتمدون على هذا النص من اليهود يريدون أن يستشهدوا به على أن هؤلاء السامريين لا يمتون إلى العبريين ، ولا إلى موسى أو يعقوب بصلة . فهم جماعة من أخلاط الناس ، ومن « الجوييم » المتعاونين مع أعداء اليهود ، إذ أحضرهم الأشوريون إلى هذا المكان وأحلوهم محل بني إسرائيل تنفيذاً للعنة إلهية حلت على بني إسرائيل لإجرامهم وإغضابهم الرب . والذين يقولون بذلك لا يسمون السامريين بهذا الاسم بل يسمونهم « الكوتيين » ، أي الذين جاؤ وا مع الآشوريين من « كوت » المذكورة بعد بابل في الآيات السابقة .

فإذا استمر القارىء بعد ذلك في سياق هذه الحكاية في هذا الإصحاح فإنه يجد فيه قوله : « وكان مبدأ إقامتهم هناك أنهم لم يتقوا الرب ، فبعث الرب عليهم أسوداً تقتلهم لأنهم لا يعرفون حكم إله البلاد. فأمر ملك آشور وقال ابعثوا إليهم واحداً من الكهنة الذين جلوتهم من هناك فيذهب ويقيم هناك . ويعلمهم حكم إله البلاد . فأتى واحد من الكهنة الذين جلاهم من السامرة وأقام في « بيت إل » وأخذ يعلمهم كيف يتقون الرب . فأخذت كل أمة تعمل آلهتها وتضعها في بيوت المشارف التي عملها السامريون ، كل أمة في مدنها التي سكنتها» .

(١) دائرة المعارف العبرية التي سبقت الإشارةإليها ـ المجلد العاشر ، المقال الخاص بالسامرة .

ويتأكد عن طريق هذا النص أن السامريين الذين كانوا أخلاطاً من الأمم الأخرى لم ينفعهم تعليم الكاهن الذي أرسل إليهم فقد انزلقوا إلى عبادة الأصنام . وتتأكد هذه الجملة ضد السامريين وتزداد وضوحاً عندما يذكر النص أسماء الأصنام التي صنعتها كل جماعة من السامريين فيقول : « فعمل أهل بابل سُكُّوت بَنُوت وأهل كوت عملوا نِرْجال، وأهل حماة عملوا أشِيمَا ، وَالعَوِّيُون عملوا نِبْحَازْ وَتَرْتَاق ، والسفروائيميون كانوا يحرقون أولادهم بالنار لأدْرَمَلّك وعَنَملك إلَهَيْ سفروائيم. فكانوا يتقون الرب، ويقيمون له من قومهم كهنة مشارف يقربون لهم في بيوت المشارف. وكانوا يتقون الرب، ويعبدون آلهتهم كعادة الأمم الذين جلوهم من بينهم . وهم إلى هذا اليوم يعملون كعادتهم الأولى ؛ لا يتقون الرب ، ولا يعملون بحسب سننهم وعوائدهم ، ولا بحسب الشريعة والوصية التي أمر الرب بها بني يعقوب الذي سماه إسرائيل .

وخلاصة القول أن كثيراً من اليهود ينفون عن السامريين الانتساب إلى إسرائيل أو الإيمان بإله إسرائيل . وقد وصل ذلك إلى حد أن أحبار اليهود كانوا اعتماداً على النص السابق يسمونهم « جيران السباع »[١] .

أما السامريون أنفسهم فإنهم ينتسبون إلى هارون أخي موسى وينتخبون كاهناً أعظم يسمونه « الكاهن اللاوي » أي المنحدر من سبط لاوي أو ليفي الذي انحدر منه موسى وهارون ، وكثيراً ما يكتفون في تسميته بلقب « الحبر الكبير » .

ونظراً للعزلة التي عاشوا فيها فقد انتشر فيهم الجهل بحيث قل عدد من يعرفون القراءة والكتابة بينهم ، وأكثرهم الآن يحفظون صلواتهم بعبريتهم بدون فهم لأنهم يتخاطبون في الأغلب باللغة العربية .

وكان آخر كهنتهم الذين يدعون الانتساب إلى هارون يعيش في أوائل القرن السابع عشر الميلادي ، وبعد وفاته عام ١٦٢٣ أصبح كهنتهم حتى

(١) دائرة المعارف العبرية .

الآن ينتسبون إلى فرع من اللاويين اسمهم بنو « عزيئيل بن لهات» ، وهم يعظمون كاهنهم تعظيماً كبيراً .

والسامريون ـ كاليهود الربانيين ـ يؤمنون بيوم القيامة ، ويسمونه يوم البعث ، أو يوم الموقف العظيم . كما يؤمنون بمجيء المسيح المخلص .

وكما تسمي هذه الطائفة نفسها « السامرة » ، تتخذ لنفسها أسماء أخرى أشهرها « بنو إسرائيل » ، وكذلك « بنو يوسف » .

٢ ـ الفريزيون

وهم طائفة علماء الشريعة من الربانيين قديماً ، وكانت لهم الكلمة العليا في توجيه المجتمع اليهودي على عهد المسيح ، كما كانوا من أشد خصوم المسيح خطرا عليه ، لتبحرهم في العلم ، وزعامتهم بين الناس ومنزلتهم عند الولاة الرومان، التي اكتسبوها من تعاونهم مع الظلم والطغيان والاستعمار، ربما لتحقيق مخطط دائم مرسوم لتدعيم الكيان اليهودي، مهما كانت وسائل ذلك منافية للدين والأخلاق.

وبعض الذين ترجموا الإنجيل ، أو الذين يكتبون عن علاقة المسيحية باليهودية يسمون هذه الجماعة « الفريسيين» واسمهم بالعبرية « فروشيم » يعني « المفروزين » أي الذين امتازوا عن الجمهور ، وعزلوا عنه ، وأصبحوا لعلمهم وورعهم واتصالهم بأسرار الشريعة من الصفوة المختارة . فالعامة من اليهود الربانيين كانوا يوصفون على ألسنة زعمائهم الروحيين بالصفة العبرية « عام ها آرص » أي عوام الأرض ، وهي صفة ذم ، تتضمن الجهل والبهيمية ، والحاجة المستمرة إلى رقابة المتشددين والمتزمتين من رجال الدين وهم « الفريزيون » .

وكانوا يلقبون أنفسهم فيما بينهم بلقب « حسيديم » أي الأتقياء ، وكذلك « حبيريم » أي الرفاق والزملاء ، ولعلها أصل استعمال العرب لكلمة « الأحبار » أي علماء اليهود ، ومفردها في اللغة العربية « حَبْر » بفتح الحاء .

ونحن نرى من ذلك أنهم لم يكونوا « طائفة » أو فرقة دينية منفصلة ،

بل كما يقول الباحث الفرنسي شارل جنيبير متفقاً في ذلك مع الأب لاجرانج[1] إنهم جمعية تدعي لنفسها معرفة أدق من أي إنسان آخر بشريعة الله في نصوصها المقدسة ومأثوراتها . وهي بهذه الصفة تنظم نفسها بما يتفق مع تطبيق في منتهى الدقة للأحكام الشرعية يسمح لها بأن تفرض كلمتها في ذلك على الآخرين .

والفريزيّون بمسلكهم هذا يعتبرون الشريعة اليهودية المنبع الذي لا ينضب للسعادة في الدنيا والآخرة ، ويقولون إن التوراة هي التعبير الكامل عما كان يمكن للإنسان أن يختاره لنفسه لو أنه أوتي علماً كاملاً . أما نظرتهم إلى ما يكمل - في رأيهم - التوراة من شرائع وحكايات وأساطير وأمثال في المشنا والتلمود والمدراش بكل ما تحتوي من « هلاخا » ، أي تشريع ، و « هجادا » أي قصص ، فنظرة خاصة يعتبرون بها كل ذلك مندمجاً اندماجاً عضوياً في التوراة ، بحيث لا يمكن الإيمان بهذه التوراة مع الشك في مكملاتها السالفة الذكر .

وتاريخ الفريزيين في شكله الذي نعرفه من المراجع الأوروبية يميل إلى كثير من التنديد بهؤلاء الناس ، والتشنيع عليهم ، بسبب الأوصاف التي وصفوا بها في الإنجيل ، نتيجة لما أشرنا إليه من مناهضتهم للمسيح ووقوفهم في وجهه بصلابة وعناد . لقد وصفوا بأنهم متزمتون عن جهل وتنطع في الدين ، وبأنهم يغرقون من النصوص في تفاصيل تافهة ، ويخرجون منها بنتائج جافة وتافهة أيضاً ، وبأنهم حرفيون شكليون ، وبأنهم جدليون كذابون منافقون ، وبأنهم يمثلون انحطاطاً بالنسبة لأسلافهم ، ومسخاً وتشويهاً لما كان لهؤلاء الأسلاف من فضائل .

ومثل هذا الصراع يكاد يكون ظاهرة شائعة في التطور التاريخي لمعظم الأديان . فبمجرد ظهور نزعة ترتكز على الروحانية ، وتعنى بجوهر الدعوة دون شكلها وتتصل وجدانياً بالله غير حافلة تماماً بما يقوله الكهنة وما يأمرون

(١) Ch. Guignebert; Le Monde Juif au Temps de Jésus; Paris 1935 P. 213.
Le p.M.-J. Lagrange; Le Judaïsme avant Jésus-Christ; Paris 1931; p.267 ss.

به من شعائر وطقوس ، يبدأ أولئك الكهنة بالتصدي للدعاة الـروحيين الجدد ، وهكذا ينشب الصراع بكل حدته وحرارته بين المعسكر الديني التقليدي المحافظ ممثلاً في الفقهاء والكهنة ورجال الشريعة ، والمعسكر الوجداني الروحاني الثائر ممثلاً في الزهاد والنساك والقديسين والمتصوفين .

ونحن نعرف أن الفقهاء من رجال الشريعة الإسلامية حكموا على متصوفين من أمثال الحلاج بالكفر والإعدام في جولة من الصراع بين الفقه والتصوف ، كما نعلم أن الكنيسة المسيحية الكاثوليكية قد حكمت على قديسة مثل جان دارك بالكفر والإعدام عندما نشب مثل هذا الصراع ، ومن ورائه صراع سياسي هو ليس عنه بغريب ، كان موجوداً أيضاً في الأعماق الخلفية لما وقع للحلاج من فقهاء المسلمين وما وقع للمسيح من الفريزيين . ومهما يكن من شيء فنحن لا نريد هنا أن ندافع عن الفريزيين بقدر ما نريد أن نشير إلى ضرورة التدقيق فيما يقع تحت أيدينا عنهم من أخبار ومعلومات .

وهناك ملاحظة قيمة يلاحظها شارل جنيبير[١] عندما يقول إن الفريزيين الذين آمنوا بالتوراة ثم بكل الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى ، وبجميع الأسفار اليهودية المقدسة ثم بالمشنا والتلمود والمدراش ، كانوا عن غير عمد وربما عن غير معرفة أيضاً يؤكدون بمسلكهم هذا يقيناً عفوياً عميقاً بضرورة الاستمرار مع التطور ، إذ بذلك، وبذلك فقط، تستطيع الأديان أن تعيش وأن تستمر .

لكن يبدو من جهة أخرى أن هذه التطورية التي يؤمن بها الفريزيون كانت في حسبانهم أيضاً محدودة بسياج من التقاليد والمقدسات التي لا يسمحون باقتحامها لأحد ، حتى ولو كان السيد المسيح نفسه . فمن مظاهر تطور الفكر الديني عندهم بروز فكرة الإيمان بالله مع الاعتقاد الواضح في وجود الشيطان ، وهي عقيدة لم يكن العبريون القدماء قد أدخلوها في

(١) المرجع السابق ، نفس الموضع .

نصوص التوراة . وتبعاً لذلك توسع الفريزيون في الكلام عن الملائكة على أنهم المؤتمرون بأمر الله القائمون في خدمته ، كما توسعوا في الكلام عن الأبالسة والجن والعفاريت على أنهم المؤتمرون بأمر الشيطان القائمون في خدمته . وكان هذا أمراً جديداً يضاف إلى الوضوح والبروز في الاعتقاد في مجيء المسيح وإقامته مملكة الله على الأرض ، وفي اليوم الآخر .

وبحكم القيادة الدينية التي حرص الفريزيون على أن تبقى في أيديهم ، فإنهم تعرضوا لكثير من المواقف التي اختلفت فيها تصرفاتهم بحسب الظروف . فهم مثلاً كانوا دائماً حريصين على غرس بذور الصهيونية في نفوس عوام الأرض ، وتوجيههم إلى احتقار الأمم والأجناس والأديان الأخرى ، وحضهم ، جهاراً أحياناً وسراً أحياناً ، على رفض أية حكومة أجنبية غير يهودية تهيمن عليهم ، ومن هنا كانوا دائماً وراء القلاقل والاضطرابات والثورات وأعمال التخريب والمؤامرات التي ظل اليهود يقومون بها في منطقة الشرق الأوسط ـ وكانوا إذ ذاك قلة قليلة جداً وسط ملايين كثيرة من السكان الآخرين ، في كل هذه المنطقة بما فيها فلسطين ـ طوال العهدين اليوناني والروماني حتى انتهت بتشريدهم نهائياً على يد تيتوس ثم هدريان كما قلنا .

فالفريزيون بتعصبهم وتشددهم مسؤولون عن « الدياسبورا » ، وهي التشريد الروماني لليهود الذي استمر إلى ما بعد وعد بلفور، وهم مسؤولون أيضاً أمام الرأي العام العالمي عن كل التفاسير التي وجهوا بها النصوص المقدسة وجهة الصهيونية السياسية ، ولعلهم في ذلك لم يكونوا أقل خطراً على الإنسانية من تآمرهم لصلب المسيح عليه السلام . وهذه المسؤولية القيادية التي آلت إلى الفريزيين فوضعتهم في مواقف معينة في قمة البسالة والشجاعة هي أيضاً التي أعطتهم القدرة على المناورة ، وتخطيط المكايد ، وإظهار ما يخالف الباطن في انتظار الفرصة السانحة للانقضاض . ومن هنا جاء حكم الإنجيل عليهم بالتزمت الأحمق، والتناقض في الأقوال والأفعال ، والتآمر والنفاق .

٣ ـ الصدوقيون

إذا كان الفريزيون قد استمروا إلى يومنا هذا تحت أسماء أخرى هي التي تميز الجماعات والأحزاب الدينية الصهيونية في إسرائيل وباقي أنحاء العالم ؛ فإن هناك فرقة دينية يهودية عاصرت الفريزيين ، بل ربما كانت أقدم منهم ، ولكنها لم تساير تطور الفكر الديني اليهودي حتى النهاية فانطفأت مع الزمن ، هذه الفرقة هي فرقة الصدوقيين .

وبالرغم من شهرة هذه الفرقة فإن أمرها لا يخلو من غموض ، حتى في أصل اسمها . فالروايات الفريزية القديمة تقول إن « انتيجنوس السوخي » الذي كان من كبار كهنة الهيكل الثاني ، وعاش حوالي سنة ٣٠٠ ق.م. كان له تلميذان أحدهما اسمه « صدوق » والآخر اسمه « بيتوس » ، وإلى الأول منهما تنسب هذه الفرقة ، ولما كان قد ورد ذكر «البيتوسيين» في بعض النصوص القديمة أيضاً ، فقد جرى اليهود على اعتبار أن الصدوقيين والبيتوسيين فرقة واحدة لها اسمان مختلفان ، وإن كان بعضهم قد تلمس فرقاً جعله يعتقد ـ وسط هذا الغموض ـ أنهما فرقتان مختلفتان[1] .

والصدوقيون أنفسهم لم يكونوا يوافقون على ذلك ، فهم يدعون أنهم ينتسبون إلى « صدوق » أقدم من هذا بكثير هو ـ فيما يقال ـ الكاهن الأعظم لداود ، الذي تولى أخذ البيعة لابنه سليمان ، وتنصيبه على العرش ، فعينه سليمان كاهناً أعظم لهيكله . جاء في سفر الملوك الأول : ١/٣٢ ـ ٣٥ :

---

(١) جريتس ، حنيبير ، لاجرايخ ، دائرة المعارف العبرية .

« وقال الملك داود عليّ بصدوق الكاهن وناتان النبي وبنايا بن يوياداع ، فدخلوا بين يدي الملك . فقال لهم الملك خذوا معكم عبيد سيدكم ، وأركبوا سليمان ابني على بغلتي وانزلوا به إلى جيحون . وليمسحه هناك صدوق الكاهن وناتان النبي ملكاً على إسرائيل ، واهتفوا بالبوق وقولوا : ليحيى الملك سليمان . واصعدوا وراءه فيجيء ويجلس على عرشي ، وهو يملك مكاني ، فإنه هو الذي أوصيت أن يكون قائداً على إسرائيل ويهوذا » . ويقول في الإصحاح الثاني ، آية ٣٥ : « وأقام الملك بنايا بن يوياداع مكانه على الجيش ، وأقام صدوق الكاهن مكان أبيثار » .

ويبدو أن الأيام دارت ، وأحفاد صدوق هذا يرثون الكهانة عن جدهم ، ففي حزقيال ٤٠/٤٦ نقرأ : « والغرف التي تتجه نحو طريق الشمال هي للكهنة المتولين حراسة المذبح ، وهم بنو صدوق المقربون إلى الرب، من بين أبناء لاوي ليخدموه » . ويقول الفرنسي جنيبير[١]: إن انتساب الصدوقيين الأول إلى الكاهن الأكبر لسليمان صدوق يبدو مستبعداً ، إذ لو كانت هناك أدنى مناسبة لحرص أبناء هذه الطائفة ، لا على تسمية أنفسهم الصدوقيين ، ولكن (بني صدوق) على نحو ما جاء في آية حزقيال مثلاً .

وإزاء هذا الغموض قال بعضهم إن الصدوقيين الذين يسمون بالعبرية (صدوقيم) ربما كانوا يسمون في الأصل (صديقيم) أي الصديقون بمعنى العادلين والأبرار ، ثم غيروها من الياء إلى الواو تواضعاً ، بحيث يصبح معناها (أهل العدل) أو نحو ذلك[٢] : المسألة ما تزال مفتقرة إلى وثائق حتى يتم شرحها بشكل حاسم ، خصوصاً أن الصدوقيين ، لعداوتهم العقائدية المرة للفريزيين والمسيحيين ، قد نعتوا بأوصاف كثيرة تحول دون الرؤية الواضحة في هذه التسمية ، لدرجة أن التلمود لم يقنع بوصفهم بأقبح الصفات ، بل أضرب عن تسميتهم بالصدوقيين وسماهم (الأبيقوريين) ، لأن مفهوم هذه الصفة عند اليهود التلموديين ينطبق على من يصاب بالشك

(١) دائرة المعارف العبرية ، في مادة « صدوقيم » ، المجلد التاسع .
(٢) كتابه السابق ذكره ، ص ٢١٠ وما بعدها .

في الحقائق ، وعدم تصديق الروايات الشفوية ؛ مع الانفكاك من قيود الدين والأخلاق . ومهما يكن من شيء فهذه الطائفة تمتاز بما يلي :

(أ) أنها لا تؤمن بقيامة الأموات من القبور .

(ب) ولا تؤمن بالحياة الأبدية للبشر بأفرادهم وأشخاصهم كما كانوا في الدنيا .

(جـ) وترفض بالتالي الثواب والعقاب في الآخرة .

(د) تنكر وجود الملائكة والشياطين .

(هـ) تنكر القضاء والقدر وما كتب للإنسان أو عليه في اللوح المحفوظ .

(و) تقول تبعاً لذلك بأن الإنسان خالق أفعال نفسه ، حر التصرف وبذلك فهو مسؤول .

(ز) تؤمن بقدسية العهد القديم ولا تؤمن بالتلمود ونحوه .

كانت هذه الفرقة تشبه فرقة المعتزلة المسلمين من وجوه كثيرة كما رأينا ، وكانت تشبههم أيضاً في أنها عقيدة الخاصة والمثقفين والطبقة الأرستقراطية . ولذلك فإنهم على الرغم من عدم وضوح فكرة المسيح المنتظر في عقائدهم ، ربما كانوا يؤمنون بها من خلال تأويلهم لنصوص معينة معروفة من العهد القديم ، وبخاصة سفر إشعيا . ولكنهم لم يبرزوا هذه الفكرة ، ولم يلحوا عليها ، لما رأوه من تحولها إلى نوع من الدروشة والتهريج الديني بين الجهلة والعوام . ولعل ذلك هو الذي حدد موقفهم العدائي المعروف من المسيح ، فاشتركوا مع الفريزيين في مقاومته ومعاداته .

وسنرى فيما بعد كيف أثر الفكر الديني الصدوقي على طوائف أخرى متأخرة من أشهرها طائفة اليهود القرائين .

٤ ـ القناؤون

وهم في الواقع ليسوا فرقة بمفهوم هذه الكلمة في تاريخ الأديان، وإنما هم شعبة من الفريزيين يمتازون بالتطرف الشديد، والعنف، بحيث يمكن وصفهم بأنهم سياسياً ودينياً «غلاة» اليهود. وكلمة «قنّاء» التي يسمى بها كل فرد من هذه الجماعة الدينية معناها في استعمال العبريين «الغيور» أو «صاحب الحمية». وهي الكلمة التي وصف الله بها نفسه في الوصايا العشر عند النهي عن اتخاذ آلهة أخرى. وكان الاستعمال القديم لهذه المادة في اللغة العبرية قد اصطبغ بمعنى الجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوة وجرأة، وأن يقف المرء في المجتمع مناضلاً لا تأخذه في الله لومة لائم. فعندما ذهب النبي إلياهو الذي أجملنا أهم أخباره فيما سبق من هذا الكتاب إلى جبل الله حوريب، حيث كان الله قد كلم موسى تكليماً، دخل إلياهو المغارة وبات فيها. «وكان كلام الرب إليه، يقول: مالك ها هنا يا إلياهو؟ فقال: قد غِرتُ غيرة للرب إله الجنود، لأن بني إسرائيل قد تركوا عهدك، ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف...» فهذه الغيرة للرب يعبر عنها في العبرية بمشتقات من نفس مادة «قنّاء».

ويقول المفسرون اليهود أصحاب المدراش إن من أشهر القنائين القدماء الذين أخذتهم الغيرة لله، من عهد موسى، فنحاس بن إلعازار بن هارون الكاهن، الذي أثر عنه في سفر العدد هذا الخبر (عدد ٢٥/٦ ـ ١٣): وإذا رجل من بني إسرائيل قد جاء وقدم إلى إخوانه

(زوجته) المديانية أمام عيني موسى ، وأعين كل جماعة بني إسرائيل ، وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع . فلما رأى ذلك فنحاس بن إلعازار بن هارون الكاهن قام من وسط الجماعة وأخذ رمحاً بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلي إلى القبة ، وطعن الرجل الإسرائيلي كما طعن المرأة في بطنها كليهما ، فامتنع الوباء عن بني إسرائيل . وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفاً فكلم الرب موسى قائلاً : « فنحاس بن إلعازار بن هارون الكاهن قد رد سخطي عن بني إسرائيل ، بكونه غار غيرتي في وسطهم ، حتى لا أفني بني إسرائيل بغيرتي . لذلك قل إنني أعطيه ميثاقي ، ميثاق السلام ، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدي ، لأجل أنه غار لله ، وكفّر عن بني إسرائيل » .

وواضح من هذه القصة أن ذلك « القنّاء » القديم المعاصر لموسى ، فنحاس ، كانت غيرته للرب دموية جداً لم يتحرج فيها عن القتل ، بل عن قتل اثنين أحدهما من إخوانه بني إسرائيل ، وامرأة غربية ضعيفة هي الزوجة المديانية . أما مبرر هذا القتل فالعصبية العنصرية التي جعلت فنحاس الكاهن يرى في الزواج بأجنبية جريمة ما بعدها جريمة ، بل جعل معاصريه من بني إسرائيل ، حسب هذه القصة ، يسندون الأوبئة والطواعين التي تفتك بعشرات الآلاف من أبناء شعب الله المختار إلى الزواج بالأجنبيات .

والذي يعنينا هنا هو أن فرقة القنّائين التي تكونت في الفترة المحيطة بمولد المسيح كانت تستوحي من أمثال هذه الحكايات دستوراً للعنف والتطرف والمغالاة . وكانت بوادر هذا الاتجاه قد ظهرت في عهد أحبار المشنا ، فقد جاء في باب القضاء (السنهدرين ٨١) أن من يسرق أدوات الخدمة الدينية ، ومن يعمل عملاً سحرياً للإضرار ، ومن يتزوج بامرأة آرامية ، فإن القنائين كانوا يقتلونه ، وأما الكاهن الذي قام بالخدمة الدينية وهو في حالة نجاسة فإن إخوانه الكهنة لا يحضرونه ويقدمونه إلى المحكمة بل يأتي صغارهم ويخرجونه ويهشمون رأسه .

وقد أصبح « قضاء القنّائين » مضرب الأمثال في القوة ، مما جعلهم في

أيام هيرودس ، حوالي ميلاد المسيح ، يعتبرون فرقة قائمة بذاتها ، وجعل الفريزيين الذين لا يختلفون عنهم من الناحية الاعتقادية أو التشريعية يعادونهم بسبب هذا الغلو والإرهاب الذي اشتهروا به لدرجة أنهم كانـوا يسمون « سِيقَارِين » أو « سِيقاريقِين » وهي كلمة يهودية من ألفاظ التلمود معناها « الإرهابيون » أو « السفاحون » أو « قطاع الطرق » ، كما أنهم سموا في بعض الوثائق « بريوناي » أي « الخارجون على القانون » أو « المتمردون » .

ويقول المؤرخ اليهودي المعاصر لهم يوسيفوس[١] إن هذه الجماعة كانت تمتاز بتمسكها بفكرة الوطن اليهودي الحر المستقل ، وكانوا لا يعترفون برئيس أو سيد إلا الله وكانوا يفضلون الخروج على القانون ، بل يفضلون الموت لهم ولذويهم على أن يبايعوا حاكماً أجنبياً . وينقل شارل جنيبير[٢] عن يوسيفوس أنه يعزو نشأة حزب القنّائين في الصورة الرهيبة المعروفة إلى الحوادث التي وقعت في السنة السادسة أو السابعة من ميلاد المسيح ، والتي انتهت بعزل أرخيلاوس عن الإمارة على اليهود وهو ابن هيرودس وخليفته وصدور مرسوم روماني باعتبار فلسطين رومانية ليس لها أي كيان ذاتي .

وقد بدأت هذه الحوادث بأمر من السلطات الرومانية بعمل تعداد إحصائي لليهود الموجودين في فلسطين إذ ذاك ، فقام أحد القنائين واسمه « يهوذا دي جملا » المعروف بيهوذا الجليلي، نسبة إلى مقاطعة الجليل بشمال فلسطين ، واتفق سراً مع أحد الفريزيين واسمه « صدوق » على إشعال نار الثورة ، ولكنه لم ينجح هو وصاحبه إلا في استقطاب بعض المتطرفين وتكوين عدد محدود من العصابات وبمجرد علم الرومان بذلك هبوا لقمع هذا التمرد ونجحوا في إبادة هذه العصابات والقضاء على الرجلين المتزعمين لها . ومنذ ذلك الوقت أصبحت حركة القنّائين حركة سرية تعتمد

---

(١) في كتابه المشهور « تواريخ اليهود » وكذلك في كتابه الآخر « حرب اليهود » الذي خصصه لتدمير تيتوس للوجود اليهودي بفلسطين سنة ٧٠ ميلادية . وهذه النقول موجودة في دائرة المعارف العبرية ، المجلد التاسع ، وهذه الطائفة تسمى في الكتب الأوروبية الحديثة :
Zelots, Les Zélotes .

(٢) المرجع السابق ، ص : ٢٢٠ وما بعدها .

على الاغتيال ، وكانت ضحاياها من بين اليهود المتعاونين مع الرومان ، وخصوصاً الفريزيين .

كان الواحد من القنّائين يمر أحياناً بسرعة البرق وخنجره في يده ، فيقتل الشخص المتفق عليه بطعنة واحدة ثم يختفي . وكان زعيمهم قبيل نزول تيتوس بجيشه لإبادة فلول اليهود في فلسطين سنة ٧٠ ميلادية هو مناحم بن يهودا الجليلي الذي قاد الحركة بعد أبيه ، وراح ينشر الاضطرابات في أرجاء فلسطين سنة ٦٦ ميلادية ، مما أدى إلى هذا التدخل الروماني الحاسم سنة ٧٠ ، وانتهى فيه أمر القنّائين مع انتهاء أمر اليهود جميعاً .

وخلاصة القول هي ما قدمناه من أن هذه الجماعة لم تكن تؤمن في الدين بما يخالف إيمان الربانيين والفريزيين على وجه الخصوص ، وإنما كانت تنظيماً صهيونياً سياسياً وعسكرياً ، يرى استعمال القوة والالتجاء إلى الإرهاب والقتل والاغتيال لتحقيق الأغراض السياسية البحتة التي رسمتها الجماعة لنفسها، وهي انتزاع فلسطين من الرومان ، وبسط السيطرة اليهودية بصورة دكتاتورية عليها .

ونلاحظ أيضاً أن اشتعال حركتهم على أثر الأمر بالقيام بتعداد وإحصاء لليهود في فلسطين يشعر بصورة واضحة بأن اليهود كانوا أقلية وأن القنّائين كانوا على يقين من أن عملية التعداد لم تكن في مصلحة هذه الفئة من الناس ، ولذلك لم يجدوا حلاً للموقف إلا في العنف والتخريب والاغتيال وبث القلاقل والاضطرابات ، آملين أن يصلوا بذلك إلى أن تتحكم الأقلية في الأكثرية ، وأن يقيموا حكومة تستمد هيبتها من التهديد بالخناجر .

وإذا كانت جماعة القنائين قد اندثرت كتنظيم ومذهب في هذا الوقت المتقدم ، فإن منهاجها ووسائلها ما تزال توحي للفكر الصهيوني الحديث بكثير من التفاصيل التعسفية التي يعتمدها المتطرفون من أصحابهم حتى اليوم في فرض كلمتهم بالقوة ، وإهدار كل الحقوق المنبثقة مما هو تشريع أو قانون أو سلوك إنساني .

٥ ـ الأسيين أو الأسينيين

كانت هذه الفرقة على أيام ظهور المسيح من أهم فرق اليهود وأكثرها نشاطاً وأشدها احتراماً . لدرجة أنه جرت عادة من يكتبون عن الفكر الديني الإسرائيلي إبان ظهور المسيحية على الاكتفاء غالباً بذكر أربع فرق هم الفريزيون والصدوقيون والقناؤون والأسينيون . وإذا كانت معلوماتنا عن الفرق الثلاث الأولى قد سمحت لنا بالكلام عنهم بشيء من الدقة لكثرة ما وصلنا حولهم من معلومات ، فإن فرقة الأسينيين ليست كذلك ، إذ أحاط بها الغموض الشديد منذ البداية ، مما جعل كل شيء يتصل بها يمثل مشكلة كبيرة أمام الباحثين .

وأول تلك المشاكل هي ندرة من كتبوا عنهم من القدماء . إذ تكاد هذه الكتابات تنحصر في فقرات قصيرة لا تتجاوز العشرين فقرة لدى المؤرخ اليهودي يوسيفوس في كتابيه المشهورين : حرب اليهود ، وتواريخ اليهود . يضاف إلى ذلك تعريف مختصر بهؤلاء الناس جاء تحت قلم العالم الطبيعي الروماني بلينوس الأكبر ، الذي عاش في القرن الأول الميلادي (٢٣ ـ ٧٩) ، في كتابه المشهور « التاريخ الطبيعي » ، وبضعة معلومات تنسب إلى الفيلسوف اليهودي السكندري فيلون .

أما الكتابات اليهودية ـ العبرية أو الآرامية ـ المنبثقة عن رواة ومؤلفين مختلفين عاشوا في تلك الأزمان، وكتبوا في أمور بعضها أقل أهمية بكثير من الأسينيين ، فإنها لا تتحدث عن هؤلاء بشكل يقيني يمكن تشخيصهم من

خلاله . وكذلك الأمر في الكتابات المسيحية القديمة .

وكان أكثر المؤلفين يعجبون أيضاً وحتى عهد قريب ، من أن هذه الفرقة ـ على ما اشتهرت به من العلم والثقافة ـ لم تترك مؤلفات أو كتباً يعتمد عليها . وظل ذلك هو اعتقاد العلماء إلى أواخر صيف سنة ١٩٤٧ ، عندما أميط اللثام عن مجموعة من الكتابات العبرية ، في مغارة بالقرب من « عين فشخة » ، في منطقة أريحا بفلسطين على الجانب الغربي للبحر الميت . وهذه الكتابات بغرابتها وغزارتها والموضع التي خبأها أصحابها فيه تنطق بدون أدنى شك عن فرقة دينية يهودية ، ولكن اسم الأسينيين لم يرد بكل أسف ولو مرة واحدة في كل هذه النصوص . ومع ذلك فقد ذهب كثير من الباحثين ، في مقدمتهم أستاذنا الراحل ديبون سومير الأستاذ بالسربون، إلى أن الكتابات المذكورة هي تراث من ثقافة الأسينيين، بينما احتاط بعض آخر من العلماء فاكتفوا بنسبة هذه النصوص إلى المكان الذي وجدت فيه وقالوا «كتابات البحر الميت» أو «مخطوطات قمران» لأن المغارة التي كانت مستودعاً لهذه المخطوطات توجد في بقعة من الأرض بقرب عين فشخة تسمى « خربة قمران » . ولما كان هذا التراث يشبه من كثير من النواحي ما يمكن تصوره عن الأسينيين من كتابات يوسيفوس وبلينوس الأكبر وفيلون السكندري ، فإننا لن نترك الحديث عن الأسينيين إلا وقد أعطينا فكرة موجزة عن وثائق البحر الميت هذه أيضاً .

وإذا كانت مشكلة المراجع ومصادر المعلومات عن هذه الفرقة تمثل عقبة كبيرة أمام الباحث في تاريخها وعقائدها، فإن اسم هذه الفرقة أيضاً يثير مشاكل كثيرة . فهو لم يرد مكتوباً بالعبرية قط ، ولكنه رسم هكذا باليونانية واللاتينية . ومن حق الباحث أن يسأل : ما أصله ؟ ما معناه ؟ وحول ذلك تكثر الأقوال وتتضارب . والشائع الآن بين العلماء هو أن الكلمة معناها « الأطباء » ، وأن أصلها آرامي هو كلمة « آسيا » بمعنى الطبيب والمداوي ، أو كما تقول العرب « الآسي » . وعلى هذا الرأي يمكن تسمية هذه الفرقة « الأُسَاة » . والذين خرجوا الاسم هذا التخريج يعتمدون على ما سماهم به

الفيلسوف اليهودي فيلون السكندري وهو يكتب عنهم باليونانية إذ دعاهم « ثِيرَابُوتِي ثِيُو » التي تعني لأول وهلة « أطباء الله » . ومع ذلك يبقى إشكال حول هذا التخريج وهو أن كلمة « ثيرابوتي » لها في اللغة اليونانية معنيان ، أولهما « الأطباء » والثاني « الخدم » أو « الوصفاء » .

ومال بعض الباحثين إلى اشتقاق اسم هذه الفرقة من اللفظ اليوناني « أُوسْيُوى » التي تستعمل بمعنى « القديسين » أو « الأبرار » ، كما ربطها غيرهم باللفظة اليهودية القديمة « حَسْيا » أو « حَسين » بمعنى « الأتقياء » وإن كان هذا التخريج الأخير مشكوكاً فيه لانعدام الوثائق الصريحة التي ترد فيها الكلمة بالمعنى المذكور في التراث اليهودي . وهناك من يقول بإرجاعها إلى اللفظ اليهودي « حَاشِيا » أي الصامت الذي لا يتكلم ، بل تكلف آخرون فأرادوا جعلها صيغة محرفة من « سَاحِيَا » التي معناها نزل إلى الماء وسبح فيه ، وبنوا على ذلك أن هذه الطائفة ربما كانت تعتقد دينياً في المعمودية أو الغطاس أو الطهارة بالاغتسال الكامل في الماء[1] .

ومن الصعب جداً أن يتخير الباحث رأياً من هذه الآراء الكثيرة ويرجحه ، فإن أقربها إلى التصديق من أول وهلة ، وهو الدلالة على على « الأطباء » يدعمه ما وصفهم به يوسيفوس من أنهم يلتزمون لبس الثياب البيضاء النظيفة ، ويظهرون في المجتمع بصورة مهيبة محترمة تدعو الناس إلى الثقة بهم والإقبال عليهم . ومع ذلك فلم يرد إلينا من خبرهم شيء أكثر من هذا يتصل بالطب أو الصيدلة أو علاج المرضى ، حتى في الكتابات الكثيرة التي عثر عليها في منطقة البحر الميت . ويردّ المتحمسون لهذا التخريج بأن سيدنا عيسى المسيح لم يكن قبل بعثته فريزياً ولا صدوقياً ، فقد هاجم هاتين الطائفتين بصراحة في تعاليمه ؛ كما أنه لا يمكن أن يكون من أولئك المتطرفين الإرهابيين السفاحين « القنائين » ، فقد ظل حياته كلها ينهى عن العنف ، حتى دفاعاً عن النفس ، ويحاول غرس بذور المحبة والتسامح

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلد الثاني ـ في مادة «آسيم»؛ جنيبير ـ المرجع السابق ، ص : ٢٢٣ ـ ٢٤٦ .

في القلوب . وعلى ذلك فإن الاحتمال الباقي هو أن يكون متعاطفاً مع فرقة الأسينيين التي لم يندد بها ولم يهاجمها قط في تعاليمه . ولما كان هو نفسه قد اشتهر بمعجزاته المذهلة في الطب ، من إعادة البصر إلى العميان ، وإقامة المصابين بالشلل أو الكساح يتحركون ويمشون بين الناس ، وإبراء المرضى بالبرص ، بل إحياء الموتى ، فقد مال أكثر الباحثين الذين يتجهون نحو جعل الأسينيين « أطباء » إلى الربط بينهم وبين السيد المسيح بمعجزاته الطبية هذه .

وكان يمكن الرضا بهذا الشرح ، لولا أن البِرَّ والقداسة والالتجاء إلى الصمت والغطاس في الماء وهي من المعاني المعطاة لكلمة الأسينيين كما قلنا كانت أيضاً من تعاليم المسيح ، ومن الرياضات الدينية الشائعة عند كثير من النساك والأتقياء من اليهود في عصره . وربما يكون الأمر الوحيد الذي يقوي فكرة أنهم « أطباء » هو الاعتبار اللغوي البحت ، واقتراب اسمهم من كلمة الآسي السامية القديمة الموجودة في الآرامية والعربية بمعنى الطبيب ، وما جاء من وصف الأسينيين في اللغة اليونانية بأنهم « ثيرابوتي » أي أطباء ، على الأرجح .

وهذه الفرقة الغامضة في اسمها وكنهها غامضة في تاريخها أيضاً . فأقدم حديث عنها يرجع إلى أسرة المكابيين الحشمونيين إذ يذكر يوسيفوس في « تاريخ اليهود » أنهم كانوا موجودين على عهد الأمير الحشموني يوناثان (١٦١ ـ ١٤٨ ق.م) ، ولكن يبدو من مسلكهم نفسه أنهم ما كانوا يتيحون للعالم الخارجي أن يعرف عنهم الكثير، والظاهر أنه كانت لهم فلسفة دينية وأخلاقية عملت فيها تيارات أجنبية غير يهودية ، منها الفلسفة الفيثاغورية اليونانية ، ومنها التنظيم الديني المجوسي الفارسي القائم على تقديس النور وربطه بالخير ، ومنها رواسب وبقايا من العقائد المصرية الفرعونية لا سيما ما يتصل منها بتقديس الشمس ، إلى جانب المعتقدات النابعة من كتب اليهود المقدسة بطبيعة الحال . ويمكن تلخيص معتقدهم ومظهرهم العام على النحو التالي :

١ ـ الاعتزال عن الناس ، والارتباط القائم بين أعضاء الفرقة بعهد مقدس ، ويمين يحلفونه عند الدخول في الفرقة ثم لا يحلفون بعده يميناً أبداً . وقد لاحظ الباحثون التشابه القائم من هذه الناحية بينهم وبين المسيح والحواريين ، الذين كانوا مرتبطين في هيئة جماعة تعتزل الناس ، وكذلك في النهي عن التأكيد باليمين اكتفاءً عند الإجابة بلفظتي « نعم » أو « لا » .

٢ ـ كانوا يلبسون الثياب البيضاء ، ويحرصون على نظافتها ونظافة أجسامهم والظهور بمظهر طيب وقور . وهم في ذلك يشبهون المسيح والحواريين أيضاً ، فنحن نعلم أن كلمة حواري معناها لابس الثياب البيضاء .

٣ ـ المعيشة الجماعية في دار عامة للطائفة بعيدة عن الناس ، يتولى كل واحد منهم فيها مهمة من مهام الحياة اليومية من زراعة أو صناعة أو طبخ أو تنظيف تعليم أو تأليف . وكانوا في هذه الدار يعيشون حياة شبيهة بحياة الأديرة المسيحية .

٤ ـ الاهتمام بتهذيب شعر الرأس واللحية ، والتطهير بالاغتسال والغطاس في الماء .

٥ ـ الاهتمام بشروق الشمس ، فقد كانوا يقومون من نومهم قبل الفجر فيقفون جماعة في انتظار لحظة الشروق حيث يؤدون صلاة معينة يسمونها « صلاة الأسلاف » ، وقد لمس الباحثون في هذه النقطة(١) اقتراباً من الشرائع القديمة المصرية والمجوسية .

٦ ـ كانوا يحرمون في عبادتهم الذبيحة ، ويرون فيها لوناً قاسياً من سفك الدماء ، مخالفين في ذلك أكثر فرق اليهود ، ومقتربين من المجوسية من ناحية والمسيحية من ناحية أخرى ، بل لقد رأى بعض العلماء أنهم لا بد أن يكونوا قد تأثروا في ذلك بشيء من الفلسفات الدينية الهندية .

٧ ـ كان لهم تنظيم داخلي دقيق في فرقتهم ، ففي كل دار من دورهم

---

(١) جنيبير في الموضع السابق .

التي يعيشون فيها هذه الحياة الجماعية رئيس لهم يعظمونه ويطيعونه ، ومن تحته كان كل فرد من أفراد الطائفة له مكان في الترتيب الهرمي لمجتمعهم لا يجوز له أن يتعداه ، حتى بالكلام ، فعند المحادثات والمناقشات تعطى الأولوية لكل فرد منهم بحسب منزلته في هذا الترتيب .

٨ ـ كانوا يأخذون أنفسهم بالتقشف والقناعة ، فلا يقبلون هدية أو زكاة أو راتباً من أحد ، وكان على كل منهم أن يعيش من عمل يديه ، وربما كان علماؤهم يحترفون الطب حتى تجتمع لهم فضيلة علاج الأجسام والأرواح.

٩ ـ يذكر عنهم كذلك حسب رواية فيلون أنهم كانوا يحرمون على أنفسهم الزواج ، وقد حار الباحثون إزاء هذا التأكيد الذي يسجله بلينوس وفيلون ، وأرجعوه إلى تأثير الفلسفة الفيثاغورية ولكن شارل جنيبير[1] يقول إن هذه الفيثاغورية التي تمثل تناقضاً صارخاً مع ما جرى عليه العرف الديني اليهودي من ضرورة الزواج ، ربما أتت إلى الأسينيين من ارتباطها بفكرة أخرى خاصة بالطهارة . فالشريعة اليهودية ترى في الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة عملاً يدنس جسميهما ، ويبعدهما عن هذه الطهارة . ويبدو ذلك واضحاً في توصية موسى لقومه في التوراة (خروج ١٩/١٥) بأن يكونوا مستعدين في ظرف ثلاثة أيام فيقول لهم « لا تقتربوا من أية امرأة » . وفي سفر صمويل الأول ٢١/٤ ـ ٥ نجد داود وهو يتساءل عن إمكان أكله من الخبز المقدس يقول : « ألم نتجنب النساء منذ ثلاثة أيام . . . فكل رجالي طاهرون » .

١٠ ـ كانوا يحرمون الاستعباد والرق ويقولون بالحرية للناس جميعاً .

١١ ـ ذهب جنيبير إلى أن الأسينيين لم يكونوا يحرمون ذبيحة القربان فقط ، بل كانوا يمتنعون بتاتاً عن أكل اللحم وعن إسالة الدماء وكانوا نباتيين ملتزمين بذلك في حياتهم اليومية .

١٢ ـ كانوا يؤمنون بضرورة التمسك بالتوراة وأحكامها ولو جر ذلك عليهم القتل .

---

(١) نفس المرجع .

١٣ ـ يبدو من خلال ما نقل عنهم أنهم يؤمنون بمجيء المسيح، لكن ذلك يلفه غموض كبير إلا في كتابات البحر الميت. وأوضح من ذلك إيمانهم باليوم الآخر، وقد رأينا أن اليوم الآخر والمسيحانية ركنان من الاعتقاد اليهودي لا يكاد أحدهما ينفصل عن الآخر.

١٤ ـ كانت هذه الفرقة هي أكثر الفرق إيماناً بالقضاء والقدر .

١٥ ـ نظراً لانتشار تعاطي الطب بينهم فقد قوي فيهم الإيمان بالأعمال السحرية ، وتأثير البروج والأفلاك على صحة الإنسان ، ثم على مقدّراته.

١٦ ـ انطلاقاً من النقطة السابقة كانوا يؤمنون بالأرواح والملائكة ويعطونها أسماء، ويحاولون بطقوس معينة أن يوجهوها إلى تحقيق ما يريدون.

١٧ ـ كانوا يؤمنون ، تبعاً لإيمانهم بالقضاء والقدر ، بأن الله هو المتصرف في كل شيء ، وليس من الضروري أن تتفق تصرفاته مع اجتهادات عقولنا .

١٨ ـ كانوا يتلزمون بالفضيلة ، ويبتعدون عن الشر ، ولا يلجأون إلى العنف أبداً ، ولعل ذلك هو السبب في نظرة الاحترام التي كانوا يتمتعون بها بين الناس البسطاء ، وبين المخالفين لهم من أتباع الفرق الأخرى ، كما كان ذلك بلا شك من عوامل فنائهم واندثارهم .

كان هؤلاء الأسينيون من الفرق التي اصطبغت بالتصوّف ، وكادت تبتعد بموقفها السلبي عن السياسة ، وعن الصهيونية .

فرقة الأسينيين ومخطوطات البحر الميت :

تعتبر مخطوطات البحر الميت ، التي بدأ العالم يعرفها منذ أواخر صيف سنة ١٩٤٧ ، من أهم الكشوف الحديثة في ميدان الفكر الديني الإسرائيلي ، من حيث كميتها أولاً وأهمية المحتوى الذي تتضمنه هذه الكتابات العبرية ثانياً . ومع ذلك فقد كان أمر هذه المخطوطات محفوفاً بصعوبات جمة ، سواء أكان ذلك في تجميعها ، أم في الإدلاء بحكم أثري وتاريخي رصين حول أصلها ومصدرها وسبب كتابتها ، أم في تحديد

الاتجاهات المذهبية التي تسودها . وليس عجيباً والحالة هذه أن تتناولها أقلام الباحثين والمعلقين والمترجمين منذ ذاك الوقت حتى الآن ، دون أن ينقطع من حولها الشك باليقين . فلا نكاد نعرف نصوصاً أثرية ظفرت بهذا القدر الكبير من المؤلفات التي تبحث فيها ، والتي أصبحت تعد بآلاف يصعب حصرها ما بين كتب مطولة ودراسات مختصرة ومقالات في المجلات المتخصصة وتقارير فنية من لجان شكلت لأجل ذلك، ومن سجلات لمناقشات دارت في مؤتمرات دولية حول هذا الموضوع. وبعد كل هذا ما تزال أكثر من علامة استفهام قائمة حول هذه المخطوطات . ولهذا فنحن لا نطمع بهذه السطور في أكثر من إعطاء فكرة معتدلة للباحث العربي عن مشكلة تتجاوز بدون أدنى شك أبعاد هذا الكتاب ، وتحتاج إلى أكثر من باحث ومتخصص يركز اهتمامه عليها ، في أعمال علمية مكرسة من أجلها من البداية إلى النهاية .

وتبدأ قصة اكتشاف هذه المخطوطات بشخص لا علاقة له بهذا النوع من النشاط الإنساني ، فهو راع عربي فلسطيني من قبيلة من أنصاف البدو تسمى « التعامرة » ، تقوم بتربية قطعان الغنم والماعز في جنوب فلسطين ، وفي المنطقة الممتدة من مرتفعات بيت لحم إلى أريحا على البحر الميت بالتحديد . وجد هذا الراعي ، واسمه محمد الديب ، مخطوطات من هذه المجموعة في مغارة واقعة في صخور « خربة قمران » بقرب « عين فشخة » في منطقة أريحا على البحر الميت ، وكان عثوره عليها وهو يبحث عن حيوان شارد من القطيع الذي كان يرعاه في تلك الجهة. كان المخطوط الذي معه عبارة عن طومار من الجلد ملفوف وعليه كتابة عبرية مخطوطة بعناية . وهذا الطومار مقسم إلى أعمدة ، وكل عمود قد جرت فيه خطوط متوازية بطريقة الحز بآلة حادة ، بحيث يكتب الكاتب على السطر فلا ينزل عنه ولا يرتفع . وكانت الكتابة بالحبر الأسود ، وبخط مربع سهل القراءة .

أخذ محمد الديب مخطوطاً من هذه المخطوطات وذهب إلى تاجر للسلع السياحية والآثار في بيت لحم ، اسمه خليل اسكندر شاهين ويعرف

في المنطقة باسم « كندو » وهي عندهم تدليل لاسم اسكندر ، وسأله عن قيمتها من الناحية التجارية . وكان الرجل جاهلاً بمثل هذه الأشياء ، فأعطاها إلى قس في كنيسة القديس مرقس للسريان في مدينة القدس العربية ليعطيه رأيه فيها . ولما كان هذا القس لا يعرف عنها أكثر من معرفة التاجر خليل اسكندر شاهين فإنه راح يطوف بالمخطوط على العلماء ، حتى انتهى يوم ١٨ فبراير سنة ١٩٤٨ إلى المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية بالقدس ، وهناك اطلع عليها المستشرق الدكتور جون تريفر ، الذي كان يقوم بمهام المدير نيابة عنه أثناء غيابه في بعض الحفائر بالعراق وفوجىء بالحقيقة المذهلة عندما بدأ يقرأ بعض أعمدة هذا المخطوط العبري فوجد أنه أمام نص من سفر إشعيا ، من أسفار أنبياء العهد القديم ، وأنه أقدم مخطوط من حيث التاريخ يحتوي على نص من الكتاب المقدس .

في هذه الأثناء اندلعت الحرب بين العرب والصهيونية على أثر إعلان اليهود لقيام دولة إسرائيل في ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، وتولى الأثري البريطاني لانكستر هاردنج ، مدير الآثار الأردنية ، أمر المحافظة على الآثار الفلسطينية في كل الأراضي التي منعت الجيوش العربية اليهود من احتلالها . وكانت منطقة أريحا من بين هذه المناطق . ومنذ ذلك الوقت بدأ العلماء والأثريون في العالم أجمع يهتمون بأمر هذه الحفائر والآثار ، وبخاصة بعد أن ظهرت مجلة المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية في نوفمبر سنة ١٩٤٨ (وهو عدد إبريل من هذه السنة ، ولكن تأخر ظهوره بسبب الأحداث السياسية والحربية في فلسطين) ، وكان هذا العدد يتضمن الاكتشافات والآراء الأولى حول هذه المخطوطات .

ومنذ ذلك الحين عرف العلماء مكان مغارة قمران ، لكن بعد أن كان البدو قد أخذوا كل محتوياتها من المخطوطات ، وراحوا يبيعونها سراً بأثمان مرتفعة وصلت في النهاية إلى أكثر من جنيه استرليني للسنتيمتر المربع من المخطوطات في الخمسينيات من هذا القرن . ومع ذلك فقد تسابقت الجهات العلمية المهتمة بالموضوع في اقتنائها . وكان لأمريكا منها نصيب الأسد ، كما

آل جزء قليل منها إلى الأردن، وتمكنت الجامعة العبرية بإسرائيل بوسائلها السرية من الحصول على كمية لا بأس بها، وكذلك نالت إنجلترا نصيباً منها، كما كان لفرنسا جانب أيضاً. ويقال إن أمر هذه المخطوطات ما يزال قابلاً لمفاجآت جديدة، فقد تظهر في الأسواق نصوص أخرى منها.

لم يكن أمام العلماء إذن إلا استقصاء أدق التفاصيل حول أصحاب هذه المخطوطات من الموقع التي وجدت فيه . وهكذا توالت الحفائر في منطقة قمران وكان من نتيجتها التفاصيل التالية :

١ ـ أن المغارة التي وجدت فيها المخطوطات لا يسهل تصور أنها كانت مكتبة ، أو داراً للمخطوطات (أرشيف) ، أو مدرسة لضيقها وظلامها وصعوبة الوصول إليها ، ولأنها لم تكن واقعة في منطقة آهلة بالسكان تدعو إلى التفكير في مكتبة عامة أو مدرسة أو دار للمخطوطات.

٢ ـ لوحظ مع ذلك أن معظم هذه المخطوطات قد نسخ في فترة معينة وقصيرة من الزمن ، على ملفات أو طوامير جديدة من الجلد عولجت وهذبت لهذا الغرض . وأن هذه الطوامير كانت ملفوفة في لفات من الكتان المدهون بالقار لمنع الرطوبة والحشرات، وبالتالي وضح للعلماء أن الناسخين كانوا يريدون الاحتفاظ بتراث معين يخافون عليه من الضياع ، وفي صورة موحدة .

٣ ـ عثر في المغارة على قدور أسطوانية من الفخار موحدة الصنع ، وتنقسم من حيث أبعادها إلى صنفين اثنين أحدهما أطول من الآخر قليلاً ، وعملت لها أغطية من الفخار مفصلة من أجلها ، وكل هذا يتبين أنه قد صنع خصيصاً لحفظ المخطوطات فيه ، فارتفاع الصنفين من القدور يتفق مع عرض الطوامير التي كانت أيضاً من قياسين ، بحيث توضع في كل قدر ثلاثة طوامير ملفوفة فتملؤها .

٤ ـ وجدت في المغارة أدوات للكتابة والنسخ كقناديل من الفخار ودوايات للحبر ولوحات يستعملها الكاتب مثل المنضدة عند الكتابة .

٥ ـ وجدت في المغارة آثار أخرى وبعض نصوص أقدم عهداً من هذه النصوص العبرية .

٦ ـ وتوالت الحفائر فكشف بالقرب من المغارة عن بقايا دير أو مستعمرة كاملة تعيش فيها الطائفة التي تركت هذه المخطوطات .

وكان الخلاف أولاً على تاريخ هذه الكتابة التي لم يُذكر التاريخ على واحد منها . فبعض العلماء ، كالأمريكي ألبرايت، قالوا لأول وهلة إنها ترجع إلى حوالي سنة ٢٠٠ ق.م. بينما زعم آخرون أنها ربما كانت من بعد الفتح الإسلامي ، كالبريطاني درايفر . وبين هذين الطرفين تعددت الأقوال وتشعبت . وفي هذه الأثناء وقع في أيدي العلماء مخطوط من تلك المخطوطات عنوانه « حرب أبناء النور مع أبناء الظلام » ، وهو كتاب صوفي يدور حول الأمرين الأساسيين في الاعتقاد اليهودي العام ، وهما كما سبق أن ذكرنا ، المسيحانية من ناحية ونهاية العالم من ناحية أخرى . وهذه الحرب الخيالية التي يصفها المؤلف ، هي حرب الفناء الأخير ، وأبناء الظلام هم جميع البشر من يهود وغيرهم ما عدا أبناء الطائفة الذين هم أبناء النور بطبيعة الحال . وهو في وصف الصراع بين المعسكرين يعتني بإعطاء تفاصيل دقيقة عن تنظيم جيش أبناء النور .

وقد قام باحثون متخصصون في التاريخ العسكري المقارن بمنطقة الشرق الأوسط ببحث تنظيم هذا الجيش الخيالي ، فتبين بما لا يدع مجالاً للشك أنه يشبه الكتائب العسكرية الرومانية في نفس هذه المنطقة في منتصف القرن الأول قبل الميلاد . ثم دخلت اعتبارات أخرى أيدت هذه النتيجة ، وأصبح الإجماع الآن يكاد يكون منعقداً على أن هذه الطائفة كانت موجودة في أواسط القرن الأول قبل الميلاد في هذا المكان، وأنها ربما اضطرت تحت تهديد القتل والإبادة إلى الهرب من المعقل الذي كانت تعيش فيه ، وفي الفترة القصيرة التي كانت تنظم فيها أمورها نسخت كل تراثها بهذا الشكل الموحّد، وخبأته في تلك المغارة البعيدة عن الأنظار، الوعرة المسالك، على أمل العثور عليه عند العودة بعد نهاية الخطر الذي كان يهدد كيانها إذ ذاك ، ولكن يبدو أنها ذهبت إلى غير عودة .

من أهم النصوص التي طالعتنا بها هذه المخطوطات :

١ ـ مجموعة القوانين التنظيمية المطبقة في الطائفة ، وهي اللائحة الداخلية للجماعة .

٢ ـ مجموعة من الصلوات والأناشيد والابتهالات وأدعية الحمد والشكر .

٣ ـ تفاسير على بعض النصوص المقدسة ، منها مختصر لشرائع توراة موسى ، وتفسير على أسفار صغيرة قصيرة للأنبياء «ميخا» و «ناحوم» و « حبقوق » والمزمور ٣٧ .

٤ ـ نصوص خاصة بنهاية العالم ، ومجيء المسيح المخلص ، وأهمها كتاب الحرب الذي أشرنا إليه ، ثم كتاب فيه أصول السلوك في المجتمع الإسرائيلي بعد أن يظهر فيه المسيح ، وكذلك نص يسمى العهد الجديد (ليس على صلة في شيء بما يسمى بهذا الاسم عند المسيحيين) ، وأخيراً نص عنوانه « الشر القادم » وهو موعظة تتعلق أيضاً بيوم القصاص والجزاء[١] .

ويبدو من خلال النصوص المختلفة الواردة من قمران أن هناك تشابهاً لا يمكن نكرانه بينهم وبين الأسينيين ، من حيث الإقامة في دار خاصة بالجماعة ومنعزلة عن الجمهور ، ومن حيث النظام الذي يخضع له أبناء الطائفة حسب ما يبدو بتفاصيله في مجموعة القوانين التنظيمية الداخلية ،

---

(١) — J.M. Allegro; The Dead Sea Scrolls; Pelican 1956.
— R.K. Harison; The Dead Sea Scrolls; London, 1961.
— W.F. Albright; The Archaeology of Palestine; Pelican, 1963.
— Theodor H. Gaster; The Dead Sea Scripture; New-York, 1956.
— A. Dupont-Sommer; Aperçus préliminaires sur les Manuscrits de la Mer Morte; Paris, 1950.
— A. Dupont-Sommer; Nouveaux Aperçus sur les Manuscrits de la Mer Morte; Paris, 1953.
ولم نذكر هنا إلا الكتب العامة ، التي يمكن للمبتدىء أن يأخذ منها فكرة ما عن هذا الكشف الأثري العظيم .

ومن حيث الإيمان باليوم الآخر وارتقاب المسيح ، وضرورة الاشتغال بالعلم ، والتقشف ، ولبس البياض ونحو ذلك .

ونحب أن نشير هنا إلى أن الرئيس الأعلى للطائفة كان مقدساً عندها يطيعونه طاعة عمياء ، ويسمونه « معلم الحق » أو « المعلم الحق »[1] وبالعبرية « مُوريه صِدِق » ، ويبدو من بعض إشارات وردت في التفسير الرمزي على سفر حبقوق الذي وصلنا من هذه الطائفة أن أحد رؤسائها المقدسين كان قد قبض عليه وعذب وأهين وجرد من ملابسه البيضاء ثم قتل على الصليب . لدرجة أن الأستاذ الفرنسي ديبون سومير[2] قال إن « معلم الحق » هذا هو مسيح من المسحاء الذين كانوا لا يكفون عن الظهور في المجتمع اليهودي إبان ظهور المسيح عيسى ابن مريم ، أو قبله بقليل .

والذي يبدو لنا بالرغم من هذا التشابه بين فرقة الأسينيين وجماعة « العهد الجديد » في قمران أن هناك خلافاً لا يمكن تجاهله بينهما :

ففرقة قمران حريصة على النقاء الثقافي التام من ناحية الارتباط بالعبرية ، سواء أكان ذلك في اللغة أو في الخط ، وقد عرفنا أن أرجح الأقوال في اسم طائفة الأسينيين يجعل هذا الاسم أجنبياً ، مما لا يسهل قبوله من طائفة شديدة التزمت في نقائها اللغوي وارتباطها بالعبرية الفصحى . وإن لم يستبعد أن يكون لهم فيما بينهم اسم آخر عبري .

كذلك عرفنا أن الأسينيين كانوا طائفة مسالمة ، بينما تدل كل الأمارات ، وفي مقدمتها تعرض طائفة قمران للإبادة ، وهجرتها العاجلة الجماعية من مكانها ، على أنها طائفة أشد عنفاً ، تشبه في ذلك القنائين .

يتأكد تعلق هذه الطائفة بالعنف في كتابها الذي عنوانه «حرب أبناء النور مع أبناء الظلام» وهي حرب فناء نهائي يهلك فيه أبناء البشرية جميعاً ما عدا أعضاء هذه الطائفة .

(1) الرأي الأخير من استدراكات ثيودور جاستر في كتابه المذكور في القائمة الصغيرة السابقة .

(2) في بحث له عن المخطوط المشتمل على تفسير سفر حبقوق ، طبع في باريس سنة ١٩٥١ .

وليس لدينا ما يمنع من الاعتقاد بأن طائفة قمران كانت طرازاً خاصاً يجمع بين الأسينية في التدين ، والقنائية في إقرار العنف والإرهاب وسيلة لتحقيق مآرب الطائفة ، وإن كانت مآربها لا تبدو مرتبطة ارتباطاً سياسياً بفلسطين على النهج الصهيوني، بل ربما كانت صهيونية متصوفة لا تقنع بفلسطين دون السيطرة على العالم أجمع ، وهذا النوع من الدروشة الحالمة كثير في المجتمع الإسرائيلي قديمه وحديثه .

وهكذا نرى من تلك العجالة أن نصوص البحر الميت بالرغم من أنها ظفرت حتى الآن بالآلاف من المؤلفات والمقالات ما تزال في حاجة إلى مزيد من البحث ، لا سيما من حيث نوع علاقتها بالأسينية ، إذ يميل الكثيرون إلى وضعها في نفس معسكرهم دون تصنيف أو إدراك للظلال الجزئية التي تجعل منها فكراً إسرائيلياً له كيان ذاتي يميزه .

كذلك نشعر بأننا ـ مع فرقة العهد الإلهي الجديد في قمران ، ومع الأسينيين ـ نقترب جداً من الدعوة المسيحية. والواقع أن الفكر الديني الإسرائيلي في عبوره من المسيحانية إلى المسيحية ممثلة في عيسى ابن مريم كان يخطو في الطريق المنطقية الطبيعية في تطوره . ولم يكن يبدو في هذا الخضم المتلاطم من المذاهب والفرق والآراء والاتجاهات السياسية منها والصوفية والشرعية ، أن المسيح ظاهرة شاذة أو داعية غريب ، وكادت اليهودية بعد انتهاء أمره من هذه الدنيا أن تبتلعه وتتمثله وتخفي عبقريته مع كل مختزناتها ، ونفاياتها ، ومهملاتها ، وعجائب مقتنياتها ، على المدى الطويل من أفكار ودعوات . ولولا اليهودي القديم المحنك شاؤل ، الذي عرف في المسيحية باسم القديس بولس ، لتغير الوضع . فهو الذي جاهر مؤكداً بأن دعوة المسيح عيسى ابن مريم ليست مذهباً يهودياً . بل دين جديد بوحي جديد وعهد جديد .

ومع ذلك فقد ظهر بين العلماء الذين اشتغلوا بمخطوطات البحر الميت من يعلن ـ كما قلنا ـ أن « معلم الحق » أو « المعلم الحق » ، رئيس طائفة

قمران ، يعتبر صورة طليعية للمسيح الذي ظهر بعد ذلك بأقل من نصف قرن من الزمان .

ونجد أنفسنا هنا مشدودين ، مرة أخرى ، إلى الاعتبار اللغوي ننشد فيه بعضاً من نور للتمييز بين الشخصيتين والدعوتين . فقد قلنا إن طائفة قمران كانت شديدة الولاء للغة العبرية ، وكانت فيها متزمتة محافظة إلى حد يشبه أن يكون تعصباً رجعياً، على حين أننا نعرف أن المسيح عليه السلام كان أكثر كلامه بالآرامية ، وكان لا يكاد يخوض في تيار العبرية إلا في مجادلاته مع الكتبة والفريزيين من رجال العقيدة اليهودية التقليدية . كما أننا نعرف أن أتباعه وحوارييه كلموا الناس بالألسنة التي يفهمونها ، واتجهوا بدعوتهم إلى غير اليهود بحيث تخلصت المسيحية من عصبية الجنس وعصبية اللغة لتكون ، في إبان ظهورها ، دعوة ديمقراطية تحررية أساسها عالمية الدين ، وتساوي الناس جميعاً أمام الله . وأهم من ذلك أنها نظفت من أدران الصهيونية السياسية التي جرت على اليهود الويلات ، وعلى غيرهم أيضاً .

٦ - الأبيونيين

هم فرقة تعود الباحثون من اليهود والمسيحيين أن يوجزوا فيها القول أو يمروا بها مر الكرام ، مما جعل دقائق عقيدتها تكاد تخفى على محبي الاستقصاء في هذا الميدان من المعرفة . وأهم أسباب ذلك أنها فرقة آمنت باليهودية بعض الإيمان فقط ، وآمنت بالمسيحية إيماناً جزئياً أيضاً ، فسقطت بين المعسكرين وفقدت اهتمامهما جميعاً.

والكلمة العبرية « إبيون » التي ينتمون إليها معناها « الفقير » أو « الوضيع » أو « المسكين » ، فهم إذن فرقة الفقراء أو المساكين . ولهذه التسمية في تاريخ الفكر اليهودي مظهران كل منهما بعيد عن الآخر في الزمن وفي الجوهر .

فعن المظهر الأول يقول المؤرخ اليهودي الألماني « جريتس »[1] إنه ربما يعود إلى أيام القضاة ، أي إلى ما قبل سنة ١٠٠٠ ق.م.. ففي ذلك الوقت لم يكن اليهود مستقرين في فلسطين ، بل كانوا في حروب مستمرة مع سكانها الأصليين من أجل هذا الاستقرار . وكانوا ـ وهم بعد ينفذون مخططهم في إحتلال هذه البلاد ـ قد قسموا أرضها مقدماً على الأسباط الاثني عشر ، بل على أحد عشر سبطاً منها فقط ، أما السبط الثاني عشر وهو سبط اللاويين عشيرة موسى وهارون فقد جعلت الرئاسة الدينية وقفاً عليهم ، وفي مقابل ذلك لم تخصص لهم أرض يمتلكونها ، بل أعطيت لهم ثمان

---

(١) H. Graetz; Histoire des Juifs, Paris 1884, Tome III, p. 257ss.

وأربعون بلدة متفرقة في أراضي الأسباط الأخرى يمارسون منها سلطتهم الدينية . ولكن حدث حادث أدى إلى ظهور فرقة باسم الأبيـونيين أو المساكين في هذا الوقت المتقدم .

كان في جبل إفرايم (شمال فلسطين) شاب عبري اسمه ميخا ، سرق من أمه ألفاً ومائة شاقل (مثقال) من الفضة ، ولكنه سمعها تلعن من سرقها فتشاءم وأعادها إليها . فنذرت المرأة الفضة ليصنع منها تمثالاً للرب أحدهما منحوت والآخر مسبوك . وأقام لهما ميخا معبداً وجعل أحد أولاده يقوم بالخدمة في هذا المعبد . وبالصدفة كان أحد أبناء اللاويين قد ترك بيت لحم وراح يهيم على وجهه شمالاً يريد أن يتغرب ويعيش . فوصل إلى ميخا وعرفه أنه من اللاويين . وتستمر القصة (قضاة ١٧/١٠ ـ ١٣) : « فقال له ميخا أقم عندي ، وكن لي أباً وكاهناً، وأنا أعطيك عشرة شواقل فضة في السنة، وحلة ثياب ، وقوتك . فذهب معه اللاوي ، ورضي اللاوي بالإقامة مع الرجل وكان هذا الشاب له كأحد أبنائه . فملأ ميخا يد اللاوي ، وكان الغلام له كاهناً ، وظل في بيت ميخا . فقال ميخا الآن علمت أن الرب يحسن إلي ، لأنه صار لي اللاوي كاهناً » .

وعلم اللاويون بذلك فكان صداه عندهم أن بعضاً منهم قرر أن يعيش على الكفاف ، وألا يؤجر نفسه لأحد ، ولا يتخذ الدين تجارة . وظهرت بهذا الشكل طائفة الفقراء ، تلتزم عمل الخير وسبيل الاستقامة وتنشر علم الشرع والدين بين الناس وتساعد البائس والمسكين والضعيف. ويقال إن هؤلاء المتقشفين الأول كانوا الأساتذة والموجهين لكثير من الشخصيات العبرية الشهيرة من أنبياء وكهنة وغيرهم ، فقد ذكروا أنه تخرج من تحت أيديهم الكاهن الأكبر « عِيلي » الذي أشرف على تربية النبي صمويل ، بل إن هذا الأخير أيضاً يعتبر من تلاميذهم ، وكذلك النبي العبري ناثان ، والعراف جاد ، وأخيا الكاهن الشيلوني ، وعِـدُّو الرائي ، وإلياهو النبي ، وكذلك إشعيا وأرميا وغيرهم من الأنبياء .

وإن القارىء في الإصحاح الأول من سفر إشعيا ليشعر بأنه يكاد ينادي

بشريعة الأبيونيين عندما يقول (١/١١ - ١٧) : « ما فائدتي من كثرة ذبائحكم ؛ يقول الرب: قد شبعت من محرقات الكباش وشحم المسمنات ، وأصبح دم العجول والخراف والتيوس لا يرضيني . حينما تأتون لتمثلوا أمامي ، مَن طلب هذا من أيديكم حتى تدوسوا مساكني. لا تعودوا للإتيان بتقدمة باطلة . فالبخور لدي رجس ، ومستهل الشهور والسبوت ونداء المحفل لا أطيقها. إنما هي إثم وتصنع. رؤوس شهوركم وأعيادكم كرهتها نفسي . صارت عليّ ثقلا ، وقد سئمت احتمالها . فحين تبسطون أيديكم أحجب عيني عنكم ، وإن أكثرتم من الصلاة لا أستمع لكم ، لأن أيديكم مملوءة من الدماء . فاغتسلوا ، وتطهروا ، وأزيلوا شر أعمالكم من أمام عيني ، وكفوا عن الإساءة . تعلموا الإحسان . والتمسوا الإنصاف . أغيثوا المظلوم . وأنصفوا اليتيم . واحموا الأرملة » . ويبدو هذا الضيق بالطقوس ، وبخاصة الذبائح والقرابين في قول النبي أرميا (٧/٢١ - ٢٢) : «هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل ، لمّوا محرقاتكم إلى ذبائحكم وكلوا لحمها ، فإني لم أكلم آباءكم ولم آمرهم ، يوم أخرجتهم من أرض مصر ، بمحرقة ولا ذبيحة».

ويقول نفس النبي أرميا في الإشادة بهذه « الأبيونية » القديمة (٢٠/١٣) : « رنموا للرب . سبحوا الرب. فإنه أنقذ روح المسكين (إبيون) من أيدي فاعلي الشر » . وفي نفس الموضوع يقول النبي صفنيا (٣/١٢ - ١٣) : « سأبقى فيما بينك شعباً وديعاً فقيراً ، فيعتصمون باسم الرب . فبقية إسرائيل لا يصنعون الإثم ، ولا ينطقون بالكذب ، ولا يوجد في أفواههم لسان مكر ، لأنهم سيرعون ثم يضطجعون ، ولا أحد يزعجهم » .

وخلاصة ذلك كله أن الأبيونية الأولى كانت نوعاً من التصوف الذي وصل إلى تعطيل بعض أوامر الدين ، مثل الذبيحة المحرقة وذبيحة القربان . ولكن يبدو أن روح المسالمة ، والسعي إلى النفع العام من جانب هؤلاء الأبيونيين القدماء جعلهم يعيشون في سلام مع بني ملتهم . ويظهر أنه كانت هناك بقايا منهم عند فتح الاسكندر المقدوني لفلسطين في أواخر القرن الرابع

قبل الميلاد . فقد جاء في كتابات الفيلسوف اليوناني ثيوفراست، تلميذ أرسطو ، قوله[1] إن هؤلاء اليهود شعب عجيب ، فكثير منهم قد وهب حياته للتأمل والدرس وتعليم خفايا الحكمة ومعرفة الحياة والكون . وهذا الوصف يطابق ما تردد من نصوص قديمة حول الأبيونيين الأول .

هناك مظهر آخر وأخير لهذه الأبيونية، يتمثل في فرقة يهودية ظهرت على أثر انتهاء أمر المسيح عيسى بن مريم من هذه الدنيا ، فآمنت به مع احتفاظها بيهوديتها وعنصريتها العبرية ، وسمي أبناء هذه الطائفة أنفسهم بالاسم القديم « الأبيونيين » ، واستمرت عقائدهم قائمة إلى أواخر القرن الرابع الميلادي ، ثم انطفأت بعد ذلك . وهذه الظاهرة هي التي دعتنا إلى الحديث عنهم في معرض حديثنا عن الفرق اليهودية التي خطت خطوات ملحوظة من المسيحانية إلى المسيحية .

وإذا كان كثير من الباحثين قد زعم أن المسيح عيسى ابن مريم قد تتلمذ قبل بعثته على الأسينيين، فإن دائرة المعارف العبرية[2] ترى في الإنجيل آثاراً من حكمة الأسينيين، وتستشهد بما روي عن المسيح في موعظته على الجبل (إنجيل متى ٣/٥ ـ ٩) : « طوبى للمساكين بالروح (الأبيونيين) فإن لهم ملكوت السموات . طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض . طوبى للحزانى فإنهم يتعزون . طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون . طوبى للرحماء لأنهم يرحمون. طوبى لأنقياء القلب فإنهم يعاينون الله . طوبى لصانعي السلام لأنهم يُدْعَوْنَ أبناءَ الله » .

وقد وردت بعض أخبار عن الأبيونيين في كتابات آباء الكنيسة المسيحية الأول ، مثل ترتوليان وأوريجن وغيرهما ، تفيد أنهم حافظوا على الشريعة الموسوية كما هي في التوراة بكل تفاصيلها ، ولكنهم آمنوا بعيسى المسيح إيماناً خاصاً . فهم يقولون إنه ليس مخلصاً سياسياً ولا دنيوياً ولا مادياً ، ولكنه مسيح منقذ للأرواح ، يعلم الناس قاطبة تفاهة عرض الدنيا ومتاع هذه

(١) دائرة المعارف العبرية . المجلد الأول .
(٢) نفس الموضع السابق .

الحياة . جاء ليبين للبشر أنه لا خير فيمن يلهجون بكلام الله ثم يجرون وراء الثروة والجاه ، وأن الخير كل الخير في التقوى والاستقامة وعمل ما يرضي الله والناس . وهؤلاء الأبيونيين لم يؤمنوا بالمسيح على أنه أقنوم من أقانيم الثالوث المقدس : الأب والابن والروح القدس ، ولا بأن له قدرة إلهية ، بل هو بشر ورسول وعبد من عباد الله كسائر عباد الله . ولذلك فإنهم قاموا في وجه القديس بولس عندما وضح مفهوم المسيح والدعوة المسيحية في رأيه . وذكرت دائرة المعارف العبرية أن ترتوليان نسب اسم الأبيونيين إلى واحد من اليهود اسمه « أبين » أو « أبينا » ، وأضافت أن هذا لا يعتمد على أي سند تاريخي ، وأن الوثائق لا تتضمن يهودياً بهذاالاسم أسس هذه الطائفة .

واستمر عداء المسيحيين من تلاميذ القديس بولس للأبيونيين ، الذين كانوا من جانبهم يتهمون هؤلاء المسيحيين بخيانة تعاليم المسيح ، وتأليهه ، وجعل دينه وسيلة لاكتساب عرض الدنيا .

وكما قلنا وقع الأبيونيون بين عدوين ضاريين هما : المسيحيون على شريعة القديس بولس ، واليهود على شريعة التلمود ، فكان في ذلك فناؤهم .

٧ ـ الغنوصية الصابئة

وهم عند اليهود جماعات تتفق على القول بأن المعرفة هي الطريق إلى الله ، وكانوا يريدون بذلك معرفة المادة والروح ، أو كما يقولون إدراك علم السموات والأرض . والظاهر أنهم كانوا في بدايتهم تلاميذ للأسينيين أيضاً ، وكان ولاؤهم القومي وتعصبهم الديني لليهودية يكفل لهم احتراماً بين الناس كالذي كان يتمتع به الأسينيون. ولكنهم مع مرور الزمن وجدوا من حولهم تراثاً علمياً من الأمم الأخرى كالبابليين والفرس واليونان فأخذوا ما شاؤوا من ذلك وراحوا يبتعدون عن اليهودية التقليدية ، ويَخْطُون من المسيحانية إلى المسيحية هم أيضاً ، على نحو جعل اليهود يمقتونهم ويعلنون تكفيرهم .

والظاهر أن هذه الغنوصية اليهودية ، مع الزمن أيضاً ، تلونت ألواناً ، وتجزأت طوائف ، ربما كان منها طائفة الصابئة في بدايتها ، وهم الذين يسمون كذلك « المندائيين » .

ولهؤلاء الصابئة دين خاص بهم تعتبرهم المسيحية واليهودية من أجله كفاراً ، بينما يلحقهم الإسلام بأصحاب الديانات السماوية وأهل الذمة . ويقوم دينهم على نقاط مميزة أهمها :

١ ـ الإيمان برسالة موسى ، وهم يعملون بتوراته في كثير من شؤونهم ، وبخاصة فيما يحل ويحرم من الأطعمة .

٢ ـ يؤمنون بالله والملائكة والجن ، ويولون بعض الكواكب ، وبخاصة نجوماً معينة ، شعائر تعظيم وتقديس ، الأمر الذي ترتب عليه أن يشيع بين

عامة اليهود والمسيحيين والمسلمين أن الصابئة هم عبدة كواكب . يقول الأديب الفرنسي فولتير في بعض كتاباته : « إنني أقنع برفع يديّ إلى نجم الشمال ؛ فأنا على دين الصابئة »(١) .

٣ ـ يؤمنون بالمسيحانية ، وباليوم الآخر .

٤ ـ يؤمنون إيماناً مطلقاً بأن يوحنا المعمدان نبي مرسل ، وأنه هو المسيح المنتظر ، ويسمونه في كتبهم يحيى بن زكريا ، متفقين في ذلك الاسم مع المسلمين .

ومعروف أن يوحنا المعمدان ، أو سيدنا يحيى بن زكريا ، قد ولد قبل المسيح بستةأشهر ، وكانت أمه إليصابات بنت عم السيدة مريم العذراء . وكان يوحنا يدعو إلى التطهر بالغطاس في مياه الأردن ، ويعلن قرب مجيء المسيح . ويهدي الناس إلى طاعة الله . وكان فيما يبدو على عداء شديد للطوائف اليهودية التقليدية ، ينظرون إليه على أنه زنديق ومشاغب ومزعج للأمن ، ثم حدث أن هيرودس أنتيباس ، حاكم الجليل بشمال فلسطين تزوج من هيروديا التي كانت متزوجة من قبل بأخيه ولا تحل له ، وكان لها ابنة اسمها سالومي ، طلبت في يوم عيد من زوج أمها أن يحضر لها رأس يوحنا المعمدان ، ويبدو أن الصبية طلبت منه ذلك بإيعاز من أمها ، لأن يوحنا كان يكثر من التشنيع على هذا الزواج ، ونفذ هيردوس أنتيباس الطلب ، فاعتبر يوحنا شهيداً للحق ، بل قدوة للشهداء جميعاً في المسيحية الأولى . وبالغت الصابئة في تقديسها له فاعتبرته هو المسيح ، وكفرت بسيدنا عيسى وبالإنجيل ، وزعمت أن عيسى ليس إلا مزيفاً لدعوة المعمدان ، ومغتصباً للرسالة ولصفة المسيحانية ولذلك فهم يمجدون سيدنا يحيى في صلواتهم اليومية ، وفي نفس الوقت يصبّون عكس ذلك على السيد المسيح عليه السلام .

٥ ـ أخذوا عن يوحنا المعمدان شريعة الغطاس ، واجتهاده في القول

---

(١) E Littré; Dictionnaire de la Langue Française; Paris 1883; tome 4; sub verbo Sabéen.

بقدسية عقد الزواج ، بحيث يحرم الطلاق وتعدد الزوجات إلا زوجة ثانية في ظروف خاصة ، كما أخذوا من الطقوس المسيحية القربان المقدس ، وإن كانت لهم تخريجات أخرى في حكمة هذه الشرائع ومع ذلك فإنه يلاحظ حدوث تطور في شريعةالزواج عندهم إذ يباح الزواج لرجال الدين ، ويباح لهم ولغيرهم الزواج باثنتين لا واحدة في حالات معينة .

٦ ـ لهم أساطير دينية كثيرة ، معظمها يتعلق بالصلة بين البشر والكواكب ، كما يتعلق بعضها بالطوفان والمعصية الأولى وبداية البشر وخلق العالم ، ومن المفيد جداً الاهتمام بدراسة هذا التراث ، فبعضه قد تسرب إلى القصاصين المسلمين والمسيحيين ، ووضع حتى الآن تحت الكلمة العامة « الإسرائيليات » .

وللمندائيين الصابئة نصوص مقدسة مكتوبة بلغة تعتبر لهجة آرامية وتسمى اللغة المندائية ، ولها حروف خاصة بها في الكتابة تتأرجح بين السريانية النسطورية والنبطية والعبرية . وقد عرفوا بأسماء أخرى مثل « الأقدمين » أو « الشيوخ » ، ويسميهم بعض اليهود « نصارى يوحنا المعمدان»، أما «المندائيون» فتعني «أهل المعرفة» أي الغنوصيين، ويقيم عدد منهم الآن في العراق، وإن كان اتصالهم بتراثهم وشريعتهم قد أصبح محدوداً جداً، كما هي الحال لدى السامريين.

وفيما عدا فرقة الصابئة يصعب جداً الإلمام بكل أصحاب الأهواء من اليهود الذين كانوا يظهرون على مدى أجيال طويلة من القرن الأول قبل المسيح إلى القرن الرابع بعده ، والذين يعتبر من أشهرهم اليهودي حزقيا ، الذي اشتهر باسم فالينتينوس القبرصي ، الذي باشر نشاطه في القرن الثاني الميلادي والكارثة واقعة على رؤوس اليهود في أعنف صورها بيد الإمبراطور الروماني هدريان . ولذلك لم تكن فلسفته الغنوصية ذات أثر كبير في اليهودية من بعده وإن كانت قد أثرت تأثيراً عميقاً في المسيحية .

٨ ـ اليودجانية

بعد أن استتب الأمر للدولة الإسلامية بجهود النبي ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده ، كانت طوائف أهل الكتاب من يهود ومسيحيين وصابئة تخضع لتشريع واضح ، تتمتع فيه بحرية العقيدة والثقافة وتعيش في ذمة المسلمين وتحت حماية دولتهم . وهكذا مضت الحقب الأولى للدولة الإسلامية بدون أن تقع حوادث تاريخية جسام على الصعيد الفكري لدى أهل الكتاب .

ولكن في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥ ميلادية) ظهر بين اليهود رجل اسمه أبو عيسى (عوبديا) الأصفهاني ، فادعى النبوة ، وأراد أن يكتل أبناء دينه حول دعوة جديدة تهدف إلى الحصول على كيان قومي لهم ، إلا أن دعوته لم تلق ما كان يؤمل فيه هو من نجاح .

ولكن تلميذاً لأبي عيسى الأصفهاني اسمه « يودجان » قام من بعده وراح هو أيضاً يدعي النبوة بين اليهود في منتصف القرن الثامن الميلادي . وكان حظه أحسن قليلاً من حظ شيخه ، فتبعه عدد من التلاميذ والمريدين واشتد إيمانهم به بعد موته ، حتى قالوا إنه المسيح المنتظر ، وأنه سيرجع من السماء مرة ثانية . وأطلقوا عليه لقب الراعي . وزعموا أن الزمن الذي يفصل بينه وبين النبي دانيال هو ١٣٣٥ سنة ، وأنهم وجدوا في سفر دانيال ما يفهم منه أن المسيح سيأتي بعد هذه الفترة من الزمن . وتقول دائرة المعارف

العبرية[1] إن لقب « الراعي » الذي أطلق عليه ، قد وصل إلى علماء المسلمين محرفاً ، فسماه الشهرستاني « الداعي » .

وأهم ما يعرف من تعاليم يودجان التي يقال إنها نفس تعاليم أبي عيسى الأصفهاني أنهما أوصيا بالتقشف والنسك ، والإكثار من الصوم والصلاة . وجعلا تناول اللحم والخمر حراماً في وقت النسك . والظاهر أن الدعوة كانت تتضمن برنامجاً للتوعية الصهيونية ، فإن يودجان وأبا عيسى أعلنا أن طقوس السبت والأعياد ليست فرضاً واجب الأداء في فترة تشريد اليهود في الأرض ، وأن من يقوم بها إنما يفعل ذلك فقط لإحياء ذكرى شعائر السلف الأقدمين . كذلك عطل يودجان عدداً من الشرائع مسبباً ذلك بأنها واجبة التنفيذ فقط عندما تكون لليهود دولة في فلسطين . وكان يرى أن تفسير التوراة يجوز أن يؤدي إلى استخراج المعاني البسيطة الظاهرة المباشرة ، كما يمكن أن تستنبط به الأسرار الباطنية الرمزية . وكانت اجتهاداته في هذه التأويلات الباطنية شديدة الجموح والشطط .

وفي غضون القرن العاشر الميلادي ، في حكم الخلفاء العباسيين ، كانت اليودجانية قد تقلصت وقل عدد أتباعها وتجمعوا كلهم تقريباً في مدينة أصفهان ، ومالوا إلى التأثر بمنهج المتكلمين المسلمين من المعتزلة . وما أن ظهرت فرقة اليهود القرائين حتى اتبعوها .

ولعل من المفيد أن نذكر ما نقلته دائرة المعارف العبرية عن الشهرستاني من قوله إن يودجان كان يهودياً من مدينة همذان ، واسمه بالعبرية يهوذا . وقد وجد علماء اليهود في كتابات إبراهيم بن عزرا الأندلسي قوله إن يهوذا الفارسي ألف كتاباً قال فيه إن تقويم السنين عند اليهود يحسب على الشمس . فذهب هؤلاء العلماء إلى أن يودجان أو يهوذا المولود في همذان عند الشهرستاني ، هو نفس يهوذا الفارسي عند إبراهيم بن عزرا .

وأشار الشهرستاني إلى شعبة من اليودجانية كانت تسمى « الموشكانية »

---

(١) المجلد الخامس .

نسبة إلى مؤسسها الذي كان اسمه « موشكا » . وكان هذا الرجل أشد عنفاً من سابقه فقال بوجوب قتال الخارجين على الدين . ويقال إنه خرج لقتال كهذا فقتل بالقرب من مدينة «قُم» بإيران.

ومن بين الموشكانية من يقولون إن محمداً ﷺ نبي حق ، وأن الله أرسله إلى العرب وإلى بقية الأمم ما عدا بني إسرائيل ، وقد اشتهر هذا الرأي أيضاً عن أبي عيسى الأصفهاني .

ومن شظايا اليودجانية كذلك طائفة الشادجانية الذين تزعمهم يافث بن علي ، وكانوا يقولون بإسقاط الشعائر وأحكام النجاسة والطهارة طالما شعب الله المختار يعيش مشرداً في البلاد . وقد لاحظ مؤرخو الفكر الديني الإسرائيلي أن كل هذه الفرق والشعب يحيطها غموض كثيف جداً . حتى لقد وجد اسم فرقة أخرى هي الشاركانية التي يكاد الرأي يجتمع على أنها هي الشادجانية وأن أحد الاسمين محرف عن الآخر[1] .

(١) دائرة المعارف العبرية ، الموضع السابق .

٩ ـ القراؤون

تسمية القرائين بهذا الاسم ترجع إلى أن العهد القديم ، أي التوراة والأنبياء والكتب ، كانت تسمى عند اليهود « المقْرَا » أي « المقروء » أو « القرآن » . وهذه الفرقة رفضت العنعنات الحَبْرية ، والمرويات الشفوية ، التي تناقلها « التناؤون » في المشنا ، و« الأمورائيون » في التلمود ، وكفرت بها ، وجعلت المرجع الأول والأخير في الدين هو النص المقدس المكتوب المنزل المسمى « المقرا » ، فأصبح أتباعها يسمون لهذا السبب القرائين .

فهذه الفرقة إذن تأتي بعد فرقة السامرة من حيث حدود النص المقدس المعمول به . فالسامرة كما قلنا يؤمنون بأسفار موسى الخمسة التي تسمى التوراة فقط ، ويضيفون إليها سفر يوشع بن نون مع التسامح والتساهل ، دون أن يؤمنوا ببقية العهد القديم من أسفار الأنبياء والكتب . والقراؤون أوسع منهم دائرة فهم يؤمنون بهذا كله ولكنهم يرفضون ما سواه ، أما الربانيون فإن المشنا والتلمود لهما عندهم نفس القدسية التي للمقرا . ومن هنا نشأت المشاكل العظيمة بينهم وبين القرائين .

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي تصطدم فيها اليهودية الجماهيرية بحملةتشكيك في تراثها الديني ، فالمسيحية التي حمل لواءها القديس بولس قد أعلنت بصراحة وحسم نهيها عن الرجوع إلى المرويات الشفوية الفريزية ، ونددت بها ، ووصفتها بالسرقة والتزييف والتدجيل ، بل أوقعت في نفوس المؤمنين أن الشريعة المكتوبة في العهد القديم قد أصبحت منسوخة بالعهد

الجديد . وفي ذاك الوقت لم يكن نص المشنا ، فضلاً عن التلمود ، قد انتهى بعد إلى الصورة المعروفة . ولما كان لكل فعل رد فعل فإن الأوساط اليهودية العلمية المحافظة قد انساقت في تيار هذا التحدي ، فاشتد اهتمامها بالمشنا والتلمود ، ونظمت صفوفها على أن يكون ذلك هو الطابع المميز لها إلى الأبد ، وهو الملجأ الفكري والروحي الذي تتحصن من ورائه ضد جميع الهجمات .

وفي ظل الإسلام ، والتلمود ما يزال حديث العهد بالجمع والتثبيت والتسجيل ، قام منشقون من بين اليهود أنفسهم يهاجمونه وينكرونه ، وفي مقدمتهم سيرينوس، ثم أبو عيسى الأصفهاني وتلميذه يودجان من بعده . ولكن حركاتهم كانت محدودة في الزمان والمكان والقوة، مما جعلها تنقلب إلى عنصر منشط للعصبية التلمودية ، بحيث ازداد الربانيون على أثر ذلك وعياً وإمعاناً في العناية بهذا التراث والحفاظ عليه .

وحدث في النصف الأخير من القرن الثامن الميلادي (حوالي سنة ٧٦١ م) أن توفي حاخام العراق الأكبر ، ورأس الجالوت في الدولة الإسلامية ، وزعيم المحافظين على التلمود بحكم منصبه ، وكان اسمه الجأون سليمان . ويبدو أنه لم يترك أولاداً يخلفه أحدهم في وظيفته . وكان أحق المرشحين لذلك ابن أخيه عنان بن داود . وكان صاحبنا هذا معروفاً بميوله التحررية ، وبخاصة إزاء شرائع التلمود . فعارض في انتخابه أكبر رجلين باقيين على رأس اليهود في الدولة الإسلامية وهما : رئيس أكاديمية سورة ، الجأون الأعمى يهوداي (رأس الأكاديمية من ٧٥٩ إلى ٧٦٢) ، ورئيس أكاديمية فومبديتا ، الجأون دارداي (رأس الأكاديمية من ٧٦١ إلى ٧٦٤) ، واختارا لزعامة يهود العراق الأخ الأصغر لعنان بن داود واسمه « حنانيا » .

وحدثت على أثر ذلك فتنة بين أنصار عنان وأنصار حنانيا . واستنجد أنصار عنان بأمير المؤمنين أبي جعفر المنصور ليفرضه فرضاً في هذا المنصب ، ولكنه آثر أن يترك الأمر لليهود أنفسهم ، وهكذا استقر حنانيا في

رئاسة الجالوت . وعلى عادة اليهود من ترويج القصص والأساطير ، نجد القرائين يقولون هنا إن أنصار حنانيا سعوا ضد عنان عند الخليفة ، وأفهموه أنه يتآمر على الدولة فوضعه في السجن تمهيداً لإعدامه . وتضيف هذه الأخبار ـ التي لا توجد عليها أية رقابة ـ أن بعض المسلمين الموجودين معه في الحبس نصحه بأن يعلن أنه لا ينتمي نهائياً إلى هذه الطائفة من اليهود ، وأنه يخالفهم في الاعتقاد ومن أجل ذلك دبروا له تلك المكيدة . وتقول الحكاية إن الخليفة المنصور اقتنع بهذا الكلام وسمح له بالمعيشة في فلسطين هو ومن يتبعه من اليهود .

ويقول المؤرخ اليهودي الألماني جريتس[1] أن عنان بن داود قام في فلسطين بحملة شعواء ضد التلمود وأصحابه للأذى الذي لحقه منهم ، ولحقده عليهم إذ لم يرضوه رئيساً لهم ، ويضيف إلى ذلك أن عقيدته القرائية تأثرت بمذهب الشيعة المسلمين الذين كانوا يقفون في وجه أهل السنة في ذاك الوقت . وكلام جريتس هذا فيه خطأ وخلط كثير ، ربما دعاه إليه تعصبه الشديد ضد القرائين ، فهو مؤرخ اليهودية التلمودية وداعيتها الأكبر في العصر الحديث ، إلى جانب كرهه الأصيل للمسلمين وجهله بالإسلام .

فمن المعروف أن المتكلمين المسلمين في هذا القرن الثامن الميلاد بالذات كانوا في منتهى النشاط ، ولم يكن الأمر إذ ذاك مقصوراً على النضال الفكري والديني والسياسي بين السنة والشيعة ، بل كان هناك ما هو أهم من ذلك ، كان هناك المعتزلة المسلمون الذين تزعمهم إمامهم واصل بن عطاء المولود سنة ٦٩٩ م في المدينة المنورة والمتوفى بالعراق سنة ٧٤٨ م ، أي قبيل حركة عنان بن داود ببضع سنين . وقد كان من أهم ميول المعتزلة فيما يتصل بأصول الدين ، عدم الأخذ بالحديث ، والتحرج من اعتباره مصدراً أساسياً للتشريع الإسلامي، وكانت حجتهم في ذلك أن كتاب الله ، القرآن، يستغني بنفسه عن التكملة بشيء آخر فقد جاء فيه ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾. وكانوا يشيرون دائماً إلى أن النبي ﷺ نهى الصحابة أكثر من مرة

(١) نفس كتابه السابق ، المجلد الثالث ، ص ٣١٨ .

عن كتابة الحديث ، حتى لا يختلط بما يكتبونه من القرآن ، ولو كان عليه الصلاة والسلام يراه ضرورياً للتشريع لأمر بكتابته كما أمر بكتابة القرآن . وكان المعتزلة يضيفون إلى ذلك أن رواة الحديث قد شاع فيهم الضعفاء والكذابون وغير المدققين بحيث أصبح القليل منه جديراً بالثقة، وهذا القليل الصحيح لا يكاد يضيف جديداً إلى ما جاء به القرآن الكريم . وقصارى القول إن المعتزلة وقفوا من المرويات الشفوية الإسلامية موقف الحذر الشديد ، وهو موقف يختلف تماماً عن مناهج الشيعة والسنة في الأخذ بالحديث والإكثار منه.

فالأقرب إلى المعقول أن يكون عنان بن داود قد أخذ وجهة النظر الإسلامية هذه عن الفرقة الجديدة المتألقة التي تجمع من حولها كل المتطلعين إلى التخلي عن الجمود، وتحكيم العقل في ذلك العصر، وهي فرقة المعتزلة، لا الشيعة . وكان الأمر أمام عنان سهلاً واضحاً ، فإن مرويات التلمود تختلف عن الحديث الشريف في أنها لا ترتفع أبداً بسند متصل إلى موسى أو من بعده من الأنبياء ، وفي أنها تتناقض تناقضاً صارخاً فيما بينها ، وكذلك فيما بينها وبين التوراة . ولذلك قلنا إن الحقد على الربانيين لم يكن وحده السبب الأساسي ولا السبب الأول لحركة عنان. ولو كان الحقد وحده هو الذي دفعه إلى أن يعمل شيئاً لكان اعتنق الإسلام مثلاً ، ولأمكنه بعد إسلامه أن ينكل بالحاخامين فكرياً وسياسياً أيضاً . كان الرجل تلميذاً للمعتزلة ومتأثراً بموقفهم في الإسلام من الحديث ، وذلك هو جوهر رفضه للتلمود .

والذي جعل الحركة القرائية تبدو خطيرة في عين اليهودية الجماهيرية هو تبحّر زعيم القرائية في التلمود وكثرة رجوعه إلى نصوصه بقصد تفنيده وهدمه . كذلك رجع إلى الكتابات القديمة التي تنكرت للعقلية التلمودية ، كالإنجيل والقرآن ، وقال إن عيسى ابن مريم ليس زنديقاً كما يدعي الفريزيون ، وأنه لم يشوّه التوراة ولم يكذبها أو ينسخها ، وأنه كان رجلاً من البشر ، من بني إسرائيل، تقيّاً صالحاً ، لم يفكر قط في النبوة أو الألوهية ،

بل كان مصلحاً ، يريد أن يخلص شريعة موسى من المفاهيم المنحرفة التي ألصقها الناس بها .

ونادى عنان كذلك بأن محمداً نبي حق ، وأنه كعيسى بن مريم لم يفكر قط في مخالفة التوراة ، أو التعدي عليها ، أو نسخ شرائعها .

واشتد الصراع بين الربانيين والقرائين ، فأعلن رؤساء كل طائفة تكفير الطائفة الأخرى ونجاستها وحرمانها من رحمة الله ، ومنعوا الصلاة كل منهم في معابد الآخر ، وحرموا كل مشاركة دينية أو شعبية من قبل أية طائفة من الطائفتين مع الأخرى ، من الأكل على مائدة السبت أو الأعياد إلى الزواج الذي حرم نصاً بين الطائفتين .

وجرت اليهودية الربانية على تسمية القرائين بالأسماء التي كانوا يطلقونها قديماً على الصدوقيين وغيرهم من الطوائف الخارجة ، فسموهم « مينيم » أي الزنادقة أو الكفرة ، وكذلك « أبيقوريم » أو « أبيقورسيم » أي الأبيقوريين ، نسبة إلى هذه المدرسة الفلسفية اليونانية الوثنية التي شاع عنها عند عوام اليهود الميل إلى الانحلال واللاأخلاقية . وأوصوا كل الأئمة أن يندِّدوا بهم من على المنابر في المعابد ، وأن يهاجموهم ويثبتوا تكفيرهم .

ولم يقصِّر القراؤون من جانبهم في فضح الربانيين والسخرية منهم حتى في تفسيرهم للكتاب المقدس . فهناك مثلاً قصة في سفر زكريا تقول (زكريا ٥/٥ ـ ١١) : « وخروج الملاك الذي كلمني ، وقال لي ارفع عينيك وانظر ماذا يخرج، فقلت ما هو؟ فقال هذه هي الإيفة[1] خارجة. ثم قال: هذه عينهم في كل الأرض . وإذا بقنطار رصاص قد رفع ، وبامرأة جالسة في وسط الإيفة فقال هذه هي الخبث ، وألقاها في وسط الإيفة وألقى كتلة الرصاص على فمها . ورفعت عيني ونظرت ، وإذا بامرأتين خرجتا والريح في أجنحتهما ، ولهما أجنحة كأجنحة اللقلق ، فرفعتا الإيفة بين الأرض والسماء . فقلت للملاك المتكلم معي إلى أين هما ذاهبتان بالإيفة ؟ فقال لي

(١) الإيفة في اللغة العبرية مكيال للحبوب كبير الحجم .

لتبنيا لها بيتاً في أرض شنعار، فإذا تهيأ ترسي هناك على قاعدتها».

ويقول القراؤون إن هذه الإيفة ، وهي وعاء المكيال الكبير الذي جلس فيه الخبث في صورة امرأة على فمها كتلة من الرصاص ، هي الشريعة التلمودية . وأرض شنعار كما هو معروف هي بابل أو العراق ، والمرأتان اللتان تطيران بالخبث لإقراره هناك هما أكاديمية سورة وأكاديمية فومباديتا . ومنذ أن ظهر هذا التفسير جرى عرف القرائين إذا تحدثوا عن الأكاديميتين التلموديتين أن يقولوا عنهما باختصار « المرأتان » .

وبعد موت عنان اعتبره القراؤون قديساً ، وجعلوا له دعاءً خاصاً في صلواتهم : « رحم الله الأمير عنان ، رجل الله ، الذي مهد طريق التوراة وفتح عيون القرائين ، وأبعد عن المعصية عدداً كبيراً من إخوته ، وبين لنا سواء السبيل . فليجعل الله له مكاناً مرموقاً بين السبعة المختارين لدخول الجنة »[1] وقد تولى رئاسة الطائفة بعد موته ابنه شاؤل .

ومع الزمن ظهرت في مجتمع القرائين مدارس علمية قوية اهتمت بدراسة اللغة العبرية ، وكان من أشهرهم في القرن العاشر الميلادي أبو سليمان داود بن إبراهيم الفاسي ، مؤلف قاموس التوراة الكبير الذي يشرح فيه ألفاظ الكتاب المقدس العبري باللغة العربية ، واسمه كتاب « جامع الألفاظ » ، أو « الأجرون » ، كما ظهر من بينهم محققون لقراءة الكتاب المقدس ، ومفسرون له ، تراكمت تفاسيرهم مع الزمن حتى إنه يروى عن عنان أنه قال لأتباعه : « اتركوا نهج المشنا والتلمود ، وأنا أصنع لكم تلموداً من عندي »[2] .

ومن أقطاب الفكر القرائي بنيامين بن موسى النهاوندي ، ومن بعده دانيال القومسي ـ أو الزمجاني ، الذي خالف شريعة عنان في بعض المسائل في أخريات أيامه ومنهم أيضاً ابن ساقويه صاحب كتاب « الفضائح » الذي هاجم فيه المشنا والتلمود والربانيين .

---

(١) دائرة المعارف العبرية ـ المجلد التاسع .

(٢) نفس المصدر .

وتولى زعامة القرائين في القرن العاشر الميلادي يعقوب القرقساني ، وكان متبحراً عالماً كما كان معاصراً لواحد من عباقرة الربانيين هو سعديا سعيد بن يوسف الفيومي ، فعاد الجدل إلى نشاطه في أيامهما ، وكتب سعديا كتابه المشهور « الرد على عنان » ، كما أنه ألف في عقائد اليهود على مذهب الربانيين « كتاب الأمانات والاعتقادات » ، الذي تأثر فيه من جانبه هو أيضاً بمذهب المعتزلة المسلمين . وكان في ذلك الزمن واحد من أكبر المتطرفين القرائين هو سلمون بن يرُوحَم . وقد لقي من القرائين احتراماً كبيراً جداً لشدة مهاجمته للتلمود وأصحابه : ومنهم في هذا الجيل أيضاً حسون بن مِشْيَح ، وكان مفسراً للتوراة ، شديد الجدل . ويقال إنه كان يرجع إلى بعض التراث الذي بقي من فرقة الصدوقيين القديمة ، فقد كان يذكر في كتاباته ما يسمى باسم « كتاب الصدوقية » .

ومن أئمتهم المعروفين أيضاً داود بن بوعز الذي يلقبونه بلقب الرئيس، وله تفاسير على أجزاء من التوراة، كما ألف كتاباً في أصول الدين سماه « كتاب الأصول » وفي القرن الحادي عشر الميلادي ازدهرت مدرسة قرائية تخرجت على يافث بن علي اللاوي وسهل بن مصلح ، وكان منها ليفي بن يافث اللاوي ، ويوسف بن إبراهيم الراعي ويشوعا بن يهوذا وقد خرّج هذا الأخير على يديه تلميذين نشرا المعتقد القرائي في الإمبراطورية البيزنطية ، أحدهما هو طوبيا بن موسى المترجم ، وكان متطرفاً شديد الجدل مع الربانيين ، والثاني هو يهوذا هاداسي مؤلف كتاب « مجمع العطور » (إشكول هكوفر) الذي يحتوي على أهم وأندر شروح القرائين الأولين .

واستمرت حركتهم العلمية نشيطة حتى مستهل القرن السابع عشر الميلادي ، ثم جمدت بعد ذلك مع وصول الوعي الثقافي والقومي الأوروبي إلى أعدائهم الربانيين ، بينما استمروا هم مرتبطين بمصير الشرق الذي ظهرت فيه مدرستهم وكان الجمود قد خيم عليه . فأكثر القرائين كانوا يقيمون في مصر والشام وتركيا والعراق وإيران وبعض أجزاء من روسيا وأوروبا الشرقية . وكان الحكم التركي والقيصري والإيراني في حال من التخلف

والظلام جعل القرائين اجتماعياً ودينياً وفكرياً يعانون نفس الأزمة التي يعانيها العرب والمسلمون ، فضلاً عن قلة عددهم بالنسبة لليهود عموماً .

ولكن القرون السابقة على القرن السابع عشر قد احتفظت للقرائين ، بعد الطبقات الأولى من علمائهم الذين سبقت الإشارة إليهم، بأسماء شهيرة جديرة بالذكر ، مثل إلياهو بن أبراهام ، وهارون بن يوسف الذي وضع صيغة كتاب الصلوات القرائية في شكله النهائي ، وكان طبيباً عالماً عاش بالقسطنطينية ، والقراؤون يذكرونه بلقب الشيخ . كذلك اشتهر من بينهم هارون بن إلياهو النيقوميدي ، وإلياهو بن موسى بن مناحم الذي كان قد تتلمذ على بعض الربانيين في بداية حياته ، مما أتاح له أن ينبغ في الفقه القرائي ، هو وصهره الذي تتلمذ عليه إلياهو بن كالب أفندوغلو .

تقلص ظل القرائين في العصر الحديث ، مع انتشار اليهود الربانيين بعددهم الكبير في أوروبا وأمريكا وكثير من البلاد التي استعمرها الغرب في أفريقيا وآسيا ، مما أدى إلى الوصول إلى مستوى حضاري ومالي وسياسي لا يستهان به من جانب مجتمع الربانيين ، بينما ظل القراؤون منكمشين في الشرق ، يعيشون حياة بعيدة عن الثراء الواسع أو الأهمية السياسية الخطيرة . وقد أدى هذا الفرق الكبير في العدد والثروة والمستوى الفكري والأهمية السياسية إلى ما يشبه أن يكون سحقاً للقرائين على يد الربانيين .

وتأكد ذلك مع ظهور الصهيونية ، فالوطن اليهودي في فلسطين كان يخططه ويعد العدة له يهود كلهم ربانيون ، ولم يكن في تفكيرهم الواعي ولا في عقلهم الباطن أي حساب للقرائين . وهكذا كانت الطائفة القرائية منذ البداية معادية للصهيونية نافرة منها ، وما تزال كذلك حتى الآن ، لأنها ترى فيها أكبر خطر يهددها وهو استيلاء الكفرة الربانيون الأعداء على كل مقدسات إسرائيل . وكان للقرائين في تركيا وروسيا ومصر نشاط ملحوظ ضد الصهيونية ، ولكن هذه الأخيرة استعانت بالجواسيس والعملاء ، واستغلت ظروفاً حربية وسياسية معينة لاصطياد بضعة آلاف من القرائيين وإدخالهم إلى إسرائيل . وهم يعيشون هناك كرهائن ، وكوسيلة للمساومات السافلة مع من

بقي من القرائين خارج هذا الشرك ، إذ أرغمتهم الصهيونية على التزام الصمت والكف عن مهاجمتها حرصاً على حياة أبناء الطائفة في إسرائيل وأمنهم .

وشريعة الربانيين في التلمود تغذي حقدهم على القرائين ، فقد قلنا مثلاً إنها تحرم الزواج منهم ، وإذا حدث تعتبره زنى ، وتعتبر الأطفال المولودين منه غير شرعيين ، ولا ينتمون إلى شعب الله المختار . وقد أفتى بعض الربانيين ، ومنهم سعديا الفيومي ، برفض عودة القرائي إلى مذهب الربانيين ، على اعتبار أنه مرتد عن الدين ، بينما رأى آخرون أن القرائي ، بما أنه ليس يهودياً ، يمكنه الدخول في دينهم على أساس أنه غريب من « الجوييم » مع كل ما يترتب على ذلك من تحديد في الحقوق المدنية والشرعية ، وحرمان هذا المعتنق الجديد من أن يصبح يهودياً من بني إسرائيل بالحظ الكامل . وفي كل المعاملات المالية ، وكذلك في الطعام والشراب يعتبر القراؤون « جوييم » ، وقد منع بعض الفقهاء مع ذلك إقراضهم المال بالربا ، على أساس أنهم يؤمنون بموسى وتوراته ، ويحترمون السبت فلهم في ذلك ما لسائر اليهود من حقوق وهو منع الربا معهم . وأفتى البعض بأن الرباني يقترض من القرائي بدون ربا ويقرضه بالربا .

ووصلت العداوة وتهم التكفير بين الفريقين إلى حد أن الحاخام الرباني البيزنطي كبسالي، الذي عاصر دخول الأتراك إلى القسطنطينية، نهى أن يعلم أحد الربانيين التوراة لقرائي . كما أنه يحرم على الربانيين أن يقرأوا في نسخة من التوراة كتبها أحد القرائين ، حتى ولو كانت صحيحة ، على أساس أنهم غير طاهرين .

كل هذه العداوة الشديدة تثبت شيئاً واحداً وهو أن اليهودية الجماهيرية الربانية لم تصطدم بحركة فكرية ودينية ـ بعد المسيح عليه السلام ودعوته ـ أخطر على الفكر الإسرائيلي العام من حركة القرائين ، التي استمدت عناصر قوتها ورسوخها من المناهج الإسلامية ثم انطوت مع الانطواء السياسي للفكر

العربي أيضاً في أواخر العصور الوسطى وأوائل العصر الحديث .

والآن ، هل تنتفض القرائية وتنهض من جديد ؟ هذا أمر مستبعد تحت الثقل الساحق للربانية وصهيونيتها ، ولكن ربما أثر المذهب القرائي في الفكر اليهودي العام بحيث تتولد من هذا التفاعل اتجاهات أكثر تعقلاً .

١٠ ـ المارانوس

هم طائفة من اليهود ظهرت في إسبانيا والبرتغال منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادي ، عندما قوي أمر المسيحية الكاثوليكية في تلك البلاد ونجحت في طرد المسلمين وإزالة الإسلام منها . ولما كان اليهود قد عاشوا في ظل الحضارة العربية بالأندلس معيشة لعلهم لم يروا مثلها رخاء وحرية وتقدماً لا على أيام سليمان وداود ولا في دولة إسرائيل الصهيونية المعاصرة ، فإنهم من جانبهم كانوا على ولاء صادق للعرب والمسلمين في هذه البلاد مما جر عليهم الويلات من جانب المسيحية الكاثوليكية . فقد ظهرت كما نعلم محاكم التفتيش المشهورة التي كان هدفها محو كل ما هو غير مسيحي كاثوليكي هناك . وكان اليهود فريسة سمينة وسهلة ، لانعدام من يحميهم ، ولتجمعهم في قرى وبلاد وأحياء خاصة بهم . كان الكاثوليك يهاجمونهم في مواطنهم هذه فينهبون ويسلبون ، ثم يأخذون كتبهم وأدواتهم الدينية المختلفة فيجعلونها كومة كبيرة في ميدان عام ويشعلون فيها النار بين تهليل الجماهير وصياحهم وسرورهم ، وكان هذا المنظر يتكرر بصورة عادية حتى أصبح يسمى في تاريخ الاضطهادات اليهودية باسم «أوتوديفا» أي الإحراق بالنار ، وكان أحياناً يؤتى باليهود أنفسهم مكبلين بالقيود فيطرحون في هذه النار أيضاً . وفي بعض الظروف كان يعرض عليهم أولاً اعتناق المسيحية ، فمن أبى منهم قتل ومن قبل ذلك نجا بحياته . وقد بدأت هذه الإجراءات في إسبانيا منذ عام ١٣٩١ ميلادية ، وكان هؤلاء اليهود المتنصرون يسمون بالاسبانية « كونفيرسوس » بمعنى المعتنقين للدين ، وكان

البرتغاليون يسمونهم « كريستاوس نوفوس » يعني المسيحيين الجدد[1] .

وقد عز على بعض هؤلاء اليهود المتنصرين أن يتركوا ديانتهم القديمة بالقوة ، فاتفقوا سراً فيما بينهم على أن يعيشوا في بيوتهم وفي المجتمع مثل الكاثوليك تماماً ، وأن يبنوا في الأحياء التي يعيشون فيها معابد شكلها الخارجي كالكنيسة الكاثوليكية بكل ما يمكن أن تحتوي من أجراس وصلبان وصور وتماثيل . حتى إذا اجتمعوا في داخلها عادوا يهوداً كما كانوا، يتعبدون حسب الطقوس الإسرائيلية . لذلك يسمون عند اليهود « أنوسيم » وهي كلمة عبرية معناها « المضطرين » أو « المكرهين » أو « المغلوبين على أمرهم » ، وواضح من مجرد هذه التسميات أنهم كانوا موضع عطف من سائر اليهود ، لأنهم على الأقل بهذه التسمية قد التمسوا لهم العذر .

أما كلمة « مارانوس » فقد اختلف في أصلها ، قيل إنها تحريف من كلمتين تبدأ بهما صلاة مسيحية بالآرامية ، هما « مَارَنْ آث » ومعناها « أنت مولانا » والخطاب بهما موجه إلى المسيح . وكان محتوماً على اليهودي الأندلسي الأصل أن ينطق بهما كثيراً لإبعاد الشبهة عن نفسه ، ثم أصابهما التحريف فصارتا « ماراناس » ثم مارانوس .

وهناك رأي آخر هو أقرب إلى المعقول خلاصته أن « مارانو » باللهجة العامية الإسبانية القديمة كان معناها « الخنزير » ، فتكون « مارانوس » صفة ذم لكل الذين دخلوا الدين المسيحي وهم غير أوروبيين ، ولا ينحدرون من أصول لاتينية ، كاليهود مثلاً ، ويكون المراد وصفهم بأنهم خنازير . والذي يقوي ذلك أن الذين بقوا من العرب في الأندلس بعد قيام المسيحية هناك ، ودخلوا في هذا الدين كانوا ، هم أيضاً ، يسمون « مارانوس » وعلى كل حال فإن كلمة «مارانوس» أصبحت في الإسبانية والبرتغالية والفرنسية تعني المنافق ، والخائن ، والدنيء ، واللص ، والكذاب ، ونحو ذلك من صفات اللؤم والخسة .

---

(١) دائرة المعارف العبرية . المجلد الثاني ، تحت لفظة (أنوسيم) .

عاش المارانوس في خليط عجيب من الطقوس يظهرون النصرانية ويبطنون اليهودية ، وكان بعضهم مع ذلك لا يستطيع أن يستر احتقاره للدين الجديد ، فمن ذلك ما روته دائرة المعارف العبرية من أن أحد هؤلاء المارانوس اضطر إلى حضور الصلاة في كنيسة كاثوليكية حقيقية ، وعندما كان المصلون يمثلون أمام تمثال المسيح على الصليب سمع هذا اليهودي يتمتم في سره قائلاً : «واأسفاه. من الذي يرى هذا ويستطيع الإيمان به ؟ » فسمعه بعض الحاضرين وذهب يشكوه إلى أمير أشبيليه .

وكان بعض المشرفين على محاكم التفتيش موجوداً فقال للأمير : إذا شئت أن تتأكد من أن المارانوس هم أولاً وقبل كل شيء يهود ، فلنصعد معاً ليلة السبت إلى القلعة وننظر ، وسوف تستطيع وأنت ترى شموع السبت على الموائد أن تعرف بيوت المارانوس من غيرهم . وكان يقال إن لهذه الطائفة حاخامين مستورين وجزارين يذبحون لهم اللحم ويوزعونه سراً ، ونحو ذلك من مظاهر الحرص على إقامة الشريعة رغم الصعاب والعقبات[1] .

وقد جر عليهم ذلك السخط والاضطهاد كالذي حدث في طليطلة سنة ١٤٤٩ ، وسنة ١٤٦٧ من قتل وسلب ونهب وإحراق لبيوت المارانوس . وحدث في قرطبة مثل ذلك سنة ١٤٧٣ ، ثم انتشر هذا السخط في نفس السنة والسنة التي تليها فعم بلاداً أخرى من إسبانيا . وفي البرتغال اشتعلت روح الغضب ضد المارانوس في لشبونة سنة ١٥٠٦ فقتل منهم عدة مئات في يوم واحد . وكان تعرض الطائفة لتلك الحملات الوحشية مدعاة إلى العطف عليهم كما قلنا ، فقد وجد في كتاب خاص بصلوات الأعياد اليهودية في روما يرجع إلى سنة ١٤٤١ ، دعاء هو « لترحم الحضرة الإلهية إخواننا المكرهين من إسرائيل المتروكين في الضيق والأسر ، ولتعطف عليهم ، ومن أجل اسمه العظيم يخلصهم ويخلصنا ويخرجهم ويخرجنا من الضيق إلى الفرج ومن الظلمة إلى النور ونحن نقول آمين » .

وقد اختلفت نظرة الفقهاء اليهود إلى المارانوس ، ففقهاء العصور

---

(١) جريتس : في كتابه تاريخ اليهود، المجلد الثالث .

الوسطى اعتبروهم مكرهين على أمرهم ، وليس عليهم ذنب ولا حرج ، ويعتبرون من بني إسرائيل في كل الحقوق والواجبات . أما المتأخرون من فقهاء اليهود فإن معظمهم مال إلى اعتبارهم فرقة من الخوارج ، ليسوا من بني إسرائيل بل من « الجوييم » . ويبدو أن الأمر لا تناقض فيه فهؤلاء المارانوس كانوا فعلاً في العصور الوسطى مكرهين على أمرهم ، لكن في العصر الحديث أعلنت حقوق الإنسان ، وشاع احترام المعتقدات الدينية للآخرين بين الناس ، وهوجمت كل أنواع التعصب الديني والعنصري في العالم ، لا يشذ عن ذلك إلا بعض المتخلفين فكرياً كأنصار الصهيونية بين اليهود وأعداء السود بين الأمريكان وما إلى ذلك. وبالتالي فإن المارانوس قد أصبح في إمكانهم أن يعودوا إلى الدين اليهودي ظاهراً وباطناً وسراً وعلناً، وأن يتركوا الواجهة المسيحية التي كانوا يتخفون وراءها ، ولكنهم لم يفعلوا ، فأصبحوا مستمرين في هذه البدعة بمحض اختيارهم وحريتهم ، وصار اعتبارهم من المارقين أمراً منطقياً .

١١ ـ الدونمة أو الدومنة[١]

وهي في الشرقي تقابل المارانوس في الغرب مع خلاف جوهري هو أن هذه الفرقة لم تكن مكرهة على أمرها ، وأنها تتخذ الإسلام واجهة تخفي وراءها يهوديتها ، وقد أشرنا سابقاً إلى أنهم أتباع المسيح الكذاب « شبتاي صبي » ، المولود في أزمير سنة ١٦٢٦ والمتوفى في ألبانيا سنة ١٦٧٥ ، وكان أبناؤها وما يزالون يعيشون في تركيا ويطلقون على أنفسهم أسماء ضخمة مثل « المؤمنين » و « الرفاق » و « المجاهدين » أما طوائف اليهود الأخرى وخصوصاً الربانيين فيسمونهم « مِينِيم » أي الكفار .

وهم يسترون عن الناس كل ما يثبت أنهم يهود ، لدرجة أنهم يتسمون بأسماء إسلامية لا يستعملونها في بيوتهم ولكن في الحياة العامة فقط . وهم يستعملون العبرية في صلواتهم ، والتركية في حديثهم ، وإن كانت العبرية تشرف على الموت الآن في مجتمعهم .

وهم شديدو المحافظة على تراث زعيمهم شبتاي صبي وتعاليمه . ومن أهم هذه التعاليم :

---

(١) كلمة من تركيب تركي عامي ، مركبة من « دو » أي اثنين (فارسية الأصل) و « نمة » أو «منة» بمعنى نوع ؛ أي الفرقة القائمة على نوعين من الأصول . النوع اليهودي ، والنوع الإسلامي . ولذلك عدل أبناء هذه الفرقة عن تلك التسمية كما سنرى، وسموا فرقتهم «المؤمنين» و «الرفاق» و « المجاهدين » .

١ ـ الزواج سنة واجبة ، وهو غير ممكن إلا بين رجل وامرأة من أبناء الطائفة ذاتها .

٢ ـ تعدد الزوجات محرم عليهم .

٣ ـ يستحسن عقد الزواج يوم الاثنين أو الخميس .

٤ ـ ينعقد الزواج على يد رئيس الطائفة الذي يبارك العروسين سبع مرات ، ثم تتم الزفة باللغة العبرية بالموسيقى والغناء .

٥ ـ شريعة الختان قائمة عندهم ومفروضة كما عند اليهود ، وكان الختان يتم في اليوم الثامن من مولد الطفل في بداية ظهور الطائفة ، ولكنهم تساهلوا في ذلك حتى لا يلفتوا إليهم أنظار المسلمين ، فأصبحوا ينفذون الختان في موعد أقصاه العام الثالث من مولد الطفل ، واباحه بعضهم حتى العام الثامن .

٦ ـ لهم مدافن خاصة ، وتختلف مراسم الحداد عندهم عنها لدى اليهود ، فهي تشبه ما تعوده المسلمون ، إذ يحضر الحاخام إلى البيت ويتلو ما تيسر من الأدعية والصلوات على روح الميت . وهم يقيمون العزاء على الميت يوم وفاته ، وبعد أسبوع ، وبعد شهر ، وفي يوم الأربعين ، وبعد ثلاثة أشهر، وبعد تسعة أشهر، وفي ذكرى السنة. وتنتشر في أدعيتهم وصلواتهم غير المأخوذة من الكتاب المقدس اللغة اليهودية الإسبانية « اللادينو » . وعددهم الآن آخذ في التضاؤل نظراً لقلة مواليدهم ، وعدم الاهتمام الفكري بهم من جانب اليهودية العالمية، وبخاصة لأنهم يرفضون الإيمان بالتلمود أيضاً ، كما يرفضون الاعتقاد في مسيح مخلص آخر غير زعيمهم شبتاي صبي الذي ينتظرون عودته حتى الآن .

وكانوا في البداية منقسمين إلى طوائف كثيرة منهم الأزميرلية ، والْقُونْيَهْلِيَّة، واليعقُوبْلِيَّة (نسبة إلى يعقوب الكريتي المتوفى سنة ١٦٨٧). وهذه الشعبة الأخيرة هي أكثر طوائفهم اندماجاً في الحياة التركية العادية ، وقبولاً لمظاهر التقدم التركي العثماني، حتى أن الأتراك كانوا يسمونهم

« طربوشلو » أى أصحاب الطرابيش كما كان زعيمهم يسمى يعقوب أفندي ، وأكثر بقايا الدونمة الآن من هؤلاء .

وقد انتشرت تعاليم شبتاي صبي في أوروبا الشرقية أيضاً ، فأخذها يعقوب فرنك لكن بعد أن أبدل المظهر الإسلامي بمظهر مسيحي، وحظيت ببعض الانتشار في أوروبا الشرقية تحت اسم الطائفة اليهودية « الفرنكية » .

١٢ ـ الإصلاحيون (الريفورميست)

أو المجددون

وهذه الفرقة اليهودية لا يمكن الحديث عنها منفصلة عن شعبة من اليهودية التقليدية هي شعبة المتصوفين « الحسيديم » ، وهم الذين وصلوا باليهودية المظلمة ربيبة الجتو إلى أقصى درجات الدروشة ، والتعلق بالبدع والخرافات ، وادعاء فعل الخوارق والمعجزات ، وعلم الغيب ، ونحو ذلك من مظاهر الدجل التي تلازم انحطاط الفكر الديني ، في كل الأديان ، وجموده . وقد انتعشت هذه الحسيدية في منتصف القرن الثامن عشر على يد حاخامين من المتبحرين في الطرق الصوفية السرية الباطنية «القبالة» وفي مقدمتهم إسرائيل بعل شيم طوب وزلمان ملودي المعروف باسم زلمان شنيئورزون وكلاهما من منطقة الحدود الروسية البولونية ، وقد علا شأن أولهما في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، وحوالي سنة ١٤٧٠ بالتحديد ، والثاني في أواخر نفس هذا القرن وأوائل الذي يليه ، فقد مات سنة ١٨١٢ .

وفي نفس الوقت الذي كادت هذه الحسيدية تسيطر على أرواح اليهود في أوروبا الشرقية وجزء من أوروبا الغربية ، وعلى أجسامهم وأموالهم أيضاً ، كان رقي العلم والثقافة في أوروبا ، وظهور القوميات المستقلة ، وتألق نظريات الحرية الفردية وحقوق الإنسان ، قد أتاح لبعض الشباب اليهودي أن يأخذ بنصيبه من العلوم الحديثة ، وأن يدخل مع الإنسانية المتقدمة من أبواب المعرفة نحو وعي أكثر رصانة وأصح تكويناً من هذه الانعزالية اليهودية وكانت طلائع ذلك في حركة الوعي الفكري اليهودي التي

عاصرت الحسيدية وكانت تسمى «الهسكالاه» أي التفهم واليقظة والنهضة.

وانبثقت حركة الاصلاحيين من داخل الهسكالاه على يد موسى مندلسون (بن مناحم) ، الذي ولد في ديسوي بألمانيا في ٦ سبتمبر سنة ١٧٢٩ ومات في برلين في ٤ يناير سنة ١٧٨٦ . وكانت له آراء جديدة على اليهود من الناحية السياسية والإنسانية العامة هي التي تعتبر دستوراً لهذه الفرقة وخلاصتها :

١ ـ أن اليهود يجب أن يندمجوا في إنسانية العصر ، وأن يخرجوا من قوقعة العنصرية التي حبسوا أنفسهم فيها طيلة قرون طويلة .

٢ ـ أن اليهودية دين فقط، وليست جنسية ، وأنه من الخطأ أن أقول « يهودي إنجليزي » أو « يهودي روسي » . . . إلخ ، والأصح أن يقال إنجليزي متدين باليهودية ، وروسي متدين بها ، وهكذا .

٣ ـ أن المساواة في الحقوق المدنية بين اليهود وغيرهم غير ممكنة إلا إذا اعتبر اليهود أنفسهم مواطنين في البلاد التي يعيشون فيها .

٤ ـ لا يمكن ذلك إلا إذا تحدث اليهود بلغات أوطانهم ، وتعلموا في مدارسها ، وحاربوا في جيوشها ، ولبسوا من الملابس ما يشبه بقية المواطنين ، وخرجوا من الجتو وأقاموا مع غيرهم من الناس[1] .

وكان من أشد الاصلاحيين اقتناعاً بهذا البرنامج إسحق صمويل ريجيو ، وهو يهودي إيطالي ولد في جويريتس بمقاطعة إيليريا سنة ١٨٧٤ ، وتوفي بها في ٢٩ أغسطس سنة ١٨٥٥. وكان يقول بضرورة التخلي عن العنصرية التعصبية القديمة عند المطالبة بالحقوق المدنية : « كيف نطلب شيئاً لا نستطيع لو أننا نلناه ، أن نستعمله ؟ وكيف نبرر أنفسنا أمام الأمم إذا كنا نثبت بسلوكنا كل يوم أن استمرارنا في التدين يتعارض مع التمتع بالحرية والمساواة » .

---

(١) جريتس ـ تاريخ اليهود ، المجلد الخامس .

ولما كانت فرقة الإصلاحيين هذه قد قامت كرد فعل طبيعي لقرون التزمت والظلمات والدروشة ، فإن أصحابها كرهوا المشنا والتلمود ، مشبهين في ذلك السامريين والصدوقيين والقرائين والدونمة ، وجعلوا منبع التشريع الوحيد هو الكتاب المقدس . إلا أنهم اختلفوا عن هذه الفرق القديمة في ميلهم إلى التساهل والتسامح والتيسير ، فكانوا يأخذون الأحكام في أبسط إمكانيات التفسير وأقلها قسوة على الناس عند التطبيق . وكان عدوهم اللدود هو كتاب « شولحان عاروخ » الذي جمع فيه الربّي يوسف كارو جميع الشرائع والأحكام والفتاوى والتفريعات الواردة في المشنا والتلمود ، وأصبح هو المعتمد عند المتحذلقين من اليهود . كان الإصلاحيون يعتبرونه رمزاً للجمود والتأخر ، والعقبة التي تحبس الشعب الإسرائيلي عن السير في طريق التقدم الإنساني ، فكرهوه هو وكل ما يشبهه من الشروح والحواشي والمناقشات والمجادلات .

وإذا كان موسى مندلسون لم يغير بنفسه شيئاً من الشرائع والطقوس التقليدية القديمة ، فإن أتباعه ومريديه من الإصلاحيين قد غيروا الشيء الكثير ، لكي يعطوا للدين اليهودي صورة إنسانية ووطنية دون أن يضطروا إلى القيام بالتعمية على شكل شريعتهم كما فعل المارانوس والدونمة مثلاً ، وكان من أهم التغيرات التي أحدثوها ما يلي :

١ ـ إنقاص الأدعية والصلوات إلى الحد الأدنى ، مع إباحة تلاوتها بلغات البلاد القومية حيث يعيش هؤلاء اليهود .

٢ ـ ترك الترانيم الشعرية العبرية والآرامية القديمة .

٣ ـ إدخال الآلات الموسيقية وفرق الانشاد الجماعي «الكورس» من الجنسين في المعبد والترنم بألحان حديثة مؤلفة ومكتوبة (على النوتة) خصيصاً لطقوسهم ، وانتهى ذلك التطوير بإدخال الأرغن في المعبد اليهودي تقليداً للكنائس والكاتدرائيات .

٤ ـ أنكروا في اعتقادهم أن يكون « الخلاص » معناه إقامة دولة في

فلسطين ، وهم بذلك كانوا وما يزالون من الفرق غير الصهيونية ، فعندهم أن الخلاص يكون في الدنيا بالحصول على المساواة في الحقوق المدنية ولا ضرورة إطلاقاً لربط ذلك بفلسطين أو بغيرها من البلاد .

٥ ـ خالفوا جميع اليهود إذ قالوا إن الله فعل خيراً ببني إسرائيل إذ فرقهم في الأرض ، فهم بذلك يستطيعون أن يعيشوا في كل الآفاق وأن يقيموا فيها الدليل على الدعوة الموسوية .

٦ ـ ولأنهم صرفوا النظر عن إعادة بناء الهيكل في أورشليم بالذات ، فإن كل معبد من معابدهم في أي مكان يطلق عليه اسم « الهيكل » .

٧ ـ أباحوا اختلاط الجنسين من المصلين في هذا « الهيكل » .

٨ ـ اهتموا جداً بالوعظ والإرشاد في داخل الهيكل ، بحيث كانوا يختارون لكل هيكل ، إلى جانب « الحزان » وهو الحاخام الذي يقوم بالكهانة في أثناء الطقوس ؛ خطيباً يتحرون فيه طلاقة اللسان وسعة العلم وقوة التأثير في الجماهير ، ويسمى عندهم « مَطِّيف » . ومن أشهر هؤلاء الوعاظ الخطيب اليهودي الإصلاحي المشهور أبراهام جايجر ، الذي تولى هذا المنصب بمدينة فيزبادن . وإليه يرجع الفضل أيضاً في نشر مجلة ناطقة بالاتجاهات الفكرية لهذه الطائفة ابتداءً من سنة ١٨٣٢ ، واسمها « الصحيفة العلمية للاهوت اليهودي » . وفي سنة ١٨٣٨ انتخبته طائفته حاخاماً أكبر لها في مدينة برسلو ، منافساً لحاخامها القديم « تيتكين » ، وقد أحدث هذا الانتخاب خلافاً حاداً في زمانه في تلك المدينة .

وأول هيكل خصص للطائفة هو الذي هيأه في بيته اليهودي الإصلاحي إسرائيل يعقوبزون وكان ذلك في « زيزن » بألمانيا ، ثم هيأ هو نفسه هيكلا آخر في بيته ببرلين سنة ١٨١٥ . وفي سنة ١٨١٨ شهدت الطائفة تشييد أول هيكل يبنى خصيصاً لإقامة الشعائر ، في الثغر الألماني الكبير همبورج ، وكانت الصلوات ، معظمها إن لم يكن كلها ، تقال فيه باللغة الألمانية لا العبرية طبقاً لمبادىء اليهود الاصلاحيين[1] .

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلد التاسع ، مادة « ريفورم » .

وطبيعة هذه الطائفة كانت تفرض عليها أن تظل نشيطة لا تتوقف عن الحركة ، والواقع أنها لم تقصر من هذه الناحية ، فكان أقطابها ما يزالون يجتمعون في مؤتمرات عامة ، وكان من أوائلها مؤتمر في برنشويج وآخر في فرانكفورت وثالث في برسلو في السنوات من ١٨٤٤ إلى ١٨٤٦ .

والذي كان يقضي بهذا النشاط هو الرسالة الضخمة التي كانت لهذه الطائفة حيال اليهود، فقد كان كثيرون منهم يخرجون من الدين ويعتنقون المسيحية إيثاراً للسلام ورغبة في الاندماج كما كان يهود أوروبا الشرقية قد بدأوا ينظرون إلى فلسطين ويهاجرون إليها تلك الهجرات الأولى التي سجلها القرن التاسع عشر تحت اسمين هما « بيلو » ، و« حب صهيون » . هذا إلى جانب يهود الجتو ، ويهود أسواق التجارة والأوراق المالية الذين لا يعبأون بشيء من كل ذلك في الأغلب ، ثم اليهود التقليديون الذين يعرفون الدين والتاريخ ولكنهم يريدون أن يسيروا بالأمة في نهج معين مرسوم أخذوه عن شيوخهم ليضمنوا به لأنفسهم الصدارة والجاه والنفوذ ، وهؤلاء هم الذين انبثقت منهم الصهيونية فيما بعد .

وكان على الإصلاحيين أيضاً أن يواجهوا العالم غير اليهودي ، مطالبين الأمم الأخرى بالشرائع الضرورية للاندماج والمواطنة ، أي أنهم كانوا مضطرين إلى أن يخوضوا معركة الحرية وحقوق الإنسان في نفس الوقت .

لهذا كله لم تسر الأمور بالنسبة لهم يسيرة هينة بل لقوا معارضات شديدة جداً كان أولها من جانب الداعية العنصري الصهيوني سمولنسكين ومدرسته التي ضمت جماعة من أمثال الكاتب والمفكر الصهيوني موسى هيس ومن قبله الحاخام المتطرف صبي كاليشر .

وفي حموة هذه المعركة كانت أحياناً تقع بعض الأخطاء، ولعل أكبرها من جانب الإصلاحيين أنهم لم يبذلوا جهداً كافياً في مهاجمة اليهودية المتعصبة في أوكارها في أوروبا الشرقية مكتفين بألمانيا والنمسا وبعض بلاد أوروبا الغربية وأمريكا . كذلك حدث في أخريات القرن الثامن عشر ، والنقاش محتد بين هؤلاء اليهود المتحررين وأعدائهم اليهود المتعصبين

الذين سموا أنفسهم الأرثوذكس ، أن ظهر كتاب في الشريعة اليهودية منسوب إلى أحد فقهاء القرن الرابع عشر المشهورين واسمه الربّي آشرين يحيئيل وطبع في برلين سنة ١٧٩٣ بعنوان « بساميم روش » أي عطور الربّي آشر . وكان من الواضح أن هذا الكتاب مزيف ، ومنحول لهذا العالم القديم الذي لم يكتبه ، فقد وجد الأرثوذكس من اليهود أعداء الإصلاحيين في ثناياه كثيراً من الشرائع المتساهلة المتطورة التي تحدد أنهم هم الذين كتبوه ، فمن ذلك قوله بتحليل أكل الأرز والبقول الجافة في أيام الفصح ،واليهود يحرمون ذلك، وتحليل شرب اللبن والنبيذ عند الجوبيم ، أي الكفار ، وهو أيضاً حرام . وإلغاء بعض أيام الصوم أو تخفيف أحكامها جداً ، مثل صوم استير ، والتاسع من آب الذي هو ذكرى تخريب هيكل أورشليم الثاني سنة ٧٠ ميلادية . كما ورد فيه تحليل الانتقال بالعربات يوم السبت وهو أمر محرم أيضاً . . . إلخ . وأسفر التحقيق عن أن مؤلف هذا الكتاب هو الحاخام الإصلاحي شاؤول ابن حاخام برلين الأكبر هيرشل ليفين . وقد أدى ذلك الخطأ الجسيم من تزييف الكتاب وانتحاله إلى انكماش كثير من اليهود عن حركة الاصلاحيين ، واستغلال المتطرفين من اليهود المتعصبين لهذه الوقعة في الدعاية ضد الفكرة الاندماجية والاصلاحية .

ومن هذا الصراع خرجت الصهيونية تدعي أنها تحمل الحل الأمثل لمشاكل اليهود ، بإنشاء وطن لهم في فلسطين يعيشون فيه مسايرين للتقدم العالمي دون أن يضطروا إلى تغيير لغتهم أو تقاليدهم أو شريعتهم ، أي أنها تزعم إرضاء الأرثوذكس والريفورميست جميعاً. وكانت النتيجة المريرة أنها لم تفلح في إرضاء أي منهما، بل أضافت إلى اليهودية أعداءاً جدداً كانوا بالأمس من أوفى الأصدقاء، هم سكان ذلك الشرق العربي والإسلامي بكل الثقل العددي والاقتصادي والحضاري الذي يمثلونه. وربما كانت الكلمة الأخيرة في مستقبل الحركة اليهودية للإصلاحيين لم تقل بعد، والمستقبل وحده كفيل ببيان ذلك.

١٣ ـ الفلاشة

هم طائفة صغيرة تتبع الشريعة الموسوية بصورة خاصة بها ، وتعيش في الحبشة ، ولولا ما نعرفه من المحاولات الدائبة من جانب الصهيونية وإسرائيل للتسلل في داخل الشعوب والأمم الإفريقية لكان من الممكن ألا نذكر الفلاشة بين الطوائف التي أردنا إعطاء فكرة عنها في هذا الكتاب . أما وإفريقية معرضة لهذا التسلل فقد وجب أن نعرف ما يمكن أن يكون ركيزة لإسرائيل ومعتمداً في القارة الإفريقية .

والفلاشة نموذج حي يثبت بما لا يقبل الشك خرافة الدعوى العنصرية اليهودية، فمن الناحية الأنثروبولوجية هم إفريقيون لا يمتون إلى الجنس اليهودي، ويشبهون غيرهم من الأحباش المسيحيين والمسلمين، بل إن معظمهم أشد سواداً من لون البشرة لدى الحبشي المتوسط . وهم لا يعرفون اللغة العبرية ، ولا يؤمنون بطبيعة الحال بالمشنا ولا التلمود ، ولكنهم يؤمنون بالكتاب المقدس ، أي برسالة موسى ومن بعده من الأنبياء ، ويقيمون السبت ويحتفلون بأكثر الأعياد ويحافظون على الشرائع الخاصة بالختان والزواج والجنازة وما إلى ذلك . ولهم معابدهم الخاصة بهم وهذه المعابد يقوم بالخدمة فيها كاهن يسمى «نازير» ـ وهي لفظة عبرية معناها المنقطع للطقوس الدينية ـ ووظيفته عندهم كوظيفة الحاخام ، ويشترط أن يكون متزوجاً . ومن رجال الدين عندهم نوع يسمونه « كوهين » وهي كلمة عبرية معناها الكاهن ولكنها تعني عندهم الجزار المأذون بالذبح الشرعي وله مساعد يسمونه باسم

محرف عن اليونانية هو « ديبتيرا »[1] .

والمحاولات مستمرة منذ ما قبل قيام إسرائيل في استقطاب بعض الفلاشة وتعليمهم في الأوساط الصهيونية ليكونوا طليعة عملاء إسرائيل في الحبشة .

والسؤال الذي يتبادر إلينا الآن هو من أين جاء هؤلاء الفلاشة إلى الحبشة ؟ لعلهم سلالة بعض الذين تهودوا من اليمن في أيام الملك يوسف ذي نواس ، أو لعلهم أحباش اعتنقوا اليهودية على يد بعض هؤلاء المتهودين من اليمن ، أو على يد بعض المغامرين الذين كانوا يقومون بالتجارة في بحر العرب وخليج عدن ، بل من المحتمل أيضاً أن يكون الذي هودهم داعية من بين اليهود المصريين ، تماماً كما حدث في تنصير المسيحيين من الأحباش على يد القديس المصري الأنبا مقار . كل ذلك ما يزال حتى الآن يبحث عن وثائق وأدلة للوصول به إلى نتائج يقينية .

وفي هذه الأزمنة الأخيرة من الثمانينات قامت إسرائيل بعملية من أضخم عمليات «الخطف» في التاريخ. إذ نقلت الجانب الأكبر من الفلاشة سرًّا إلى فلسطين، منتهزة فرصة المجاعة والجفاف في إفريقية، ووجود حكومة شيوعية في أديس أبابا تحاول الولايات المتحدة دائماً إزعاجها وإحراجها. وعند وصول الفلاشة إلى فلسطين أعلنت السلطات الدينية في إسرائيل أن عليهم أن «يعتنقوا» اليهودية الصهيونية وإلّا فهم كفار، وما تزال مشاكلهم هناك تتسع كل يوم.

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلد الثامن .

١٤ - بنو إسرائيل

وهذه فرقة عجيبة من اليهود توجد في الهند ويقيم أكثرهم في ضواحي بومباي .

وإقامة هؤلاء اليهود في الهند ترجع إلى ما قبل العصور الوسطى ، فقد ذكرهم الرحالة اليهودي الأندلسي بنيامين التطيلي ، كما ذكرهم موسى بن ميمون أيضاً .

ولون هؤلاء اليهود أميل إلى البياض ، وهم يؤمنون بالكتاب المقدس ولكنهم لا يعرفون التلمود كغيرهم من هذه الفرق الصغيرة النائية . ويقال إن السبب في تسميتهم بني إسرائيل أن كلمة يهود كانت غير محببة عند الأمم الأخرى . فلما دخل العرب الهند ، ووجدوا فيها هؤلاء المؤمنين بشريعة موسى ، ولاحظوا فيهم الاستقامة والمسالمة والمظهر الذي يدعو إلى الاحترام ، لم يسموهم اليهود بل بني إسرائيل . ومعظمهم يشتغلون بالتجارة وببعض الحرف اليدوية .

وتمتد هذه الجيوب اليهودية الصغيرة المنعزلة في داخل القارة الآسيوية ، لنظهر من جديد في الصين حيث يسمون أيضاً بني إسرائيل . ولم يكتشف وجودهم إلا في أوائل القرن السابع عشر. وهم يعيشون على طريقة الصينيين فيما عدا العبادة ، إذ لهم معابد يصلون فيها السبت ، أمام هيكل خشبي يسمونه « عرش موسى »[١] .

---

(١) دائرة المعارف العبرية ، المجلدان الثالث والرابع .

والآن ونحن ننهي هذه الجولة السريعة الموجزة في الفكر الديني الإسرائيلي ، نترك مكاناً خالياً لفرقة من الغلاة، الذين أصابوا الفكر الديني الإسرائيلي بأقصى ألوان التهويش والتشويه وهم فرقة الصهيونية . فهذه قد عولجت ، وستعالج من جميع نواحيها ، أو هكذا يجب ، بأقلام عربية وعالمية نزيهة كل منها يتناولها في حدود تخصصه ، لشدة خطرها على مستقبل اليهودية ذاتها وعلى مستقبل السلام العالمي والإخاء بين البشر .

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع

أ ـ المصادر والمراجع العربية :

١ ـ الأب مرمورة.
السامريون ، طبع نابلس .

٢ ـ مروان بن جناح ، أبو الوليد مروان بن جناح القرطبي .
كتاب اللمع ، نشره بالعربية المستشرق يوسف درنبورج ، باريس ، ١٨٨٦ م .

٣ ـ سعديا بن يوسف الفيومي .
تفسير التوراة ، أخرجه وصححه وبينه بحواش بالعبرانية يوسف درنبورج ، باريس ، ١٨٩٣ م .

٤ ـ سيجال ، م . ص .
حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل ، ترجمه إلى العربية من العبرية الحديثة وعلق عليه الدكتور حسن ظاظا ، لبنان ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٦٧ م .

٥ ـ العهد العتيق (الكتاب المقدس) .
بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٤ .

٦ ـ الكتاب المقدس .

٧ ـ م. حاي بن شمعون.
الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية للإسرائيليين ، مصر ، مطبعة كوهين وروزنتال ، ١٩١٢ م .

٨ ـ مراد كامل (دكتور) ، يسى عبد المسيح .
الأسفار القانونية التي حذفها البروتستانت ، الإسكندرية ، مدارس الأحد المرقسية ، ١٩٥٦ م .

٩ ـ هلال يعقوب فارحي (دكتور) .
سدور فارحي، مصر، مطبعة الأدون روبرتوموسكوفتش، ١٩١٧ م.

ب ـ المصادر والمراجع الأجنبية :

1 — دائرة المعارف العبرية (أوتسار يسرائيل) .
2 — Albright, W.F.
The Archaeology of Palestine.
Pelican, 1963.
3 — Allegro, J.M.
The Dead Sea Serolls.
Pelican, 1956.
4 — Berman, David.
Initiation au Judaisme.
Paris, 1937.
5 — Cazelles, Henri
Etudes Sur Le Code de L'Alliance.
Paris, 1946.
6 — Chajes, Z.H.
The students guide through the Talmud.
Translated by Jacob. Shachter.
London, 1952.
7 — Chiarini, L'abbé L.
Le Talmud de Babylone.
Leipzig, 1931.
8 — De Pauly, Jean.
Code civil et pénal du Judaîsme.
Paris, 1896.
9 — Dhorme, Le P. Paul.
Le Livre de Job.
Paris-Gabalda, 1926.
10 — Driver, S.R.
An Introduction to the Literature of The Old Testament.
England, 9th ed. 1929.
11 — Dupont-Sommer, A.
Aprçus Preliminaires sur les Manuscrits de la Mèr Morte.
Paris, 1950.

12 — Dupont - Sommer, A.
Nouveaux Aperçus sur les Manuscrits de la Mer Morte.
Paris, 1953.
13 — Fargues, Paul.
Introduction à l'Ancien Testament.
Paris, 1923.
14 — Freud, Sigmund
Moïse et Le Monothéisme.
Traduit de l'allemand Par Anne Berman.
Gallimard - Paris; 8e ed., 1948.
15 — Gaster, Theodor, H.
The Dead Sea Scripture.
New York, 1956.
16 — Gautier, Lucien
Introduction à l'Ancien Testament.
Payot - Suisse, 1939. 2 Vols.
17 — Graetz, H.
Histoire des Juifs.
Traduit de l'allemand par Moïse Bloch.
Paris, 1897.
18 — Greene, Benjamin.
Résumé Chronologique de l'Ancien Testament.
Lyon, Genève, 1909.
19 — Guignebert, Ch.
Le Monde Juif au Temps Jésus.
Paris, 1935.
20 — Guignebert, Ch.
Le Monde Juif Vers le Temps de Jésus.
Paris, 1950.
21 — Harison, R.K.
The Dead Sea Scrolls.
London, 1961.
22 — Hassan Zaza.
L'Oeuvre Grammaticale d'Ibn - Djanáh et ses rapports avec les différentes Théories Arabes .
رسالة دكتوراه للسربون ـ باريس ١٩٥٨ .

23 — James, M.R.
The Apocryphal New Testament.
Oxford, 1929.
24 — La Bible.
Traduite du Texte Original Par les membres du Rabbinat Français.
Paris, 1900.
25 — Lagrange, M.J.
Le Judaisme a vent Jesus-Christ.
Paris, 1931.
26 — Littiré, E.
Dictionnaire de la langue française.
Paris, 1883.
27 — Mielziner, Moses.
Introduction to The Talmud.
New York, 3d ed. 1925.
28 — Monniot, Albert.
Le Crime Rituel chez les Juifs.
Pierre Tequi, Libraire-Editeur.
Paris, 1914.
29 — Rosenberg. J.
Lehrbuch der Samaritanischen Sprache.
und Literatur.
30 — Voltaire.
Dictionnaire Philosophique.
Paris-Garnier, 1954.
31 — Zockler, D. otto
Die Apokryphen des Alten Testaments.
طبع ميونيخ ١٨٩١ م .

فهرس الأعلام

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ك)

(ل)

فهرس الموضوعات

الفصـــل الثانـــي
أصول العقيدة اليهودية

الفصل الثالث
الشريعة الموسوية وتطوير الدين اليهودي

الفصل الرابع
الشعائر اليهودية

الفصل الخامس
بعض الأحكام التي تميز شريعة اليهود

الفصل السادس
المذاهب والفرق

اقــرأ للمؤلف

أبحاث في الفكر اليهودي

وهي من منشورات

دار القلم

دمشق

اقــرأ للمؤلف

الشخصية الإسرائيلية

وهي من منشورات

دار القلم

دمشق



تطلب جميع كتبنا من
دار القلم دمشق: ص.ب ٤٥٢٣ ت: ٢٢٩١٧٧
بيروت ص.ب ٦٥٠١/١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار المنارة للنشر
جدة ـ السعودية
ص.ب ١٢٥٠، ت: ٦٦٠٣٢٣٨ـ٦٦٠٣٦٥٢
تلكس: ٦٠٣٠٦٧ عمران أس جي

